

م العرب

٥٦

ابن خزم الاندلسي

الدار
المصرية
لتأليف
والترجمة

أعلام العرب

٥٦

ابن عزم الأندلسي

المفكر الظاهري الموسوعي

تأليف

الدكتور زكريا إبراهيم

الدار المصرية للتأليف والترجمة

توزيع

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - النجيلة - القاهرة

تليفون : ٩٠٨٩٢٠ - ٩٠٥١٤٧

مقدمة

... وهذا علّم " آخر من أعلام العرب الخالدين ، يسعدنا اليوم أن تُضيفه الى اخوة له سابقين ... وانه لعلم فذ في تاريخ العروبة والاسلام : فانه المنطقى ، والجدلى ، والمتكلم ، والفقيه ، والمؤرخ ، والشاعر ، وعالم النفس ... الخ ! وسع علمه كل فنون المعرفة في عصره ، وخلف وراءه ثمانين ألف ورقة من شعره ونثره ، ومع ذلك فقد حاول الكثيرون من معاصريه تجريحه والاتقاص من قدره . ووصفه واحد من تلاميذه المخلصين فقال : « ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ ، وكرم النفس والتدين ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه ^١ » ولكنه لقي من عنت أهله واضطهاد ذويه ما جعله يقول : « وأما جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر : أزهد الناس في عالم أهله ، وقرأت في الانجيل أن عيسى عليه السلام قال : لا يفقد النبي حرمته الا في بلده ^٢ » ! واجتمع له من أسباب الغنى والمنصب

(١) الحميدى : « جدوة المقتبس » طبعة مصر ، ١٩٥٢ ، ص ٢٩١

(٢) المقرئ : « نفح الطيب » الجزء الثانى ، ص ١٣٠ (القاهرة ، نشرة

الدكتور فريد الرفاعى) .

والرياسة ما كان حرياً بأن يخلق منه عظيماً من عظماء قومه ، ولكنه انصرف عن مطامع الدنيا ومطامح المجد في سبيل حب العلم والسعى وراء الحق . وعاش في عصر تهافت أهله على جمع الأموال وبناء القصور واقتناص الملذات ، فما فكر الا في ارضاء مولاه باتيان الحسنات واجتناب السيئات . وكان الناس من حوله يتفاخرون بعلمهم ويتباهون بفضلهم ، وأما هو فكان يقول : « انى والله أعلم من عيوب نفسى أكثر مما أعلم من عيوب الناس وتقصهم ^١ » . ولقى من أهل عصره أقسى ضروب الجحود والنكران ، حتى لقد اضطر في كثير من الأحيان الى الهجرة والتنقل بين البلدان ، ثم شاء الله أن يكافئه بعد موته ، فوقف المنصور الموحدى ثالث خلفاء الموحدين على قبره خاشعاً يتساءل : « عجباً لهذا الموضع يخرج منه مثل هذا العالم ! ثم يلتفت الى من حوله ويشهد شهادة التاريخ الحق قائلاً : « كل العلماء عيال على ابن حزم ^٢ ! »

... ذلكم هو العالم الأندلسى الكبير على بن أحمد بن سعيد بن حزم الذى قدّم لنا ، منذ أكثر من تسعة قرون من الزمان ، أعمق دراسة نقدية فى علم الأديان ، وأشمل عرض لتاريخ الفرق والمذاهب ، وأدق كتابة للسيرة النبوية والجمهرة أنساب العرب ... الخ . وقد وصفه لنا الذهبى فى « تذكرة

(١) ابن حزم : « رسالة التلخيص لوجوه التلخيص » ، تحقيق الدكتور

احسان عباس ، دار العروبة ، ١٩٦٠ ، ص ١٧٩

(٢) « نفع الطيب » ج ٢ ، ص ٢٢١

الحفاظ » فقال : « ابن حزم رجل من العلماء الكبار ، فيه أدوات الاجتهاد كاملة ، تقع له المسائل المحررة والمسائل الواهية كما يقع لغيره ، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك ، ألا رسول الله صلى الله عليه وسلم ^١ » . وروى لنا عبد الواحد بن على المراكشى سيرته ثم قال : « وانما أوردت هذه النبذة من أخبار الرجل ... لأنه أشهر علماء الأندلس اليوم ، وأكثرهم ذكراً في مجالس الرؤساء وعلى السنة العلماء ، وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب ، واستبداده بعلم الظاهر ، ولم يشتهر به قبله عندنا أحد ممن علت . وقد أكثر أهل مذهبه وأتباعه عندنا بالأندلس اليوم ^٢ » . وطعن فيه خصمه مروان بن حيان ولكنه مع ذلك لم يملك سوى الاعتراف له بـ « المثابرة على العلم ، والمواظبة على التأليف ، والاكتثار من التصنيف ^٣ » . واختلف النقاد في الحكم على قيمة آرائه الفقهية ونظرياته الكلامية ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن ينكر نزاهته في طلب العلم ، وأماته في البحث عن الحقيقة .

ويروى في هذا الصدد أنه تناظر مع الفقيه الباجي الامام المالكي المشهور ، فقال له الباجي : « أنا أعظم منك همة في طلب العلم ، لأنك طلبته وأنت متعان عليه ، فتسهر بمشكاة

(١) الذهبي : « تذكرة الحفاظ » ، ج ٣ ، ص ١١٥٢

(٢) عبد الواحد المراكشى : « المعجب » ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٢٤ ،

ص ٤٧ - ٤٨

(٣) ياقوت الحموي : « معجم الأدباء » ، تحقيق الدكتور فريد الرفاعي ،

ج ١٢ ، ص ٢٤٨

الذهب ، وطلبتّه وأنا أسهر بقنديل بآئت السوق . فقال له ابن حزم : هذا الكلام عليك ، لا لك : لأنك إنما طلبت العلم وأنت في هذه الحال رجاء تبديلها بمثل حالي ، وأنا طلبته في حال ما تعلمه وما ذكرته ، فلم أرنج به الا علو القدر العلمى في الدنيا والآخرة ^١ . ولم يجانب ابن حزم الصواب ، فان الغنى أضيع لطلب العلم من الفقر وطيب العيش كثيراً ما يسول للنفس التماذى فى طلب اللذة بدلا من التفتانى فى طلب العلم . وسنرى كيف كانت حياة ابن حزم الأندلسى نموذجا لحياة العالم النزيه الذى يطلب العلم للعلم والعمل ، لا للمال والجاه ، أو للشهرة والمجد ... أليس ابن حزم هو الذى يقول : « ان لذة العاقل يتميزه ، ولذة العالم بعلمه ، ولذة الحكيم بحكمته ^١ » ؟

... على أن الباحث الذى يريد الامام بكل جوانب تفكير ابن حزم لا بد من أن يجد نفسه مضطراً الى الوقوف على الاطار الحضارى لهذا المفكر الموسوعى الكبير ، خصوصاً وقد عاش ابن حزم فى عصر تلاقى فيه الفكران الشرقى والغربى فى رحاب بلاد الأندلس ، وعاش فيه المسلمون جنباً الى جنب مع اليهود والنصارى من سكان تلك البلاد . وقد كان من شأن هذا الاختلاط أن عمل على ظهور حركات صراع فكرى نجمت عن الاحتكاك العلمى ، مما ترددت أصداؤه فى مناقشات ابن

(١) ابن حزم : « رسالة الاخلاق » ، القاهرة ، مارس سنة ١٩٦٢ ، سلسلة

الثقافة الاسلامية ، ص ٧

حزم الطويلة للنصارى واليهود في كتاب « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، وفي كتاب « الرد على ابن النخيلة اليهودي » ، وفي غيرهما من رسائل فيلسوفنا الأندلسي العظيم. ولم يقف ابن حزم موقفا عدائيا من علوم الأوائل ، بل لقد أقبل على منطق أرسطو ، وأخذ بطرف من فلسفة اليونان ، وعمل في الوقت نفسه على الافادة من هذا التراث اليوناني في دراسته للفقه الاسلامي وشتى المسائل الكلامية . ولا شك أن محاولة ابن حزم التقريب بين الفلسفة والشريعة قد أسهمت الى حد كبير في اكسابه عداوة أهل السُّنَّة من المتحاملين على علوم الأوائل ، خصوصا وأن هؤلاء كانوا يمثلون الغالبية العظمى من رجالات الفكر في بلاد الأندلس . ومن هنا فقد استهدف ابن حزم للكثير من الحملات بسبب كتابته في المنطق وتشيُّعه للفلسفة ، بحجة أن الفلسفة وحدود المنطق منافية للشريعة ، وأن كتب أرسطو بوجه خاص محتوية على الكفر وناصرة للالحاد ! وهكذا وجد ابن حزم نفسه مضطراً الى الدفاع عن المنطق ضد هجمات أولئك الخصوم المتحاملين على علوم الأوائل ، كما كان عليه في الوقت نفسه تبسيط كتب أرسطو في المنطق ، حتى يفهمها القارئ العادي الذي صدته الترجمات العربية الركيكة عن الاقبال على قراءتها . وكانت ثمرة هذه المحاولة كتاب ابن حزم الطريف في : « التقريب لحد المنطق ، والمدخل اليه ، بالألفاظ العامة والأمثلة الفقهية » .

وفضلا عن ذلك ، فقد ترك لنا ابن حزم كتابا في الأخلاق

سماء باسم : « الأخلاق والسيّر في مداواة النفوس » وصفه المستشرق الإسباني بلاسيوس فقال : « انه أشبه بسجل يوميّات ، دوّن فيه ابن حزم ملاحظات أو اعترافات تتصل بسيرة حياته . وهذه الملاحظات ترد في الكتاب دون ترتيب يقصد به الى التعليم والتربية ، ولم يتراع في تنسيقها منطق . ونحن اذ نقرؤه ، نجد فيه الوقائع كما سجلها رجل يقظ دقيق الملاحظة أثناء تجاربه الواسعة ، وصاغها في قالب مبادئ عامة وحكم » . وقد لاحظ بعض الباحثين أن هذا الكتاب الصغير الذي صاغ فيه ابن حزم مواعظه على طريقة سنيكا Sénèque وغيره من علماء الأخلاق ، يشبه الى حد غير قليل بعض كتب الأخلاق الحديثة مثل « الطّبّاع » للابرويّر La Bruyère ، و « مقالات في الأخلاق والسياسة » لفرنسيس بيكون F. Bacon . ولئن كنا نختلف مع القائلين بأن رسالة ابن حزم قد صدرت عن نفس يشوبها التشاؤم والتصوف ، الا أننا لا نرى مانعا من القول بأنها قطعة أدبية نفسانية ، تصف لنا أخلاق البشر في أسلوب يفيض حيوية ، وتكشف لنا عن فضائلهم وذنوبهم بطريقة مجردة تماما عن كل ميل أو هوى . وعلى الرغم من أننا نجد ابن حزم — في هذا الكتاب — يصارحنا بذنابل وتقائص أخلاقية يراها في نفسه ، ويقررها في تواضع وإخلاص يذكرنا باعترافات القديس أوغسطين ، الا أننا نجده أيضا يقدم لنا صورة حقيقية حية لنفسية مسلمي الأندلس

فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر المىلادى) ، وقواعد
الأخلاق التى كانت مرعية فى مجتمعهم^١ ...

وقد وصف لنا المستشرق الأسباني بالنشيا Palencia
قيمة ابن حزم الفكرى والأدبىة فكتب يقول : « ... ففى
قرطبة .. ظهر ابن حزم صاحب التواليف الكثيرة فى كل فن ،
وهو من أفذاذ الأعلام المعدودين فى تاريخ الأندلس . وان
التأمل فى مؤلفاته وما تحويه من مادة غزيرة ، ليرى بوضوح أن
ذلك الانتاج الحافل لا يمكن أن يصدر الا عن حضارة بلغت من
التقدم مبلغا عظيما . فذلك التحليل النفسى الدقيق الذى يتجلى
فى كتابه « طوق الحمامة » ، وهذه الملاحظات الشخصية النافذة
على الرجال وأخلاقهم التى يبدىها فى كتاب « الخصال » : ذلك
كله يتحدث عن بيئة ذات حضارة عالية . فأما تاريخ الأديان
الذى ألفه باسم « الفصل فى الملل والنحل » فقد سبق به
أوروبا النصرانية ببضعة قرون — كما يقول بحق أستاذى
ميجيل آسين پلاسيوس — لأن تاريخ الأديان لم يعرف فى
الغرب الا فى منتصف القرن التاسع عشر . أما مذهبه الفقهى
« الظاهرى » الذى يقوم على التفسير الحرفى للقرآن ، فلم يجد
عند فقهاء عصره قبولا ، بل تعقبوه فى عنف وضيقوا عليه
الحناق ، ولكن ابن حزم كان قد بعث فيه من الحيوية ما مكن

(١) آنخل جنثالك بالنشيا : « تاريخ الفكر الأندلسى » ترجمة الدكتور
حسين مؤنس ، الطبعة الاولى ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٥٥ ،
ص ٢١٧ - ٢١٨

له من البقاء دهرأ طويلا ، رغم انكار الفقهاء له . وكانت لابن حزم مساجلات ومجادلات حامية اضطر الى خوضها مع الفقهاء دفاعا عن آرائه ، ونخص بالذكر مجالس الجدل التي دارت بينه وبين أبى الوليد الباجى الفقيه الأشعرى المعروف ، فقد ظل صداها يتردد فى جوانب العالم الاسلامى دهرأ طويلا ، وهى تدل على مواهب ابن حزم ولسانه الحاد اللاذع ^١ .

والحق أنه اذا كان الجانب الأكبر من حياة ابن حزم قد انقضى فى الصراع الفكرى والخصومات المذهبية ، فإن ثمة جانبا آخر من حياته قد انقضى فى حب الجمال والكتابة عن العشق والعشاق . واذن فلم تكن حياة ابن حزم فى مجموعها صراعا وحربا ، وانما كانت أيضا مودة وحبا ، أو هى على الأصح كانت استقطابا حاداً وتوتراً مستمرا بين الحرب والحب . وقد وصف لنا بعض المؤرخين معارك ابن حزم الفكرية ، فقالوا انه « لم يك يُلطف صدغه بما عنده بتعريض ، ولا يزفه بتدريج ، بل يصك به معارضه صك الجندل ، ويثنيثقه مثلقية اتشاق الخردل ، فيثنقر عنه القلوب ، ويوقع بها الندوب ، حتى استهدف الى فقهاء وقته ، فتمالأوا على بغضه ، وردوا قوله ، وأجمعوا على تضليله ، وشنعوا عليه .. الخ ^٢ » . ووصف لنا

(١) المرجع السابق ، الترجمة العربية ، الفصل الاول ، مقدمة تاريخية ،

ص ١٤

(٢) ابن بسام : «الذخيرة» ، المجلد الاول من القسم الاول ، طبعة كلية

الاداب بالقاهرة ، ص ١٤١

غيرهم رفته في الحب ، ودقته في وصف عواطف المحبين ، فقال
ابن قيم الجوزية في « روضة المحبين » ان كلامه في العشق تنماع
فيه النفس انمياعا ! ... حقا لقد كان ابن حزم في بعض الأحيان
يَعْتَف حتى ليكاد حبه يصبح حربا ، كما أنه كان يَرِقُّ حتى
لتكاد حربه تصبح حبا ، ولكنه لم يكتفَ يوما عن الانتقال
من قطب الحرب الى قطب الحب ، ومن قطب الحب الى قطب
الحرب ، دون أن ينجح يوما في هجر الحرب أو السلو عن
الحب ! وسنحاول في تضاعيف حديثنا عن شخصيته أن نفسر
هذه الثنائية الأليمة أو ذلك التناقض الحاد الذي ظل ابن حزم
طوال حياته يعاني منه الكثير ، دون أن يتمكن يوما من بلوغ
حالة الاستقرار أو راحة الضمير !

على أن ابن حزم المجادل المصارع الذي تشنمَ لجدله
قعقة تشبه قعقة السلاح ، هو بعينه ابن حزم المحب العاشق
الذي يحدثنا عما في الحب من دموع وندوب وجراح ! وهو
في حربه وحبه ذلك المفكر الظاهري الذي يأخذ الواقع على
ما هو عليه ، ويَقْبَلُ الحقيقة دائما على ظاهرها ! وقد روى لنا
المقرئ في « نفح الطيب » أن ابن حزم التقى يوما — وهو
بصحبة صديق له — بوجه حسن ، فقال لصديقه : هذه صورة
حسنة ! وقال له صاحبه : « لم نَرَ الا الوجه ، فلعل ما سترته
التياب ليس كذلك » فقال ابن حزم ارتجالا :

وذى عذل فيمن سباني حسنته

بطيل ملامى في الهوى ويقول

أمن أجل وجنه لاح لم ترَ غيره
ولم تدّر كيف الجسم أنت عليل
فقلت له أسرفت في اللوم فأتد
فعندي ردّ لو أشاء طویل
ألم ترَ أنى ظاهرى^١ وأنى
على ما أرى ، حتى يقوم دليل^٢ !



وأما نحن فأننا نبادر الى مصارحة القارىء بأننا لم نستطع
أن نكون « ظاهريين » في حكمنا على ابن حزم ، فقد كان
علينا أن ننفذ الى صميم فكره بروح « التعاطف » التى هى
السبيل الأوحى الى فهم أى مذهب فلسفى « من الباطن » !
وهكذا أخذنا على عاتقنا أن نصادق ابن حزم ، على الرغم مما
قد يكون فى تفكيره من تعصب أو قطع أو جزم ، واثقين
من أنه ليس أجمل من التآخى فى العلم ، وليس أقدر من
« الحب » على الادراك والفهم !

القاهرة فى ٢ فبراير سنة ١٩٦٦

ذكرى ابراهيم

(١) المرقى : « نفع الطيب » ، ج ٦ ، تحقيق الدكتور فريد الرقاعى ،

ص ٢١٦ - ٢١٨

الباب الأول

ابن حزم الإشبيلية

الفصل الأول

عصره

في مطلع القرن الرابع الهجري ظهر عبد الرحمن الناصر ، فاستطاع أن ينقذ الحضارة الاسلامية الأندلسية الزاهرة مما كان يهددها من الأخطار الخارجية والخلافات الداخلية ، وتمكّن بفضل سياسته الحازمة القوية من اخضاع جماعات العرب لسلطانه ، ومهاجمة ممالك النصارى في الشمال ، فاستتب له الأمر في الداخل ، وأصبح الفرنجة يخشون سطوته في الخارج . وقد اقترن هذا الاستقرار السياسى بضرب من الازدهار الفكرى : اذ عنى عبد الرحمن الناصر بحماية الآداب والعلوم ، وشجّع الأندلسيين على دراسة الرياضيات والفلك والحديث وغير ذلك من العلوم الدينية ، كما أشرك بعضا من علماء اليهود في الثقافة الأندلسية فبدأت في عهده دراسة التوراة والتلمود في اسبانيا . وهكذا تكونت في قصر الخليفة الأندلسى العظيم مكتبة كبرى كانت هى الدليل الواضح على الدرجة العليا التى بلغتها الثقافة الأندلسية في عصره .

وفي منتصف القرن الرابع الهجرى (٣٥٠ هـ) توفى عبد الرحمن الناصر ، وخلفه على عرش الخلافة ابنه الحكم ،

فكان أكثر الخلفاء الأندلسيين تسامحا وحرية فكر ، حتى قيل انه لم يحكم اسبانيا يوما من الأيام حاكم على هذه الدرجة من العلم . وقد نهج الحكم منهاج أبيه ، وسار على سياسته ، ففضى على خصومه ، وتفرغ بعد ذلك لتنشيط الحركة العلمية في بلاده . ومما يروى عنه أنه كان يكلف بعض أتباعه استنساخ كل الكتب القيمة — قديمة كانت أم حديثة — في بغداد ودمشق والقاهرة والاسكندرية وغيرها ، فكان قصره حافلا بالكتب والمجلدات ، حتى لقد قيل ان عددها كان يربو على أربعمائة ألف كتاب . وقد ذكر لنا المقرئ في كتابه « نفح الطيب » أن الحكم قرأ معظم هذه المجلدات ، وأنه كان يكتب على كل مجلد نسب المؤلف ومولده ووفاته ، « ويأتى بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد الا عنده لعنايته بهذا الشأن » .

ولم يمكث الحكم في الخلافة سوى ست عشرة سنة ؛ فلما مات سنة ٣٦٦ هـ خلفه على عرش الأندلس ابنه هشام — الملقب بالمؤيد — ولم يكن قد بلغ العاشرة من عمره ! وبموت الحكم المستنصر ، انتهى العهد الذهبى للأندلس ، وبدأ عصر الفوضى والاضطراب . وكان طبيعيا أن يستبد بالأمر أحد الأوصياء على الخليفة الطفل ، فظهر المنصور بن أبى عامر ، وهو الذى استوزر أحمد بن سعيد (والد ابن حزم) ، ونجح

(١) بالنسبة : « تاريخ الفكر الأندلسى » ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، سنة ١٩٥٥ ، ص ١٠ (وانظر أيضا كتاب « نفح الطيب » للمقرئ ، الجزء الاول ، ص ١٨٤ - ١٨٥) .

في السيطرة على مقاليد الأمور ، ورسم لنفسه خطة بارعة
للقضاء على الخصوم والمنافسين ، وأجبر الأندلسيين على الخضوع
لحكومة عسكرية استبدادية اعتمد في تكوينها على عناصر من
المولّدين والصقالبة والبربر . وقد كان من نتائج هذه السياسة
الارهابية أن اضطرت نيران الفتنة التي قصمت ظهر الأندلس
بعيد وفاته ، وبعد أن تراخت يده الحديدية . وكان من نتائج
استبداده كذلك أن تعثرت الحضارة الأندلسية في سيرها على
أيامه ، فأحرقت كتب الفلسفة والفلك وغيرها من العلوم التي
كانت موجودة في مكتبة القصر ، بأمره هو نفسه ، استرضاء
منه لجمهرة الفقهاء الذين كانوا قد بدأوا يؤلّبون العامة عليه !
ولكن الغزوات الكثيرة المظفرة التي قام بها المنصور بن أبي
عامر قد ساعدت على بقاء الحكم في يده لى أن توفي سنة
٣٩٢ هـ ، بعد سبع وعشرين سنة كان خلالها هو الحاكم الحقيقي
لبلاد الأندلس ، فخلفه ولده عبد الملك وتلقب بالمظفر ، وسار
في الحجابة سيرة أبيه بصفة عامة ، ولم يطل به الأجل ، اذ توفي
سنة ٣٩٨ هـ . ولما مات المظفر خلفه أخوه عبد الرحمن وتلقب
بالناصر ، ولم يكن عبد الرحمن سياسيا بارعا ، أو حكيما
حازما ، كما كان أبوه ، بل كان طموحا متسرعا ، فحاول أن
يزيد من سلطانه ، وطمحت نفسه فيما لم يطمح فيه أبوه العاقل ،
وهو أن يكون أمير المؤمنين ، فحمل الخليفة المستضعف هشاما
المؤيد على العهد له بالخلافة بعده ، مما أثار ثائرة الأمويين
والمضريين ، وكانت فتنة ختلع فيها هشام المؤيد وسجن ، وكان

عبد الرحمن الحاجب في احدى غزواته فلما عاد لتلافي الأمر ،
وجد أن أنصاره قد انصرفوا عنه ، وثار به جنده وقتلوه سنة
٣٩٩ هـ ، و انتهى بذلك أمر الدولة العامية ^١ .

ولم يلبث الناس أن بايعوا محمداً بن هشام الذي تلقب
بالمهدي ، وبدأ يشدد الوطأة على البرابرة الذين كانوا يقومون
بالفتن في قرطبة ، وسرعان ما هاجم البرابرة المدينة وخلعوا
المهدي ، وبايعوا من بعده سليمان بن الحكم بن الناصر الذي
تلقب بالمستعين سنة ٤٠٠ هـ . وقام النزاع عنيفا بين المهدي
والمستعين ، فراح كل منهما يستعين على الآخر بقوى العدو ،
و « نهض المستعين في جنود البرابرة والنصرانية الى قرطبة ،
وبرز اليه المهدي في كافة أهل البلد ، وخاصة الدولة ، فكانت
الدائرة عليهم ، واستلحم منها ما يزيد على عشرين ألفا . وهلك
من خيار الناس وأئمة المساجد وسدتها ومؤذنيها عالم ، ودخل
المستعين قرطبة ختام المائة الرابعة ^٢ . ولكن المهدي لم يستكن ،
بل استعان بملك قسطنطينة الاسپاني ، وتمكن هذه المرة من
اخراج المستعين من قرطبة ، وحارب البربر ، وقامت موقعة
أخرى بين البربر ومعهم المستعين ، والمهدي ومعه النصاري ،
فانهزم المهدي وقتل ، وعاد الأمر الى هشام المؤيد ثانية
عام ٤٠٣ هـ .

(١) سعيد الافغانى : « ابن حزم الاندلسى ورسائله في المفاضلة بين

الصحابة » ، دمشق ، ١٩٤٠ ، ص ١٤ - ١٥

(٢) محمد أبو زهرة : « ابن حزم - حياته وعصره - آراؤه وفقهه » دار

الفكر العربى ، ١٩٥٤ ، ص ٩٦

وقد كانت ثورة قرطبة على أولاد المنصور ، والفتنة الكبرى التى أعقبتها ، بمثابة الضربة القاضية على الخلافة . وقد تطاحت على دفعة الأمور خلال هذه الفتنة الدموية طوائف شتى : كل منها كان يحسب أنه قادر على قطع دابر الفتنة وإعادة الأمور الى مجاريها الطبيعية ولكن دون جدوى ! وبدأت المهازل تجرى على قدم وساق بين المتنافسين على الحكم ، وقام المستعين يناوىء هشاماً المؤيد ، وتمكن من العودة الى قرطبة ومعه البربر سنة ٤٠٣ هـ ، وقتل هشام المؤيد سرّاً ، وخيل الى المستعين أن مقاليد الأمور قد آلت اليه . وتقاسم البرابرة الملك ، واستقل كل واحد منهم باقليم ، ونهض خيران العامرى حاكم المرية وراح يكاتب الأدارسة ويحرض الناس على خلع المستعين ، حتى جاء على بن حمود العلوى من الأدارسة وفتح قرطبة سنة ٤٠٧ هـ ، واستولى على الملك ، وقتل المسنّعين ، فانقرضت دولة الأمويين وبدأت دولة العلويين .

على أن خيران العامرى لم يلبث أن أوجس خيفة من ابن حمود ، فسعى سرّاً ليعيد الأمر الى الأمويين ، ونجح فى هذا المسعى فبايع أهل الأندلس عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك ابن الناصر ، ولقبوه بالمرتضى سنة ٤٠٨ هـ . وسرى عند الحديث عن سيرة ابن حزم كيف أن المفكر الأندلسى الكبير كان من المؤيدين لعبد الرحمن الرابع — الملقب بالمرتضى — فيما كان يسعى اليه من طلب الخلافة بمؤازرة نفر من أنصاره .

وقد سار ابن حزم مع جيش المرتضى لحرب بنى حمود ، ولكن الجيش انهزم في موقعة غرناطة ، وقتل المرتضى ، وأسر ابن حزم ، ثم أخلى سبيله فلجأ الى شاطبة^١ .

وقام عبد الرحمن بن هشام أخو المهدي يطلب الخلافة لنفسه ، وكان ابن حزم في مقدمة المؤيدين له ، واستطاع عبد الرحمن الخامس — بالفعل — الحصول على الخلافة سنة ٤١٤ هـ ، وسمى نفسه باسم المستظهر ، واستقدم ابن حزم وأقامه وزيراً له ، ولكن خلافة المستظهر — كما سنرى فيما بعد — لم تدم أكثر من شهرين ، فقد قتل في ٢٧ ذى القعدة سنة ٤١٤ هـ ، وتعاقب على الخلافة من بعده خلفاء مستضعفون من بنى أمية تارة ومن العلويين تارة أخرى ، الى أن بويع هشام بن محمد المعتد بالله سنة ٤١٨ هـ ، فاستوزر ابن حزم مرة أخرى ، ولكن الاضطرابات التي قامت في ولايات الأندلس عندئذ بسبب مطالبة وهب أمية بن عبد الرحمن بن هشام بالبيعة لنفسه قد عملت على اضعاف حكم الأمويين ، فكان آخر خلفائهم هو هشام بن محمد المعتد الذي ختم ملكهم سنة ٤٢٢ هـ . وقد وصف لنا المقرئ اقراض الخلافة الأموية فقال : « انقطعت الدولة الأموية من الأرض ، وانتثر سلك الخلافة بالمغرب ، وقام الطوائف بعد اقراض الخلائف ، واقتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات ، واقتسموا

(١). بالنبشيا : « تاريخ الفكر الاندلسي » ترجمة الدكتور حسين مؤنس ،

خطتها ، وتغلب بعضهم على بعض ، واستقل أخيراً بأمرها ملوك
استفحل أمرهم ، ولاذوا بالجزى يدفعونها للطاغية أن يظهر
عليهم أو يبتزهم ملكهم ، وأقاموا على ذلك برهة ، حتى قطع
عليهم البحر ملك العدو وصاحب مراكش أمير المسلمين
يوسف بن تاشفين اللتموني ، فجعلهم وأخلى منهم الأرض^(١) .
وقد عاش أبو محمد علي بن حزم في هذا العصر المضطرب
الزاهر بالأحداث السياسية ، فعاصر انحلال الخلافة الأموية ،
واستقلال كل وال بولايته ، وشهد الفترة الأولى من عهد ملوك
الطوائف بالأندلس ، وترك لنا من التعليقات والملاحظات
ما يدل على أنه كان مستاء أشد الاستياء لتصرفات أمراء
الطوائف ومثالبهم وبغيهم واستهتارهم . وقد شغل عصر
الطوائف من حياة الأمة الإسلامية بالأندلس نحو ثمانين عاماً ،
وشغل حياة ابن حزم منذ فتوته إلى وفاته . وقد وصف لنا
أحد الباحثين الممتازين عصر الطوائف فقال : « (انه) كان
عصر تفكك وانحلال سياسى واجتماعى شامل ، وذلك بالرغم
مما كان يبدو في بعض نواحيه من جوانب براءة . والواقع أن
هذه الدول الصغيرة التي قامت على أقاض الأندلس الكبرى ،
والتي كانت تتسم بسمة الملك ، وتزعم كل منها لنفسها
الاستقلال بشئونها لم تكن — إذا استثنينا القليل منها — سواء
برقاعها الاقليمية ، أو مواردها المالية ، تستطيع الحياة

(١) المقرئ : « نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب » طبعة فريد
الرفاعي ، ج ٤ ، ص ٥٩

بفردھا ١ . ومن أشهر ملوك الطوائف الذين عاصرهم ابن حزم بنو جهور بقرطبة ، وبنو عباد باشبيلية ؛ وسرى عند الحديث عن سيرته كيف أن واحداً منهم — ألا وهو المعتضد ابن عباد — أمر بإحراق كتبه ومصادرتها ! ولعل من أعجب المفارقات أن يجيء واحد من أبناء حزم — ألا وهو أبو رافع الفضل — فيدخل في دعوة المعتمد بن عباد ، ويخلص في خدمته ، ويقتل في موقع الزلاقة ، محارباً الى جانب ألد أعداء أبيه ٢ ! .

ولو أننا أنعمنا النظر الى الأحوال السياسية التي عاصرها ابن حزم ، لوجدنا أنه لم يشهد من عهد الخلافة الأموية بالأندلس سوى فترة انحلالها ، فلم يذق طعم « الاستقرار » في صباه أو رجولته ، ثم كان عهد الانقسامات والاضطرابات السياسية فشهد ابن حزم من ألوان الفتن والمحن ما جعله يأسف لمصير الوحدة العربية بالأندلس ، خصوصاً وقد أصبح المسلمون يدفعون الاتاوات للطاغية الأجنبية ، واستمرت تلك الحال حتى وفاته سنة ٤٥٦ هـ ، وقد أرجع بعض الباحثين ما اتسمت به نفس ابن حزم من صلابة وصرامة الى تلاءم

(١) محمد عبد الله عنان : « ابن حزم الفيلسوف الاندلسي الذي ارخ لمجتمع الطوائف » بحث منشور بمجلة « العربي » ، العدد ٦٨ ، يولييه سنة ١٩٦٤ ، ص ٨١ - ٨٢

(٢) بالنشأ : « تاريخ الفكر الاندلسي » ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، ١٩٥٥ ، ص ٢١٦

الظروف السياسية القاسية التي عاش في كنفها ، فقال آسين
پلاثيوس Asin Palacios : « ان ابن حزم قد عاين من ألوان
الظلم ما أنضب معين الرقة واللين في نفسه ، وشاهد من
مساءات الفوضى السياسية التي ضربت على الأندلس بجرانها
في أيامه ما نفّر نفسه ^١ ... » وليس من شك في أن الخراب
الذي حل بقرطبة على أثر الفتن التي قام بها البربر قد ترك
أثراً عميقاً في نفس ابن حزم ، فضلاً عن أن تفرّق كلية
المسلمين واتقسامهم على أنفسهم قد عملا على تزايد احساس
ابن حزم بالمحنة الكبرى التي كانت تجتازها بلاده في عهد
أمراء الطوائف . ولم يكن من قبيل الصدفة أن تتردد أصدااء
هذه الأحداث السياسية الخطيرة في حياة ابن حزم : فقد نشأ
مفكرنا الكبير — كما سنرى بعد حين — من أسرة لها في
السياسة شأن ، وكان من الطبيعي أن تتأثر حياته بالتقلبات
السياسية التي طرأت على مسقط رأسه : قرطبة . ولئن كان
الأمر قد انتهى بابن حزم الى اعتزال السياسة ، إلا أنه قد بقي
مهما بمصير المجتمع الاسلامي في بلاده ، كما يظهر بوضوح من
ردوده الكثيرة في « رسالة التلخيص لوجوه التخليص » حيث
نجدده يعلنها ثورة صريحة على أولئك الحكام الذين كانوا
يكتنون للذميين من المسلمين ، ويسلمون الحصون للروم دون
قتال ، فضلاً عن استهجانه لمسلك أولئك الأمراء الذين كانوا

(١) المرجع السابق ، الترجمة العربية ، ص ٢١٦ (نقلا عن كتاب پلاسيوس

من « ابن حزم ») .

يتساهلون في شئون المسلمين ، ويهتمون بمصالحهم الخاصة دون مصالح الرعية^١ ...

يبد أن الاضطرابات السياسية العديدة التي حفل بها عصر ابن حزم لم تقترن في الحقيقة بأى انحلال فكرى ، بل لقد شهدت بلاد الأندلس — حتى في عهد الطوائف — نهضة أدبية كبرى ، نتيجة للتنافس الشديد بين الدويلات الصغيرة في مضمار العلوم والآداب . وعلى الرغم من الحملات التي استهدفت لها — بين الحين والآخر — علوم الأوائل ، وفي مقدمتها المنطق والفلسفة ، فقد عجز رجال الدين عن صد تيار التراث اليونانى . وقد أرجع المستشرق الاسپانى پالنشيا هذا الازدهار الفكرى الى عوامل كثيرة أهمها أن عصرى الامارة والخلافة كانا بمثابة فترة اعداد طويلة تجمعت خلالها مواد وافرة غزيرة في كل فرع من فروع الدراسات ، واختمرت اختصاراً طويلاً ، وثانيها أن علماء قرطبة غادروها أثناء الفتنة وانتشروا في شتى أرجاء بلاد الأندلس ، كما تفرقت في كل ناحية مجموعات الكتب التي كانت مخزنة في مكتبات قرطبة ، وثالثها تلك الحرية التي أباحها ملوك الطوائف في شتى نواحي الحياة الاجتماعية بما فيها الناحية الدينية^٢ . وهكذا تطورت الثقافة الاسلامية في عصر الطوائف ، فانتشرت العلوم بين أهل بلاد

(١) د. احسان عباس : مقدمة كتاب « الرد على ابن النفريلة اليهودى » ،

١٩٦٠ ، ص ٢٠

(٢) پالنشيا : « تاريخ الفكر الاندلسى » ، الترجمة العربية ، ص ١٣

الأندلس ، وأقبل المفكرون على وضع المؤلفات القيمة في كل فن . وكان من ذلك أن كتب ابن حزم في تاريخ الأديان ، متقدما في ذلك على مفكرى أوروبا بقرون كثيرة ، وكتب مروان بن حيان والحميدى في تاريخ الأندلس ، وكتب صاعد الطليطلى في التاريخ العام ، وكتب آخرون في تواريخ الدول التى قامت قبيل سقوط خلافة قرطبة الأموية وبعدها^١ .. الخ .

وظهر أيضا في عصر الطوائف شعراء مشهورون لعل أبرزهم أبو الوليد أحمد بن زيدون (٣٩٤ - ٤٦٣ هـ) ، والمعتضد بن عباد (٤٠٣ - ٤٦٢ هـ) حاكم اشبيلية ، وابنه المعتمد الذى خلفه على عرش اشبيلية (٤٣٢ - ٤٨٩ هـ) وقيل عنه انه كان من أرفع شعراء الأندلس ، ان لم تقل شعراء العالم الاسلامى قاطبة . وربما كان ابن حزم نفسه من أهم شعراء الأندلس الذين عاصروا فترتين هامتين من حياة الأندلس ؛ ألا وهما فترة انهيار الخلافة الأموية بقرطبة ، وفترة ظهور ممالك الطوائف . وقد أدخله المستشرق الاسپانى پالنشيا فى عداد شعراء المروانيين ، بينما ألحقه غرسية غومس Garcia Gómez بفترة الانتقال من الحكم الأموى الى حكم الطوائف ، وقال عنه انه رمز " على أحوال الأندلس فى أيامه : فقد « كان شابا أنيقا ينتسب الى بيت رفيع من موالى بنى أمية ، دخل ميدان السياسة وهو بعد فى مطلع الشباب ، ثم عانى أوصاب النفى واشترك فى المؤامرات

(١) المرجع السابق ، الترجمة العربية ، ص ٢٠٧ .

والتدبيرات فيما بعد ، ثم أصبح آخر الأمر مفكراً غضب
اللسان ، وجواب آفاق ينازل العلماء والفقهاء ، ويتحدى
بجدله العنيف آراء وعقائد متأصلة في الفقه والفلسفة والدين ،
حتى لقد سى نفسه في أحد كتبه « رجلاً جدلياً » بل جدلياً
جوالاً ، حتى ليصدق عليه قوله :

لم تستقر به دار ولا وطن
ولا تدفقاً منه قط مضجعه

كأما صيغ من رهو السحاب فلا
تزال ريح إلى الآفاق تدفعه^١



ولسنا هنا بصدد الحديث عن سيرة ابن حزم ، وإنما نحن
بصدد الكشف عن الاطار الحضارى الذى نشأ فى كنفه ، وتربى
فى أحضانه ، وقضى الجانب الأكبر من حياته بين ظهرانيه .
ولا بد من أن يكون القارىء قد لاحظ معنا أن الفترة التى
عاش فيها ابن حزم كانت بمثابة فترة انتقال من عهد الخلافة
الأموية الى عهد حكم الطوائف ، فلم يكن من الغريب على
ابن حزم أن يتأثر فى تفكيره وأسلوب حياته بما اعتور بلاده من
تقلبات ، وما اختلف عليها من أحداث . والحق أن ابن حزم لم
يكن مجرد فقيه متنقل ، أو رجل سياسة تضطره الظروف الى

(١) المرجع السابق : ص ٧٤ - ٧٥

القيام بالكثير من الرحلات ، وانما كان أيضا « جواب آفاق »
يتنقل باستمرار بين ميادين الأدب والشعر والمنطق والفلسفة
والكلام والفقه والحديث واللغة والتاريخ وعلم الأنساب وما
الى ذلك . ومعنى هذا أن رحلات ابن حزم الاضطرارية
والاختيارية قد انعكست على تفكيره ، فخلقت منه مفكراً
موسوعياً ينتقل باستمرار من علم الى علم ، ومن موضوع الى
موضوع ، دون أن يحصر نفسه في دائرة واحدة بعينها من
دوائر المعرفة . ولا شك أن حنين ابن حزم الى الاستقرار
— كما سنرى فيما بعد — لم يكن سوى رد فعل حاد لهذا
التنقل المادى والفكرى الذى فرضته عليه ظروفه الخاصة
والعامة . وسيكون علينا من بعد أن نشرح هذه الظروف
بالتفصيل ، عند حديثنا عن سيرة ابن حزم ، ومراحل تطوره ؛
وكل ما يعنينا هنا هو أن نشير الى بعض العوامل الحضارية
التي أسهمت — الى حد غير قليل — فى خلق « البيئة الفكرية »
التي كان على ابن حزم أن يتفاعل معها ويستجيب لها .

ولا يتسع المقام للحديث عن الوسط الاجتماعى الذى عاش
فى كنفه ابن حزم ، ولكن حسبنا أن نقول ان هذا الوسط كان
حافلاً بشتى مظاهر الاختلاط : فمن اختلاط بين الجنسين الى
اختلاط بين العناصر والسلالات ، ومن احتكاك بين المسلمين
والنصارى الى صراع بين أصحاب الفرق والمذاهب ، وهلم
جرا . وليس من شك فى أن كل هذه المظاهر المختلفة من

« الاختلاط » قد عملت على تنشيط الحركة الفكرية في أرجاء بلاد الأندلس ، على الرغم مما صاحبها من مظاهر صراع حربي . وقد وصف لنا المقرئ في « تفح الطيب » جانباً من هذا الاختلاط فيبين لنا كيف كان أهل الأندلس مزيجاً من الأجناس والسلالات ، والحضارات والثقافات ، وأظهرنا على ما نجم عن هذا الاختلاط من ترق في العلوم والآداب والفنون والصناعات . وقد كانت مدينة « قرطبة » — خصوصاً في عهد الأمويين — مركزاً ممتازاً لهذا التقدم العلمي والفني ، فكانت ملتقى الشعراء والأدباء والفقهاء والمتكلمين وعلماء الحديث ، كما كانت في الوقت نفسه أكثر بلاد الأندلس كتباً ، وأحفلاً بالحزائن والمكتبات . ولم تكن قرطبة تخلو من منكرات ، فقد كانت مسرحاً للخمر واللهو والمجون ، ولكنها كانت في الوقت نفسه معقلاً للعلم والدين ، فكانت تضم طائفة من خيرة الفقهاء والعلماء ورجال الكلام . وحسبنا أن نطلع على كتاب ابن حزم المسمى بطوق الحمامة ، لكي نتحقق من أن الوسط الاجتماعي الذي عاش في كنفه لم يكن مجرد وسط مبتذل مستهتر حافل بالخمير والنساء والمنكرات ، وإنما كان أيضاً وسطاً ثقافياً زاخراً بالعلوم والمعارف وشتى ضروب المساجلات . وسنرى كيف كان اختلاط ابن حزم بجماعات اليهود والتصارى ، وجداله مع أهل الفرق والمذاهب ، وتشدده في مناقشة خصومه من الفقهاء ، بمثابة العامل الفاصل في تحديد نوع اتجاهه الفكري ، وصبغ تفكيره بطابع جدلي . ومهما كان من أمر تلك العزلة

الاختيارية التي انتهى اليها ابن حزم في خاتمة المطاف ، خصوصا ،
بعد أن أودى في نفسه وكرامته بما لقي من اضطهاد ، وبعد أن
رأى الكثير من أهل عصره ينكرون قدره ويتجهمون له
وينادون بتكفيره ، فإن ابن حزم قد بقى مع ذلك المفكر
الأندلسى الذى يتحس لوطنه ، فيشيد بعلمائه ، ويخلد ما أثرهم
وأفضالهم ، ويعدد مصنفاتهم ومؤلفاتهم ، ويبين مزاياهم على
غيرهم من أكابر العلماء فى المشرق العربى^(١) ...

(١) وابن حزم أيضا هو الذى يقول :

ويا جوهر الصين سحقا فقد غنيت بياقوتة الأندلس !

الفصل الثاني

سيرته

اعتاد مؤرخو سيرة الفلاسفة العرب البحث عن أصولهم ، والنص على أنسابهم ، اعتقاداً منهم بأن لأرومة المفكر أثراً لا يجحد على اتجاهه العقلي وميوله الوجدانية . وهم قد وجدوا في سلسلة أنساب ابن حزم ما يوحى بأنه قد انحدر من أصل فارسي ، فقالوا ان جده الأكبر كان مولى ليزيد بن أبي سفيان (أخى معاوية) ، وانه كان فارسياً نصرانياً ثم أسلم . وقد أرجع هؤلاء سر ولاء ابن حزم للأمويين الى هذا النسب ، فذهبوا الى أن يزيداً جده الأعلى كان ينتسب الى الأمويين نسبة موالاة . ولكن معاصره أبا مروان بن حيان قد شك في هذا الأصل الفارسي ، كما أنكر أيضاً صحة ولائه لبني أمية ، مؤكداً أنه نشأ خامل الأبوة مثولاً للأرومة ، وأن جده الأدنى كان حديث عهد بالاسلام . ولعل من هذا القبيل أيضاً ما ذهب اليه ابن بسام في الذخيرة وابن سعيد في المغرب حينما حاولا ارجاع نسبه الى أصل أعجمي أسباني ، وان كان هو نفسه قد عمل دائماً على اخفاء هذا الأصل . وجاء المستشرق دوزي ، فاستند الى هذه الحجة ، وادعى أن في شخصية ابن

حزم تأثيرات وراثية مسيحية جاءت من أصله الأسباني . ولكن المطلع على ما كتبه ابن حزم في « اظهر تبديل اليهود والنصارى للتوراة والانجيل » ، أو ما ورد على لسانه من مناقشات حادة للديانتين اليهودية والمسيحية في كتاب « الفصل » ، لا يسعه سوى القول مع آسبن پلاسيوس (المستشرق الأسباني) بأنه ليس لأصل ابن حزم الأسباني أية أهمية في حياته الفكرية ، خصوصا وأنه يهاجم المسيحية مهاجمة شديدة ^١ .

ومهما يكن من شيء ، فقد ولد أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بمدينة قرطبة في آخر يوم من شهر رمضان سنة ٣٨٤ هجرية من أسرة غنية عريقة النسب كان أهلها ذوى مجد وحسب ، وعلم وأدب ، اذ كان أبوه أحمد بن سعيد من كبار الوزراء : ولى الوزارة للحاجب المنصور ابن أبى عامر ، ثم لابنه المظفر من بعده . وقد نشأ ابن حزم فى قصر أبيه نشأة المترفين المنعمين ، فلم يعرف فى صباه الحاجة أو الحرمان ، ولم تضطره الظروف الى الترامى على أبواب الرؤساء أو الوزراء ! وبالظاهر أن أباه قد عنى بتربيته أشد العناية ، فانه يحدثنا فى كتابه « طوق الحمامة » عن الرقابة التى فرضها عليه ، والعلماء الذين استقدمهم لتثقيفه وتهذيبه ، كما يروى لنا كيف أنه تلقى تربيته الأولى على يد بعض النساء العالمات من أهل بيته . وهو

(١) دكتور شوقى ضيف : مقدمة نشرته لكتاب ابن حزم : « نقط العروس فى تواريخ الخلفاء » المنشور بمجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة) ، ١٩٥١ ، ص ٤١ - ٤٢ ، ص ٤٤

يقول في ذلك بصراحة : « .. ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري : لأنني ربيت في حجورهن ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال الا وأنا في حد الشباب ... وهن علمنني القرآن ، وروينني كثيراً من الأشعار ، ودربنني على الخط^١ » ...

ولا شك أن هذه البيئة النسوية التي نشأ في كنفها ابن حزم قد عملت على إرهاف حسه واشعال وجدانه ، فكان من ذلك أن تطبعت نفسه بحب الجمال ، وتفتحت حواسه على الكثير من أفانين الحب . وان فيلسوفنا ليعترف بأن « الحب » هو شغل المرأة الشاغل ، فليس بدعا أن نراه يهتم — وهو الذي تربى في أحضان النساء — بدراسة أحوال العاشقين والعاشقات ، وتتبع أخبار المحبين من الرجال والنساء ، مع العناية بالتمييز بين موقف كل من الرجل والمرأة من الحب . وسنرى فيما بعد كيف قادته هذه التربية الى الاهتمام بالكثير من المسائل النفسية ، والحرص على فهم دوافع الناس الشعورية واللاشعورية ... الخ .

ونحن نعلم — من خلال ما رواه لنا ابن حزم نفسه من ذكريات — أنه نشأ في بيت عز ومال وجاه عريض ، فلم يكن طلبه للعلم بحثاً عن المجد أو سعياً وراء الشهرة ، وانما كان وليد رغبة نزيهة في المعرفة ، وإيمان عميق بقيمة العلم . ومما

(١) ابن حزم : « طرق الحماة في الالف والالاف » ، تحقيق الأستاذ حسن

كامل الصيرفي ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٥٠

يروى عن ابن حزم — في هذا الصدد — أنه قال يوما للامام
الباجي المالكي ، بعد انقضاء مناظرة بينهما : « تعذرني فان
أكثر مطالعتي كانت على منابر الذهب والفضة » ، أراد بذلك
أن « الغنى أمنع لطلب العلم من الفقر ^(١) » !

ولا ريب أن هذا الاهتمام المبكر بالعلم قد كان ثمرة للتربية
التي تلقاها ابن حزم منذ نعومة أظفاره في كنف الحريم من
الجواري والنساء : فقد كانت الغالبية العظمى منهن على قدر
غير قليل من الثقافة ، فضلا عن أن البعض منهن كن يتقن الشعر
والأدب ، مما كان له تأثير كبير على مزاج ابن حزم . ولكن من
المؤكد أيضا أن المجتمع الأندلسي الذي عاش في كنفه ابن حزم
قد عمل على توجيه اهتمامه نحو طلب العلوم والانكباب عليها ،
خصوصا بعد الفشل الذي منى به في مضمار السياسة .

ولا بد لنا من أن نشير بإيجاز الى قصة اشتغال ابن حزم
بالسياسة : فقد علمنا أن أباه كان وزيراً للحاجب المنصور ابن
أبى عامر ، ثم لابنه المظفر من بعده ، في أواخر القرن الرابع
الهجرى . وفي مطلع القرن الخامس هاجم البربر قرطبة ، وتوفي
أحمد بن حزم بعد ذلك بقليل حوالى سنة ٤٠٢ هـ ، وكان ابنه
على في ذلك الوقت قد بلغ الثامنة عشرة من عمره . فلما مات
أبوه أخذ ابن حزم على عاتقه الدفاع عن الأسرة الأموية ضد
البربر ، فرحل عن قرطبة الى المريّة حيث راح يعمل على توحيد

(١) ياقوت الحموى : « معجم الادباء » ، طبعة القاهرة ، تحقيق الدكتور

فريد الرفاعى ، ج ١٢ ، ص ٢٤٠

الصفوف من أجل استعادة العرش الأموي المفقود ، وتنبه له حاكم المرية ، فسجنه ثم قاده ، ولم يلبث فيلسوفنا أن وجد نفسه مضطراً الى التوجه نحو مدينة بكنسية ، وهناك التقى بالمرتضى الأموي ، وحارب في جيشه بغرناطة ، ثم وقع بأيدي أعدائه سنة ٤٠٣ هـ (أى بعد وفاة أبيه بسنة واحدة) . ولم يتمكن ابن حزم من العودة الى قرطبة الا سنة ٤٠٩ هـ ، حتى اذا ولى صديقه عبد الرحمن المستظهر الخلافة في رمضان سنة ٤١٤ هـ استوزره ، ولكنه لم يَبْقَ في هذا المنصب أكثر من شهر ونصف ، فقد قتل المستظهر في ذى الحجة من السنة نفسها ، وسجن ابن حزم ، ثم عفى عنه ، وعاد الى الوزارة مرة أخرى أيام هشام المعتد ، فيما بين سنتي ٤١٨ و ٤٢٢ ، ولكنه لم يلبث أن طلق المناصب الوزارية واعتزل السياسة الى غير ما رجعة ! ! .

ولئن كان ابن حزم قد اعترف في كتابه « التقريب لحد المنطق » بأن حياة النفي والتشريد قد أتلحت له الفرصة للتفرغ للمطالعة والتأليف ، الا أننا نجد أنه يؤثر حياة العلم والدراسة على حياة الحكم والسياسة ، فيترك السلطة راعياً عنها زاهداً فيها ، ويتقبل على العلم فاهلاً منه وموغلاً فيه . ولم تكن بداية عهد ابن حزم بالعلم هي مرحلة التنقل التي مر بها

(١) سعيد الأفغاني : « ابن حزم الأندلسي » ، رسائله في المفاضلة بين الصحابة ، دمشق ، ١٩٤٠ ، ص ٢٥ ، ٢٧ . (وانظر أيضاً مقدمة الدكتور خوقي ضيف المشار اليها آنفاً ، ص ٤٢) .

بعد اعتزاله للوزارة ، وانما تلقى ابن حزم العلم منذ حداثة
على يد كثيرين من العلماء والأئمة الممتازين . وهو يروى لنا في
« طوق الحمامة » أسماء بعض الشيوخ الذين خالطهم وأخذ
عنهم ، فيحدثنا عن أبي علي الحسين بن علي الفاسي الذي قال
عنه : « ما رأيت مثله جملة علما وعملا ، ودينا وورعا »^١ ،
ويحدثنا أيضا عن أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي
(المتوفى سنة ٤١٠ هـ) الذي تلقى عليه الحديث والنحو
واللغة ، كما نراه يروى لنا الأحاديث — صغيراً — عن أحمد
ابن محمد الجسور (المتوفى سنة ٤٠١ هـ) وعن الهمداني
(الذي كان يجتمع في مسجد القمري بالجانب الغربي من قرطبة
سنة احدى وأربعمائة)^٢ . وأغلب الظن أن يكون اهتمام ابن
حزم بحفظ الشعر ونظمه قد ابتداء منذ سن مبكرة ، فانا نجد
يحدثنا عن قصيدة قالها على سبيل المزاح ، وختم كل بيت منها
بقسم من معلقة طرفة بن العبد ، ثم يعقب على ذلك بقوله :
« وهي (المعلقة) التي قرأناها مشروحة على أبي سعيد الفتي
الجعفرى ... في المسجد الجامع بقرطبة »^٣ . وهذا الخبر يدلنا
على أن المجالس الأدبية كانت تشقّد في مساجد الأندلس ، ولم
يكن شيوخها يجدون أدنى حرج في رواية الشعر وشرحه بين
جدران المساجد . وأما الفقه فقد تلقاه ابن حزم — كما قال

(١) ابن حزم : « طوق الحمامة » ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١٢٦

(٢) المرجع السابق : ص ١٢٥

(٣) المرجع السابق : ص ٢٠

ياقوت — عن أبي عبد الله بن دحون ، وهو يذكره في أحد
المواضع فيقول عنه انه « الفقيه الذي عليه مدار الفتيا في
قرطبة »^١ . ومن أخذ عنهم الفقه أيضاً على عبد الله الأزدي
المعروف بابن الفرضي (المتوفى سنة ٤٠٣ هـ) ، وكان قاضياً
لمدينة بلنسية أيام أمير المؤمنين المهدي^٢ . وقد بدأ ابن حزم
دراساته الفقهية بقراءة كتب الشافعية ، ثم لم يلبث أن تلقى
أصول الفقه الظاهري على أستاذه أبي الخيار مسعود بن
سليمان بن مفلت (المتوفى سنة ٤٢٦ هـ) وهذا ما أخبرنا به
الضبي في كتابه « بغية الملتبس » حيث يقول : « مسعود ...
فقيه عالم زاهد يميل الى الاختيار والقول بالظاهر ، ذكره
أبو محمد بن حزم وكان أحد شيوخه . »^٣ . وقد قرأ ابن حزم
أيضاً كتاب أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد في تفسير القرآن ،
وشهد في رسالته المسماة باسم « فضل الأندلس » بأنه لم
يؤلف في الاسلام كله تفسير مثله (لا تفسير محمد بن جرير
الطبري ولا غيره) . وأما الفلسفة وعلوم الأوائل فقد تلقاها
ابن حزم على يد محمد بن الحسن المنحجي الذي قال عنه :
« ... وأما رسائل أستاذنا أبي عبد الله محمد بن الحسن المنحجي
المعروف بابن الكناني فمشهورة متداولة وقائمة الحسن ، فائقة

(١) المرجع السابق : ص ١٢٠

(٢) المرجع السابق : ص ١١٩

(٣) عن سعيد الأفطاني : « ابن حزم ... » ص ٢٥

الجودة ، عظيمة المنفعة ... الخ »^١ . ولم يقتصر ابن حزم على تلقى المنطق والفلسفة على محمد بن الحسن المذحجي ، بل هو قد اطلع أيضاً على معظم الترجمات العربية لكتب أرسطو في المنطق ، كما عاب عليها في مقدمة كتابه « التقريب لحد المنطق » غموضها وركاكتها وشدة عسرهما على القارئ العادي . والمتأمل في بعض كتب ابن حزم مثل « رسالة الأخلاق » و « طوق الحمامة » وغيرها ، يلتقى في ثنايا آراء ابن حزم بالكثير من النظريات الأفلاطونية والأرسططالية ، فيجده مثلاً يردد بعض آراء أفلاطون في الحب ، ويأخذ عن أرسطو نظريته في الفضيلة باعتبارها وسطاً بين افراط وتفريط ، وينسب إلى النفس قوى أربع على طريقة أفلاطون ... الخ .

ولكن حياة ابن حزم العلمية لم تسر سيراً طبيعياً عادياً ، بل هي قد تأثرت بما مرّ بصاحبها من أزمات ، وما عرض له ولأسرته من نكبات . والواقع أن الظروف قد فرضت على ابن حزم الكثير من الرحلات الاضطرارية ، فقد اضطر إلى مغادرة قرطبة سنة ٤٠٤ هـ ، على أثر الفتن التي قام بها البرابرة ، واتجه بعد ذلك إلى المريّة حيث أقام بها أن تنبه له خيران حاكم المدينة ، فسجنه وتغاه في حصن القصر . ولما بلغه المناداة بعبد الرحمن بن محمد حاكماً على بلنسية سنة ٤٠٨ هـ ركب إليها بحراً ، وأقام بها ، وصار وزيراً للمرتضى

(١) المقري : « نهج القلب » ج ٢ ، ص ١٢٢

(كما سبق لنا القول) الى أن قتل المرتضى ، فعاد ابن حزم الى قرطبة سنة ٤٠٩ هـ بعد غياب دام ست سنوات . ثم كانت خلافة المستظهر سنة ٤١٤ هـ ، ووزارة ابن حزم له سبعة أسابيع ، قتل بعدها المستظهر ، وسجن ابن حزم على أثرها دهرأ ! وعفى عن ابن حزم بعد لأى ، فخرج من قرطبة الى شاطبة . والظاهر أنه كتب رسالته المشهورة « طوق الحمامة » وهو فى النفى ، فأننا نجده يتحسر على موطنه الأصلي ، فيقول : « أنت تعلم أن ذهنى متقلب ، وبالى مهصر بما نحن فيه من نبوء الديار ، والجللاء عن الأوطان ، وتغيّر الزمان ونكبات السلطان ، وفساد الأحوال ، وتبدل الأيام ، وذهاب الوفر ، والخروج عن الطارف والتالد ، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد ، والغربة فى البلاد ، وذهاب المال والجاء والفكر فى صيانة الأهل والولد ، واليأس عن الرجوع الى موضع الأهل ، ومدافعة الدهر ، وانتظار الأقدار ... الخ . »^١ . ولكن رحلات ابن حزم الاضطرابية ، أو تنقلاته الاجبارية ، بين قرطبة والمريّة وبلنسية والشاطبة ، لم يكن لها تأثير كبير على حالته المادية ، فانه ليعترف بأن « الذى بقى لأكثر مما أخذ ، والذى ترك أعظم من الذى تحيّف »^٢ . وعلى الرغم من أن النفى والسجن قد ضيعا عليه الكثير من

(١) ابن حزم : « طوق الحمامة فى الالفه والالاف » ، طبعة القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١٥٤ .

(٢) المرجع السابق : خاتمة الكتاب ، ص ١٥٤ .

مكاسب الآباء ، كما حرماه من الاستقرار بموطنه الأصلي ، فإن
 من المؤكد مع ذلك أن ابن حزم قد عاش طوال حياته موفور
 الرزق ، عريض الجاه . ونحن نفهم من خلال أحاديثه « بطوق
 الحمامة » أن أسرته كانت تملك مساكن عدة في كل من المرية
 وشاطبة وبلنسية واشبيلية ، ولكنه مع ذلك كان دائم الحنين
 إلى قرطبة بدليل قوله : « .. ولقد أخبرني بعض الورع^١اد من
 قرطبة وقد استخبرته عنها ، أنه رأى دورنا ببلط مغيث ،
 في الجانب الغربي منها ، وقد انحوت رسومها ، وطُمت معالمها ،
 بوخفيت معاهدتها ، وغيّرها البلى ، وصارت صحارى مجدبة
 بعد العمران ، وفيافي موحشة بعد الأنس ، وخرائب منقطعة بعد
 الحسن ، وشعاباً مفزعة بعد الأمن ، ومأوى للذئباب ، ومعارف
 الغيلان ، وملاعب للجان ، ومكان للوحوش ، بعد رجال
 كالليوث ، وخرائد كالدمى ، تفيض لديهم النعم الفاشية .
 تبدد شملهم ، فصاروا في البلاد أيادي سبا ، فكان تلك
 المحارب المنقة ، والمقاصير المزيّنة ، التي كانت تشرق اشراق
 الشمس ، ويجلو الهموم حسن منظرها ، حين شملها الخراب ،
 وعمها الهدم ، كأفواه السباع فاغرة ، تؤذن بفناء الدنيا ، وتريك
 عواقب أهلها ، وتخبرك عما يصير إليه كل من تراه قائماً فيها ،
 فتزهد في طلبها بعد أن طالما زهدت في تركها ... »^١ .

(١) المرجع السابق : ص ٩٤ . (وانظر أيضاً « ابن حزم » للأستاذ محمد

طبي زهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٤ ص ٤٦ ، ص ١٩١ .

على أننا نعرف لابن حزم تنقلات أخرى لعلها كانت من قبيل الرحلات الاختيارية : فنحن نعلم أنه انتقل الى القيروان بالمغرب ، وهو نفسه يحدثنا عن بعض مناقشات دارت بينه وبين طائفة من علمائها ، فيقول : « ... سألتني يوماً أبو عبد الله محمد ابن كليب من أهل القيروان أيام كوني بالمدينة ، وكان طويلاً اللسان جداً مثقفاً للسؤال في كل فن ... الخ »^١ ، ولكن ابن حزم لم يذكر لنا سبب انتقاله الى القيروان ، فضلاً عن أنه لم يشر الى أى اضطهاد وقع عليه من جانب أهل المغرب عموماً ، وأهل تلك المدينة خصوصاً . وأغلب الظن أن يكون امامنا قد رحل الى القيروان للدفاع عن مذهبه الظاهري ، ومجادلة الفقهاء وأهل الفرق ، خصوصاً وأتينا نراه ينص في خلال حديثه عن تلك الزيارة على صفة « الجدلي » التي لاحقته في حقه وترحاله ، حتى لقد سبقته الى القيروان قبل حلوله بها ! والواقع أن ابن حزم الذي تفرغ للدفاع عن الفقه الظاهري قد وجد نفسه مضطراً الى التنقل بين مدن الأندلس ، رغبة منه في نشر منبهه واكتساب أتباع له ، فكان ينتقل بين الشاطبة والمرية وقرطبة وبلنسية ، وكانت له معارك كلامية مع فقهاء تلك البلاد وعلمائها . وقد وجد ابن حزم في جزيرة ميورقة أتباعاً كثيرين وتلاميذ مخلصين ، فانتشرت نزعة الظاهرية في أرجائها ، في ظل حاكمها ابن رشيق (المتوفى سنة ٤٤٠ هـ) الذي كان قد دعا

(١) ابن حزم : « طرق الحماة » ، طبعة القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٤٦

ينفسه لنشر مذهبه الظاهري^١. ولكن واحداً من أهل ميورقة ،
أيلاً وهو الفقيه محمد بن سعيد ، لم يلبث أن كتب الى الامام
الباجي ، فسار اليه من بعض سواحل الأندلس ، وتضافرا
معاً ، وناظرا ابن حزم ، واتضم اليهما فقهاء آخرون ، وحاول
الجميع افحامه وطرده ، وكان ابن رشيق متساعده قد توفي ،
فلم يجد ابن حزم بدءاً من مغادرة ميورقة . وقد روى لنا
المقرئ هذه القصة فقال : « لما قدم الأندلس وجد لكلام
ابن حزم طلاوة ، الا أنه كان خارجاً عن المذهب ، ولم يكن
بالأندلس من يشتغل بعلمه ، فقصرت السنة الفقهاء عن مجادلته
وكلامه . واتبعه على رأيه جماعة من أهل الجهل (هكذا) ،
وحل بجزيرة ميورقة ، فرأس فيها وتبعه أهلها . فلما قام
أبو الوليد (الباجي) ، كلموه في ذلك ، فدخل اليه وناظره
وشهر باطله ، وله معه مجالس كثيرة ... »^١.

وقد اشتد العداء بين ابن حزم وفقهاء عصره ، فتألبوا عليه ،
وكفروه ، وضللوه ، وحذروا منه العوام والسلطين ، وطاردوه
بدعائيتهم من بلد الى بلد ، وشنعوا عليه في كل قاصية ودانية .
وهذا ما وصفه لنا ابن حيان المؤرخ حينما كتب يقول :
« ... فتمالأوا (أي الفقهاء) على بغضه ، وردثوا قوله ،
وأجمعوا على تضليله ، وشنعوا عليه ، وحذروا سلاطينهم من
فتنته ، ونهوا عوامهم عن الدنو اليه والأخذ عنه ، فطفق الملوك

(١) المقرئ : « نفع الطيب » ، طبعة القاهرة ، تحقيق الدكتور فريد

الرفاعي ، ج ٦ ، ص ١٧٦

يقصونه عن قريبهم ، ويسيرونه عن بلادهم ، الى أن اتهموا به
الى منقطع أثره بترية بلده من بادية لبلة ... وهو في ذلك غير
مرتدع ولا راجع الى ما أرادوا به بيث علمه فيمن يتتابه بباديته
تلك من عامة المقتبسين منه من أصاغر الطلبة الذين لا يخشون
فيه الملامة ، يحدثهم ويفقههم ويدارسهم ... الخ^١ وواضح
من هذا المتن أن الجدل العنيف الذي ثار بين ابن حزم
وفقهاء المالكية لم ينجح في رده عن الاتجاه الظاهري الذي
كان قد اختاره لنفسه ، فحاول المالكية تأليب العوام عليه ،
ولم يكتفوا بذلك ، بل التجأوا أيضا الى الأمراء والحكام من
أجل العمل على رده وطرده . ولم يقف هو — بطبيعة الحال —
من كل هذه الخصومات موقفا سلبيا ، بل لقد زد لهم الجميل
بمثله ، فكال لهم الكيل كيلين ، والصاع صاعين ، وشنها عليهم
حزبا عوانا لا هوادة فيها ولا رحمة ، ولم يتخرج في كثير من
الأحيان عن تكفيرهم ورميهم بالالحاد !!

والتأمل في معظم كتب ابن حزم الجدلية والفقهية يجدها
جافلة بالعبارات النائية والأساليب العنيفة في نقد أقاويل
خصومه ، ودخض حجج معارضية . ولعل هذا ما حدا ببعض
المؤرخين الى القول بأن لسان ابن حزم وسيف الحجاج كانا
شقيقين ! وقد وصف لنا الذهبي تطاول ابن حزم على الأئمة
وجراته على تخطئهم والطعن فيهم ، فقال : « وقد امتحن هذه

(١) ابن بسام : « الذخيرة » ، القسم الأول من المجلد الأول ، ص ١٤١

الرجل وشدّد عليه ، وشرّد عن وطنه ، وجرت عليه أمور نظوا
لسانه واستخفافه بالكبار ، ووقوعه في أئمة الاجتهاد ، بأقبح
عبارة وأفظ محاورة وأمنع رد .. «^١ . وعاب عليه معاصره
مروان بن حيان صلابته في الجدل ، وعناده في التمسك برأيه ،
وصرامته في الحكم على آراء مخالفيه ، وعقب على كل ذلك
يقوله : « .. وأكثر معاييه — عند المنصف له — جهله بسياسة
العلم . » . ولا شك أن ابن حزم كان حاد المزاج ، غني
الخصومة ، صلب الرأي ، ولكن من المؤكد — مع ذلك — أنه
ثم يكن متجنباً على خصومه ، أو متقولا عليهم ، أو مجادلا لهم
يغير علم . ومهما كان من صلابته وصرامته وحدة مزاجه ،
فإن مؤرخ سيرته لا يملك سوى الاعتراف له بطول الباع وقوة
الشكينة والقدرة الهائلة على التحدى . وقد عملت المقاومة
الشديدة التي لقيها ابن حزم من جانب معاصريه على تفتيق
ذهنه واشغال حماسه وشحذ قلمه ، فأفادت المكتبة العربية من
المساجلات الكثيرة التي دارت بينه وبين خصومه ، وخرج
الفكر العربي الأندلسي من كل هذه المارك الفكرية الكبرى
يشروة علمية هائلة . وقد فطن ابن حزم نفسه الى هذه الظاهرة
فراح يقول في رسالته « مداواة النفوس » : « اتفعت بحبك
أهل الجهل منفعة عظيمة : وهي أنه توقد طبعي ، واحتسدم
خاطري ، وحيي فكري ، وتهيّج نشاطي ، فكان ذلك سبباً

(١) اللحي « تذكرة الحفاظ » (انظر سعيد الإفنانى : « ابن حزم » ،

دمشق ١٩٤٠ ، ص ١٢١ و ١٢٠ .

لى توالىف عظمىة النفع ؛ ولولا استشارتهم ساكنى ، واقتداحهم
كلمنى ، ما البعث لتلك التواليف ١ .. » . ولم يملك خصنمه
مروان بن حيان سوى الاعتراف له بهذه المنزلة الهائلة من
العلم فقال : « ... ولم يكن بالسليم من اضطراب رأيه ...
الى أن يتحرك بالسؤال ، فيتفجر منه بحر لا تكدره
الدلاء ٢ .. »

وقد اختلف المؤرخون فى تفسير أسباب الخصومة التى
استهدف لها ابن حزم ، فقال بعضهم انها كانت ترجع الى جرأته
على المناداة بالمذهب الظاهرى فى بيئة أجمع معظم أهلها على
الأخذ بالمذهب المالكى ، بينما قال غيرهم ان تعصب ابن حزم
للأمويين كان هو السبب المباشر لذلك العداء الشديد الذى
لقيه من جانب معاصريه ، فى حين زعم آخرون أن جهل ابن حزم
بسياسة العلم وتطاوله على علماء عصره هو الذى ألّب عليه
قلوب الغالبية العظمى من الخاصة والعامة على السواء . والظاهر
أن ابن حزم نفسه لم يسنلّم فى بعض الأحيان من التعريض
بفقهاء عصره والظعن فى نزاهتهم ، فاننا نراه يقول فى احدى
رسائله : « ... فلا تغالطوا أنفسكم ، ولا يغرنكم الفساق
والمنتسبون الى الفقه ، اللابسون جلود الضأن على قلوب
السباع ، المزينون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على

(١) ابن حزم : « مداواة النفوس » ، ص (٣٠) .

(٢) ياقوت : « معجم الادباء » ، ج ١٢ ، ص ٢٤٩ .

تفسقهم ١ .. » . ولئن كانت هذه العبارة - وأمثالها -
لا تصدق على فقهاء عصره بصفة عامة ، خصوصا وأتانا نراه
أحيانا يشيد ببعض منهم على الرغم من اختلافه في الرأي معهم
(كقوله مثلا عن الامام الباجي المالكي : « ولو لم يكن لأصحاب
المذهب المالكي بعد عبد الوهاب الا مثل أبى الوليد الباجي
لكنفاهم ... ») ، الا أن هذه الأساليب العنيفة في التعبير عن
خصومته لبعض الفقهاء قد أكسبته عداوة الكثيرين ، وصرفت
عنه قلوب الأصدقاء قبل الأعداء !

ولسنا ندرى متى دبت هذه القطيعة بين ابن حزم وبعض
أصدقائه بسبب عناده وتصلبه ، وانما الذى نعلمه أن ابن حزم
قد آثر فقدان صداقتهم على التنازل عن رأيه ! وهو يروى لنا
في « طوق الحمامة » : « أن قوما من مخالفى شرقوا بى ، فأساءوا
العتب فى وجهى وقذفونى بأنى أعصد الباطل بحجتى ، عجزاً
منهم عن مقاومة ما أوردته من نصر الحق وأهله ، وحسداً لى ،
فقلت ، وخاطبت بقصيدتى بعض اخوانى وكان ذا فهم ، منها :

وخذنى عصا موسى وهات جميعهم
ولو أنهم حيات ضال نضائف*
يريفون فى عيني عجائب جمّة
وقد يتمنى الليث ، والليث رابض*

(١) ابن حزم : « رسالة التلخيص لوجه التلخيص » طبعة الدكتور احسان

حباس ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٧٤

ويرجون ما لا يبلغون كمثل ما
يترجى محالا في الامام الروافض^١
ورأى له في كل ما غاب مسلك^٢

كما تسلك الجسم العروق^٣ النوابض^٤
وأغلب الظن أن اخوان ابن حزم لم يكونوا يريدون له
التمادى في معاداة قومه ، والمغالاة في التمسك برأيه ، فكان
بعضهم يشير عليه بمسايرة رأى الأغلبية ، وموافقة المعتقد
السائد . وكان رد ابن حزم على هذا : « وأما قولهم : ان الذى
عليه الأكثر فهو الهدى والطريقة المثلى ، فكلام فى غاية السخف ،
لأن الحنفيين كانوا أكثر من المالكيين أضعافا مضاعفة ، ولعلمهم
اليوم يوازونهم فى العدد ، والشافعيين أكثر منهم ، فينبغى أن
يتبع الأكثر ، وقد قيل أهل المقالة تعد كثرتهم ، فينبغى أن
يعود الهدى لذلك ضلالا . وهذا كلام مبرسم لا يرضى به من له
مسئكة عقل . وقد كان مالك وحده ، ثم وافقه نفر يسير ثم
كثروا . وقد كان القائلون بمذهب الأوزاعي كثيرا ثم انقطعوا ،
وكل هذا لا معنى له ^٢ » . وواضح من هذا الرد أن ابن حزم
كان يؤمن مع التوحيدى بأن « الحق لا يصير حقا بكثرة
معتقديه ، ولا يستحيل باطلا بقلة منتحليه ^٣ » ، فلم يكن له أن
يتخلى عن معتقده لمجرد أن الأكثرية لا ترى فيه صوابا !

(١) ابن حزم : « طوق الحمامة » ص ٨٢ - ٨٣

(٢) ابن حزم : « التلخيص لوجه التخليص » ، ص ١١٢

(٣) أبو حيان التوحيدى : « المقابسات » طبعة حسن السندوبى ، القاهرة ،

ومهما يكن من شيء ، فقد كان من نتائج تمسك ابن حزم برأيه ، وتمساده في تكفير غيره ، أن ضاق به علماء عصره ، فاستعانوا بالمعتضد بن عباد حاكم اشبيلية من أجل احراق كتب ابن حزم علنا . ولسنا نعرف على وجه التحقيق متى تمت عملية احراق مؤلفات ابن حزم ، ولكن المرجح أن يكون ذلك قد تم في أواخر أيامه أو قبل ذلك بقليل . وقد نص المؤرخ أبو مروان ابن حيان على هذه الواقعة حين قال : « .. كمل من مصنفاته في فنون العلم وقر بعير ، لم يَعدْ أكثرها باديته ، لتزهد الفقهاء وطلاب العلم فيها ، حتى لأحرق بعضها بأشبيلية ومزقت علانية لا يزيد مؤلفها في ذلك الا بصيرة في نشرها ، وجدالا للمعاقلة فيها ، الى أن مضى لسبيله ^١ » ولا بد من أن تكون هذه الحادثة قد تركت وقعا سيئا في نفس ابن حزم ، فما كانت كتب العالم الا بثضعة من نفسه ! ولكن ابن حزم العنيد ما كان ليلين أمام هذا العسف والظلم والتهديد ، فراح يهاجم المعتضد بن عباد ، وقال في ذلك قصيدة طويلة جاء فيها :

فان يحرقوا القرطاس لا يحرقوا الذي
تضمنه القرطاس ، بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي
وينزل ان أنزل ويدفن في قبري

(١) ياقوت الرومي : « معجم الأدباء » ، طبعة د . فريد الرقاص ، ج ٢ : ١٢

دعوني من احراق رَقِّ وكاغَتد
وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدري .
والا فعودوا فى المكاتب بدأة

فكم دون ما تبغون لله من سَتر^١
وقد يعجب المرء كيف انتهى الأمر بابن حزم الى اكتساب
عداوة الناس ، وهو الذى كان يدعو دائما الى مسالمة الناس ،
والائتناس بهم ، وفضلا عن أنه كان صديقا صدوقا لعدد غير
قليل من علماء عصره ، كما تدلنا على ذلك مراسلاته التى تفيض
بالمودة والاخاء . ولكن ابن حزم الذى كان يقول : « .. اياك
ومخالفة الجليس ومعارضة أهل زمانك فيما لا يضرک فى دنياک
ولا فى آخراک ، وان قل ، فانک تستفيد بذلك الأذى والمنافرة
والعداوة ... » هو بعينه ابن حزم الذى كان يقول أيضا : « ان
لم يكن بد من اغضاب الناس أو اغضاب الله عز وجل ، ولم
يكن لك مندوحة عن منافرة الخلق أو منافرة الخالق ، فأغضب
الناس وناقصرهم ، ولا تغضب ربك ولا تنافر الحق^٢ » .
وهكذا لرى أن ابن حزم قد آثر اعلان الحرب على الناس ،
حبا منه لله ، وحرصا منه على تجنب غضب الله ، فكان من ذلك
أن ثار عليه الخاصة قبل العامة ، وتقرَّ منه الأصدقاء قبل
الأعداء ! ولم يستطع ابن حزم أن ينهم السرفى كل تلك الحملات
التي شنّها عليه معاصروه فراح يقول :

(١) المرجع السابق : ص ٢٥٢

(٢) ابن حزم « مداواة النفوس » ، ص ٥

قالوا تحفظ فان الناس قد كثرت
 أقوالهم وأقاويل العبدى مِحنٌ
 فقلت هل عيهم لى غير أنى لا
 أقول بالرأى اذ فى رأيهم فِتنٌ
 وأنتى منولع بالنص لست الى
 سواء أنحو ولا فى نصره أهينٌ
 لا أثنى نحو آراء يقال بها
 فى الدين ، بل حسبى القرآن والسنن

انى لأعجب من شأنى وشأنهم
 واخسرتا اننى بالناس ممتحنٌ
 ما ان قصدت لأمر قط أطلبه
 الا وطارت به الأظعان والسفن
 أمّا لهم شغل "عنى فيشغلهم
 أو كلّهم بى مشغول" ومرتهنٌ
 كأن ذكرى "تسييح" به أميروا
 فليس يغفل عنى منهم لسنٌ
 ان غبت عن لحظهم ماجوا بغيتهم
 حتى اذا ما رأونى طالعا سكنوا
 دعوا للفضول وهبوا للبيان لكى
 يدري مقيم على الحسينى ومفتنٌ

وحَسَنبىَّ الله فى بدء وفى عقب

بذكره تدفع الغمساء والاحن^(١)

ويظهر أن العدا الذى ابتلى به ابن حزم قد اتسع حتى شمل بعض أفراد أسرته : فقد ناصبه العدا ابن عمه أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم ، وكان حرياً به أن يقف الى جانبه فى محنته ، ولكنه آثر أن يعين الزمان عليه ، بدلاً من أن يعينه على الزمان ؟ ! ويتضح لنا من المراسلات التى دارت بينهما أن أبا المغيرة كان يحسد ابن عمه ويفار منه ، فليس بدعاً أن نجده يعرض به ويشمت فيه . ولعل هذا ما حدا بابن حزم الى القول مع عيسى عليه السلام : « لا يفقد النبى حرمة الا فى بلده » !
وقدنا قال الشاعر :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة

على المرء من وقع الحسام المهند !

ولم يجد ابن حزم يداً من أن ينأى بنفسه عن الناس (ما خلا صغار المريدين من طلاب العلم) ، فارتحل الى قرية الصغيرة بالبادية (وهى قرية منت ليشم التى يقال انها كانت ملكاً لأهله) ولفظ هناك أنفاسه الأخيرة فى الثامن والعشرين من شهر شعبان سنة ٤٥٦ هـ بعد حياة مليئة بالكفاح والنضال . وهكذا توفى ابن حزم عن اثنين وسبعين عاماً ، خلفاً وراءه ثروة

(١) أوردها ابن بشكوال فى كتابه « الصلة » .

(٢) سعيد الأفسانى : « ابن حزم الاندلسى » ، ورسائله فى المفاضلة بين

الصحابة » ، دمشق ، ١٩٤٠ ، ص ١٣٦

ضخمة من الانتاج العلمى بلغت — فيما روى لنا ابنه الفضل
أبو رافع — حوالى أربعمئة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين
ألف ورقة !

والظاهر أن بعضا من تلاميذ ابن حزم المخلصين قد حافظوا
على تراث أستاذهم من الضياع ، فكان أن وصلتنا طائفة من
كتبه ورسائله ، على الرغم من واقعة احراق كتبه وتزييقها
باشبيلية فى عهد المعتضد بن عباد . ولعل فى مقدمة هؤلاء
التلاميذ الأوفياء الذين قرأوا عليه وأكثروا الرواية عنه أبا
عبد الله الحميدى صاحب « جذوة المقتبس » و « الأمانى
الصادقة » فى التاريخ ، و « الجمع بين الصحيحين » فى
الفقه ... الخ . وبفضل رواية الحميدى أمكننا الوقوف على
واحد من كتب ابن حزم الهامة فى التاريخ الاسلامى ، ألا وهو
كتاب « قطب العروس فى تواريخ الخلفاء » . وقد تتلمذ
الحميدى على يد ابن حزم فى الفترة ما بين سنتى ٤٣٠ هـ -
و ٤٤٠ هـ (حينما اضطره اضطهاد الفقهاء له الى الاحتماء بابن
رشيق فى ميورقة) . وقد ولد أبو عبد الله محمد بن فتوح
الحميدى الميورقى سنة ٤١٠ هـ فى جزيرة ميورقة ، وكان أصلا
من قرطبة ، وتلمذ على ابن حزم منذ صباه ، فأخذ عنه وتلقى
عليه كتبه وأخباره ، وتخرج عليه فى أكثر علومه . وكان الحميدى
من المعجبين بأستاذه ابن حزم ، فأخذ على عاتقه نشر مذهبه
بالمشرق ، ويقال انه كان بمكة سنة ٤٤٨ هـ ، وأخذ عنه رواية
الحديث بمكة ومصر وافريقية والشام والعراق ، ثم استوطن

بغداد ، وصار اماماً من كبار أئمة المسلمين في حفظه ومعرفته وإتقانه وثقته وصدقه . وقد وصفه أحدهم فقال : « لم تر عيناي مثله في فضله ونبله ونزاهة نفسه وغزارة علمه وحرصه على نشر العلم وبشه في أهله » . وقد بلغ من إعجاب الحميدى بأستاذه ابن حزم أن قال عنه : « ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ ، وكرم النفس والتدين ... الخ » . ولا بد من أن يكون الحميدى قد تشيع للمذهب الظاهري الذي كان ينادى به أستاذه ، ولكنه — فيما يقول البعض — لم يكن يتظاهر به . وكما كان ابن حزم مؤلفاً نشيطاً الى أبعد حدود النشاط ، فكذلك كان تلاميذ الحميدى كاتباً مدققاً ، ومؤرخاً محققاً ، كتب في الفقه والحديث وعلم الأصول والأدب والأخلاق والتاريخ .. الخ . وقد كان من كثرة اجتهاده ينسخ بالليل في الحر ، ويجلس في اجانة ماء يتبرد به . وقد أعانتنا مؤلفاته على معرفة الكثير من أخبار المغرب والأندلس ، فكانت رواياته التاريخية مرجعاً هاماً لمن جاءوا بعده من المؤرخين . وكانت وفاة أبي عبد الله الحميدى ببغداد حوالي سنة ٤٨٨ هـ ^١ .

ومن تتلمذ أيضاً على ابن حزم الامام الوزير أبو محمد بن المغربي الذي صحبه سبعة أعوام ، وقرأ عليه معظم تصنيفاته . وقد ولد ابن المغربي سنة ٤٣٥ هـ ، واتصل بابن حزم منذ

(١) سعيد الأفغاني : « ابن حزم الاندلسي » ، دمشق ، ١٩٤٠ ، ص ٢١٦ .
 (وانظر أيضاً محمد أبو زهرة : « ابن حزم — حياته وعصره ، آراؤه وفقهه » ، ١٩٥٤ ، ص ٥١٨) .

حدائة عهده بالتعليم ، وقال فى ذلك : « صخبى الامام أبا محمد على بن حزم سبعة أعوام ، وسمعت منه جميع مصنفاته ، حاشا المجلد الأخير من كتاب « الفصل » ، وهو يشتمل على ستة مجلدات من الأصل الذى قرأنا منه ، فىكون الثمات نحو السدس . وقرأنا من كتابه « الايصال » أربعة مجلدات سنة ٤٥٦ هـ ، ولم يفتنى من تأليفاته شىء سوى ما ذكرته من الناقص ، وما لم أقرأه من كتاب « الايصال » وربما كان له شىء من تواليفه فى غير بلده فى المدة التى تجول فيها بشرق الأندلس فلم أسمعها ، ولى بجميع مصنفاته ومسموعاته اجازة منه مرات عديدة كثيرة ... الخ »^١ . وقد تنقل محمد بن أحمد ابن المغربى بين المشرق والمغرب دارسا ومدرسا ، وتلمذ عليه الكثيرون فى الشام والعراق والحجاز ومصر ، ويقال انه توفى بمصر سنة ٤٩٣ هـ^٢ . وقد كان لابن حزم أيضا تلاميذ آخرون نذكر من بينهم على بن سعيد العبدري الذى دافع عن المذهب الظاهري ببغداد ، ومحمد بن سريج المقبرى الذى كان خاتمة من روى عنه^٣ . وكذلك عمل على نشر علم ابن حزم بالمشرق ولده أبو رافع ، كما روى عنه ابنه أبو أسامة يعقوب ،

(١) هذا النص من « ارشاد الأريب » أورده الأستاذ سعيد الأفغانى بكتابه

المشار اليه ص ٣٦/٣٧

(٢) ياقوت الرؤمى : « معجم الأدباء » ، ج ١٢ ، ص ٢٥٢

(٣) المرجع السابق ، « وتذكرة الحفاظ » للدهبى .

وأبو سليمان المصعب . ومن قاتر أيضا بابن حزم الامام
أبو بكر محمد بن محمد الوليد الطرطوشي (المتوفى سنة
٥٥١ هـ) ، وقد نشأ بالأندلس وأخذ عن ابن حزم ورحل الى
المشرق حيث تلاقى مع بعض أئمة الشام وتناظر مع الكثير من
فقهاء العراق .

ولكن الى جانب هؤلاء الذين تتلمذوا على ابن حزم
وأخذوا عنه ، وعملوا على نشر مذهبه حيا وميتا ، ظهر أيضا
لابن حزم — حتى بعد وفاته — خصوم كثيرون أخذوا على
عاقبتهم تفنيد مذهبه ، والكشف عن أباطيله ، والعمل على
حرف الناس عنه ! وقد كان في مقدمة هؤلاء الخصوم القاضي
أبو بكر بن العربي (المتوفى سنة ٥٤٦ هـ) الذي ألف كتابين
في الرد على ابن حزم : كتاب « العواصم من القواصم » ،
وكتاب « الدواهي والنواهي » . وقد جاء في « تذكرة الحفاظ »
تقلا عن أبي بكر بن العربي أنه قال : « .. وكان أول بدعة
لقيت في رحلتى القول بالباطن ، فلما عدت وجدت القول
بالظاهر قد ملأ به المغرب سخيف كان من بادية اشيلية يعرفه ،
بابن حزم : نشأ وتعلق بمذهب الشافعي ، ثم اقتسب الى داود ،
ثم خلع الكل واستقل بنفسه وزعم أنه امام الأئمة ، يضع ويرفع ،
ويحكم ويشرع ، وينسب الى دين الله ما ليس فيه ... وقد
جاءني رجل بجزء لابن حزم سماه « نكت الاسلام » فيه
دواهي ، فجردت عليه نواهي ، وجاء آخر برسالة في الاعتقاد ،

فتنقضتها برسالة الغرة ، والأمر أفحش من أن ينتفض ^١ .
وورد أيضا في كتاب « بغية الوعاة » أن أحد أسباط ابن حزم ،
ألا وهو أحمد بن محمد بن حزم ألف في الرد على الفقيه
الأندلسي الكبير كتابا سماه « الزوائغ والدوامغ » تابع فيه
أبا بكر بن العربي في كتابه « الدواهي والنواهي » ^٢ .

ومهما كان من أمر تلك المساجلات العنيفة التي دارت بين
أنصار ابن حزم وخصومه ، فقد سجل التاريخ لابن حزم أنه
كان المفكر الموسوعي الكبير الذي استطاع أن يخلف لنا ثروة
علمية هائلة في المنطق ، والجدل ، والحديث ، والفقه ، والكلام ،
والأدب ، والتاريخ ، وعلم النفس ، وغيرها من مناحي الثقافة .
فلم تنحصر أهمية ابن حزم في دفاعه عن المذهب الظاهري ، أو
تقده لأصحاب الفرق الإسلامية من معتزلة وأشاعرة وغيرهم ،
بل لقد تجلت أهميته بصفة خاصة في قدرته الهائلة على
الاحاطة بمختلف فروع الثقافة التي كانت سائدة في عصره ،
وفي دراساته الأخلاقية والنفسية التي أتاحت لنا الفرصة لفهم
الكثير من أحوال مجتمعه . وقد يختلف النقاد في الحكم على
قيمة الآراء التي تحمس لها ابن حزم ، ولكنهم لن يختلفوا في
الحكم على قيمة مفكر عاش للعلم وحده بعقله العبقري زهاء

(١) سعيد الأفغاني : « ابن حزم الأندلسي » ، ص ١٤١ (نقلا عن تذكرة
الحفاظ للذهبي) .

(٢) راجع مقدمة « جبهة أنساب العرب » للأستاذ عبد السلام محمدا
هارون ، ١٩٦٢ ، ص ٦

حسبة وثلاثين عاما ، وأظهر مقدرة عقلية فذة في كل ما ألفه
ودون من مجلدات ورسائل . وسيكون علينا — فيما يلي —
أن نحاول الإلمام بجانب من هذا الإنتاج الفكري الهائل الذي
توافر على تحقيقه ونشره — لحسن الحظ — طائفة من خيرة
الباحثين في العانم العربي .

الفصل الثالث

إنتاجه

قلنا ان ابن حزم الأندلسي كان من أنشط مفكري الاسلام
عموما ، والأندلس خصوصا ، حتى لقد كتب في كل فرع من
فروع الثقافة ، وترك لنا الكثير من المصنفات في كل باب من
أبواب المعرفة . وقد أجمع المؤرخون على أنه كان أكثر علماء
الأندلس تأليفا وتصنيفا ، فقال صاعد الأندلسي متعجبا :
« أخبرني ابنه الفضل المكنى أبا رافع : اجتمع عندي بخط
أبي من تواليفه في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل
وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على
المعارضين ، نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين
ألف ورقة . وهذا شيء ما علمناه من أحد ممن كان في دولة
الاسلام قبله ، الا لأبي جعفر بن جرير الطبري : فانه أكثر
أهل الاسلام تأليفا ... » وقد نقل هذا الخبر أيضا عن صاعد
الأندلسي عبد الواحد المراكشي في كتابه « المعجب » ، كما
أيده معاصرو ابن حزم من أمثال أبي مروان بن حيان وبعض
تلاميذه من أمثال الحميدى وغيره . ولكن ، على حين كان
معظم مؤلفات ابن جرير الطبري في الأخبار والتاريخ ،

والتفسير والحديث ، نجد أن جانبا غير قليل من مؤلفات ابن حزم الأندلسي قد اشتمل على المجادلة في الملل والنحل ، ومناقشة عقائد الفرق الاسلامية ، والكتابة في المنطق والفلسفة ، فضلا عن عنايته بدراسة علم اللسان والبلاغة والشعر والخطابة وغيرها ^١ ، مما حدا بالبعض الى القول بأن منزلة أبي جعفر بن جرير الطبري لا تسمو الى منزلة أبي محمد علي بن حزم ، على الرغم من أن الطبري كان أكثر أهل الاسلام تأليفا ^٢ . فاذا أضفنا الى ذلك ما انطوى عليه أسلوب ابن حزم من بلاغة وحسن بيان ، أمكننا أن نقول مع البعض ان ابن حزم هو « جاحظ الأندلس بلا منازع ^٣ » .

ولو أننا جعلنا معيار الثقافة هو « كيف » لا « الكم » ، لكان في وسعنا أن نقول ان لابن حزم في مضمار الثقافة منزلة رفيعة قد لا يرقى اليها أى مفكر آخر من أبناء عصره : فنحن نجد لديه عقلية منطقية مرتبة ، تحسن تقديم المقدمات وانتاج النتائج ، وتنفر من الحشو واللغو والاستطراد ، وتعرف كيف تسير في عرض موضوعها بطريقة منهجية منظمة . وهذا الطابع المنهجى الواضح الذى اتسمت به الغالبية العظمى من كتابات

(١) المقرئ : « نفع الطيب » ج ٦ ، ص ٢٠٤ ، عبد الواحد المراكشي :

« المعجب » ص ٤٧ .

(٢) محمد أبو زهرة : « ابن حزم : حياته وعصره ، آراؤه وفقهه » ، دار

الفكر العربي ، ١٩٥٤ ، ص ٦٤/٦٥

(٣) سعيد الانصافى : « ابن حزم الأندلسي ورسائله في المفاضلة بين

« الصحابة » دمشق ، ١٩٤٠ ، ص ٤٨

ابن حزم يدلنا على تأثره الشديد بالدراسة المنطقية التي توافر عليها ، كما يظهرنا على عنايته البالغة بتبويب موضوعاته وتيسير قراءتها على جمهور قرائه . والظاهر أن دراية ابن حزم بأصول الجدل قد أكسبته دقة منطقية وصرامة عقلية قلما نجد لها نظيراً عند غيره من مفكرى عصره ، فضلاً عن أن اهتمامه بالتعليم ونشر آرائه بين طائفة من التلاميذ ، قد هيا له منهجاً تربوياً ، دعامة التنظيم والتسلسل المنطقى . وحتى حين يكتب ابن حزم عن الحب ، فإنه لا يطلق لقلمه العنان ، على نحو ما يفعل الأدباء والشعراء ، بل هو يبدأ بشرح طريقته فى البحث ، وتقسيم موضوعه الى أبواب ، فيحدد لنفسه منذ البداية منهجاً يصطنعه فى كل دراسته ، ويبين للقارئ فى صدر رسالته جوانب الموضوع الذى سيعرض له بالبحث .

صحيح أن هناك farkاً واضحاً بين أسلوب ابن حزم فى مؤلفاته الأدبية وأسلوبه فى كتاباته العلمية ، ولكننا نلاحظ مع ذلك أن كل إنتاج ابن حزم ، أدبياً كان أم علمياً ، قد اتسم بطابع الدقة والتنظيم ومراعاة مقتضى الحال . وهو حين يستبيح لنفسه — فى بعض كتبه الأدبية — الاستطراد أو الخروج عن الموضوع ، فإنه ينبه القارئ الى ذلك ، وكأنما هو يعتذر اليه عن مثل هذا الاسترسال الذى يضطره اليه تداعى الخواطر ، فيقول له (مثلاً) فى معرض الحديث عن صفة الوفاء فى الحب : « .. وبالوفاء أيضاً أفخر فى قصيدة لى طويلة أوردتها ، وإن كان أكثرها ليس من جنس الكتاب ، وكان سبب قولى بها

(كذا وكذا) .. الخ ^١ . وهو حين يتحدث أيضا عن الرقابة والنسيمة في الحب ، فانه ينتقل الى الحديث عن رذيلة الكذب بصفة عامة ، على اعتبار أن النسيمة فرع من فروع الكذب ، فيقول : « .. ولا بد أن أورد ما يشبه ما نحن فيه ، وإن كان خارجا منه ، وهو شيء في بيان التثقل والنائم ، فالكلام يدعو بعضه بعضا كما شرطنا في أول الرسالة ^٢ » .

وهو حين يحدثنا في باب قبح المعصية عن الهوى والشهوة والغواية وما الى ذلك ، فانه يسرد علينا بعض حالات انقلبت فيها المودة الى عداوة ، وبعض حالات أخرى استحوطت فيها الصلة الطاهرة الى علاقة آثمة ، ولكنه لا يلبث أن يفتن الى ما قد يكون في هذه الروايات من استطراد أو استرسال فيقول : « وهذان الفصلان وإن لم يكونا من جنس الباب ، فانهما شاهدان على ما يقود اليه الهوى من الهلاك الحاضر الظاهر .. الخ ^٣ » . والأمثلة عديدة على دقة ابن حزم في تحديد نطاق موضوعه ، وحرصه على التزام حدوده ، واهتمامه بمراعاة التسلسل المنطقي والانتقال من المقدمات الى النتائج ، في سائر كتاباته .

وليس أدل على دقة ابن حزم في كتاباته العلمية من حرصه على تحديد معاني الألفاظ ، تجنباً للشغب والالتباس في الجدل

(١) ابن حزم « طرق الحجة في الألفه والآلاف » ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٨٢

(٢) المرجع السابق : ص ٥٥

(٣) المرجع السابق : ص ١٢٤

والنقاش ، كما فعل مثلاً في الجزء الأول من كتابه الضخم المسمّى باسم : « الإحكام في أصول الأحكام » . فنحن نجد ينص في الباب الخامس من هذا الكتاب على « الألفاظ الدائرة بين أهل النظر » ، مثل الجد ، والرسم ، والعلم ، والاعتقاد ، والبرهان ، والدليل ، والحجة ، والاستدلال ، والدالة ، والاقناع ، والشغب ، والتقليد ، والبيان ، والابانة ، والتبيين ، والصدق ، والحق ، والباطل ، والكذب ، والأصل ، والقرع ، والمعلوم ، والنص ، والتأويل ، والعموم ، والخصوص .. الخ ، لكي يقدم لنا تعريفاً دقيقاً لكل لفظة من هذه الألفاظ ، مميّزاً معناها على حقيقتها ، حتى لا تقع الأسماء على غير مسمياتها . وهو يذكرنا في هذا الصدد بما سبق له قوله في مؤلفه المنطقي المسمّى باسم « التقريب لحدّ المنطق » فيقول مثلاً في تعريفه « العلم » : « هو تيقن الشيء على ما هو عليه : إما عن برهان ضروري موصّل الى تيقنه كذلك ، إما أول بالحس أو ببديهة العقل ، وإما حادث عن أول على ما بينّا في كتاب التقريب من أخذ المقدمات الراجعة الى أول العقل أو الحس ، إما من قرب وإما من بعد ... الخ . »^١ . بل إن ابن حزم ليذهب الى حد أبعد من ذلك ، فيسبق أصحاب المنطق الوضعي الحديث الى الكلام عن معاني الحروف ، ويعرض بالتفصيل لتحديد دلالات « واو العطف » ، و « الفاء » ، و « ثم » ، و « أو » ،

(١) ابن حزم : « الإحكام في أصول الأحكام » ، الجزء الأول ، ١٣٤٥ تحقيقه

الشيخ أحمد شاكر ، ص ٢٦

و « من » ، و « الى » ، و « الباء » ... الخ ، ميّنا لنا حكم كل حرف من هذه الحروف ، وموضعه في الخبر حسب رتبة الكلام^١ .

وعلى الرغم من أن مفكرنا الأندلسي الكبير كان غزير التأليف ، فأننا لا نجد بين مؤلفاته جميعاً كتاباً واحداً لم يبدأه بتحديد موضوع بحثه ، وتعيين خطته في الدراسة ، والنص على الهدف الذي قصد اليه من وراء تأليفه . فلم يكن ابن حزم يكتب لمجرد الكتابة ، أو رغبة منه في التباهي بعلمه ، أو ليغال انه عالم كتب مئات الكتب والرسائل ، وإنما كان يكتب مبتغياً بعلمه وجه الله تعالى ، قاصداً من وراء كتاباته تحقيق أكبر نفع ممكن لطالبي المعرفة من مواطنيه . فهو حين يقدم لنا مثلاً كتابه الضم المسمى باسم « الفِصَل في الملل والأهواء والنحل » ينص في مقدمة هذا الكتاب على الغرض الذي من أجله تعرض لدراسة الديانات والملل فيقول : « ان كثيراً من الناس كتبوا في افتراق الناس في دياناتهم ومقالاتهم كتباً كثيرة جداً : فبعضهم أطال وأسهب وأكثر وهجر واستعمل الأغاليط والشغب ، فكان ذلك شاغلاً عن الفهم ، قاطعاً دون العلم ، وبعضٌ حذف وقصر وقلل واختصر وأضرب عن كثير من قوى معارضات أصحاب المقالات ، فكان في ذلك غير منصف لنفسه في أن يرضى لها بالنين في الابانة ، وظالماً لخصمه في أن لم يوفه

(١) المرجع السابق : الجزء الاول ، ص ٥١ - ٥٢

حق اعتراضه ، وبإخسأ حق من قرأ كتابه ، اذ لم يثغنه عن غيره .
وكلثهم ... عقّد كلامه تعقيداً يتعذر فهمه على كثير من أهل
الفهم ، وحلّق على المعاني من بعد ، حتى صار يتنسى آخر
كلامه أوّله ، وأكثر هذا منهم ستائر دون فساد معانيهم ، فكان
هذا منهم غير محمود في عاجله وآجله . « ١ » ، وهذه المقدمة
تدلنا بوضوح على أن ابن حزم لم يتقدم على الكتابة في علم
الأديان المقارن ، أو في تاريخ الديانات والملل ، الا لأنه أدرك
ما في الدراسات التي قام بها السابقون عليه (في هذا المضمار)
من نقص ، وتعمية ، وغموض ، فهو يأخذ على عاتقه معاودة
البحث فيما فاتهم أو غاب عنهم أو خفى عليهم ، محدّداً لنفسه
منذ البداية منهجاً عقلياً دقيقاً ، واضعاً نصب عينيه مبدأ التزام
الوضوح ، واجتناب التعقيد ، واستيفاء حجج الخصوم .

ولعل من هذا القبيل أيضاً ما فعله ابن حزم حينما تصدى
للرد على ابن النفريلة اليهودي الذي كان قد ألف كتاباً في بيان
تناقض كلام الله عز وجل في القرآن ، فائثا لا نجد يقتصر على
مهاجمة الرجل بكل مقذع من السباب والشتائم ، بل نراه يروى
لنا اعتراضاته واحداً بعد الآخر ، مورداً نص كلامه في كثير من
الأحيان ، ملخصاً حججه تلخيصاً منصفاً عادلاً في معظم
الأحيان . وهو يحدثنا في مقدمة رسالته عن الجهد الذي بذله في
سبيل الحصول على نسخة من كتاب هذا الرجل اليهودي ،

(١) ابن حزم : « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، الجزء الأول ، ص ٧

فيقول : « ... فأظفرني القدر بنسخة رد فيها عليه رجل من المسلمين ، فاتسخت الفصول التي ذكرها ذلك الراد عن هذا الرذل الجاهل ، وبادرت الى بطلان ظنونه الفاسدة بحول الله وقوته ... »^١ . وأما في كتاب « التلخيص لوجوه التخليص » ، فإننا نجد ابن حزم ينص على أنه لم يكتب هذه الرسالة الا للرد على ما وُجِّهَ اليه من أسئلة ، مع اعترافه في الوقت نفسه بقيمة تلك الأسئلة ، وجدوى الرد عليها . وهذا ما عبر عنه بقوله : « ورأيت المسائل التي سألتكم عنها ، فوجدتها مسائل لا يستغنى عنها من له أقل اهتمام بدينه عن البحث عنها والوقوف عليها . ولقد أجدتكم السؤال ، وأنا أسأل الله تعالى (أن) يوفق لأصابة الجواب عنه يا رب العالمين . ورأيتكم سألتكم في بعض تلك المسائل بالفاظ شتى والمعنى واحد ، فنصصت ألفاظكم فيها ، لتقفوا على ذلك ان شاء الله تعالى . »^٢ . وهكذا نجد أن معظم مؤلفات ابن حزم قد صدرت عن ضرورة أوجبت كتابتها ، أو حاجة دعت الى القيام بتحريرها :

ولو أننا أردنا الآن أن نحصر مؤلفات ابن حزم المطبوعة وغير المطبوعة ، لكان علينا أولا أن نقوم بعمل تصنيف دقيق لها ، بالرجوع الى أهم المصادر العربية التي نص أصحابها على أسماء كتبه ، مع الاعتماد على اشارته هو نفسه في تضاعفه ، أحاديثه المختلفة . وربما كان في وسعنا أن نصنف مؤلفاته

(١) « الرد على ابن النخيلة اليهودي » ، ١٩٦٠ ، ص ٤٧

(٢) « رسالة التلخيص لوجوه التخليص » ، ص ١٤٠

العديدة الى أربعة أنواع : أولاً : دراسات فلسفية وكلامية ،
 وثانياً : دراسات فقهية وشرعية ، وثالثاً : دراسات تاريخية
 وسياسية ، وأخيراً : دراسات خلقية وتقصية . وقد استبعدنا من
 هذا التصنيف الجانب الأدبي الصرف من اقتراح ابن حزم ،
 وما قد يكون له من قصائد يمكن جمعها في ديوان مستقل ^١ ،
 على اعتبار أن هذا الالتجاء الأدبي لا يدخل في مضمار الدراسات
 العلمية والأبحاث الفلسفية بمعناها الدقيق ... وقد قال
 أبو مروان بن حيان في معرض الحديث عن علم ابن حزم انه كان
 حامل فنون عدة : فمن حديث الى فقه ، ومن جدل الى نسب ،
 ومن تاريخ الى ما يتعلق بأذيال الأدب ، مع المشاركة في كثير
 من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة ... الخ . ^٢ ، ثم
 حاول ابن حيان حصر هذه الكتب ، فراح يقول : « ولهذا
 الشيخ أبي محمد مع يهود لعنهم ، ومع غيرهم من أولى المذاهب
 المرفوضة من أهل الاسلام مجالس محفوظة ، وأخبار مكتوبة ،
 وله مصنفات في ذلك معروفة ، من أشهرها في علم الجدل كتابه
 المسمى الفصل بين أهل الآراء والنحل ، وكتاب الصادع

(١) كان الأستاذ ممدوح حتى قد وعد في ختام التحقيق الذي قام به لكتاب
 « حجة الوطاع » لابن حزم (دمشق ، ١٩٥٦) بنشر « ديوان ابن حزم » ،
 ولكننا لم نتمكن من العثور على هذا الديوان (إن كان قد نشر بالفعل) . وهناك
 جانب كبير من اشعار ابن حزم في كتاب « الصلة » لابن بشكوال (وهو مطبوع
 بمطبعة ، سنة ١٨٨٢ م) ، كما أورد ابن حزم نفسه الكثير منها في رسالته : « طوق
 الحمامة » .

(٢) ياقوت الرومي : « معجم الأديباء » ج ١٢ ، ص ٢٤٧ .

والرابع على من كفر أهل التأويل من فرق المسلمين ، والرد على من قال بالتقليد ، وله كتاب في شرح حديث الموطأ ، والكلام على مسائله ، وله كتاب الجامع في صحيح الحديث باختصار الأسانيد والاقتصار على أصحها ، واجتلاب أكمل ألفاظها وأصح معانيها ، وكتاب التلخيص والتخليص في المسائل النظرية وفروعها التي لا نص عليها في الكتاب ولا الحديث ، وكتاب منتقى الأجماع ، وبيانه من جملة ما لا يعرف فيه اختلاف ، وكتاب الإمامة والسياسة في قسم سير الخلفاء ومراتبها ، والندب والواجب منها ، وكتابه أخلاق النفس ، وكتابه الكبير المعروف بالإيصال إلى فهم كتاب الخصال ، وكتاب كشف الالباس ، بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس ، إلى توافيق غيرها ، ورسائل في معان شتى كثير عددها ^١ .

ولكن هذه القائمة الطويلة التي ذكرها المؤرخ ابن حيان لا تستوعب كل أسماء كتب ابن حزم التي وصل إلينا علمها ، فقد أضاف إليها الحميدى في « جذوة المقتبس » ، وصاعد الأندلسي في « طبقات الأمم » ، والذهبي في « تذكرة الحفاظ » ، والقفطي في « أخبار الحكماء » ، والمراكشي في « المعجب » ، وابن حجر في « لسان الميزان » (وغيرهم) ، أسماء أخرى كثيرة لم ينص عليها ابن حيان ولا ياقوت الرومي في « معجم الأدباء » . وقد حاول الأستاذ سعيد الأفغاني حصر أسماء هذه الكتب في المقدمة الطويلة القيمة التي كتبها سنة ١٩٤٠

(٣) المرجع السابق : ج ١٢ ، ص ٢٥١

لنشرته الدقيقة لرسالة ابن حزم في « المفاضلة بين الصحابة » ، كما اهتم أيضاً الدكتور احسان عباس في مقدمة التحقيق الذي نشره لكتاب « الرد على ابن النغيلة اليهودي ورسائل أخرى » بالنص على أسماء كتب ابن حزم غير المنشورة (والمفقودة) بالاستناد الى الكثير من المصادر العربية والأجنبية . وفي استطاعة القارئ الرجوع الى إحدى هاتين الدراستين ، أو الى التقديم الذي كتبه الأستاذ عبد السلام هارون لكتاب ابن حزم المسمى باسم « جمهرة أنساب العرب » (سنة ١٩٦٢) من أجل الوقوف على أهم أسماء كتب ابن حزم المنشورة والمخطوطة والمفقودة ...

وأما عن دراسات ابن حزم الفلسفية والكلامية ، فرجما كان أهمها كتابه « التقريب لحد المنطق والمدخل اليه » الذي توافر على تحقيقه ونشره والتقديم له الأستاذ الدكتور احسان عباس ، وسنتحدث عنه بالتفصيل فيما بعد عند !التعرض لدراسة ابن حزم المنطقي (في الفصل الأول من الباب الثاني من كتابنا هذا) . وحسبنا هنا أن نشير الى أهمية هذا الكتاب بوصفه مختصراً مبسطاً للمنطق الأرسططالي ، استخدم فيه ابن حزم من الألفاظ العامة والأمثلة الفقهية ما جعل منه محاولة تعليمية جديدة لتقريب المنطق الى أذهان غير المتخصصين من القراء . ولكن الكثير من المؤرخين قد اتقدوا هذا الكتاب ، فقال فيه (مثلاً) : صاعد الأندلسي : « بسط فيه القول على تبين طرق المعارف ، واستعمل فيه أمثلة فقهية وجوامع شرعية ، وخالف أرسطوطاليس

واضع هذا العلم في بعض أصوله مخالفة من لم يفهم
غرضه ولا ارتاض في كتبه ، فكتابه من أجل هذا كثير الغلط ،
بيّن السقط ١ » .. وسيكون علينا من بعد أن نناقش أمثال
هذه الآراء ، في ضوء دراستنا لمضمون الكتاب ، مع بيان ما قد
يكون ابن حزم قد وقع فيه من أخطاء عند عرضه لأهم آراء
أرسطو في المنطق الصوري . ولابن حزم أيضا — في مضمون
الدراسات الفلسفية — رسالة صغيرة تحدث فيها عن « مراتب
العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض » ، وهي منشورة
ضمن « رسائل ابن حزم » التي حققها الأستاذ الدكتور احسان
عباس (سنة ١٩٥٤) . وهذه الرسالة تدخل في باب « تقسيم
العلوم » ، وهي تنطوي على تحديد دقيق لموضوع كل علم ،
بما في ذلك علوم الأوائل ، وعلوم الفقه والحديث ، والكلام ،
والأنساب ، وعلم الأخبار ، وعلوم اللغة واللسان .. الخ . وأما
الرسالة المنشورة ضمن مجموعة « الرد على ابن النغيلة اليهودي
ورسائل أخرى » بتحقيق الدكتور احسان عباس أيضا (القاهرة
سنة ١٩٦٠) بعنوان : « الرد على الكندي الفيلسوف » فهي
في نظرنا لابن حزم آخر ، لأنها لا تكاد تمت بصلة الى آرائه
المعروفة ، فضلا عن أن أحدا لم يشر الى كتاب لفيلسوفنا
الأندلسي بهذا الاسم . وأما الكتاب الذي يُنسب عادة الى

(١) صاعد الاندلسي : « طبقات الامم » ص ١١٨ (والتقطي : « اخبار

الحكام » ، ص ١٥٦) .

أبى محمد على بن حزم بهذا الاسم فهو كتاب « التحقيق في
تقد زكريا الرازى فى كتابه العلم الالهى » ، وهو كتاب أشار
اليه ابن حزم نفسه فى كتابه « الفصل » (الجزء الأول ، ص ٣)
حين قال : « .. وهو قول يؤثر عن محمد بن زكريا الرازى
الطبيب ولنا عليه فيه كتاب مفرد فى تقض كتابه فى ذلك وهو
المعروف بالعلم الالهى » . ولابن حزم أيضا كتاب فى أسماء
الله تعالى أشار اليه الامام الغزالى حين قال : « وجدت فى أسماء
الله تعالى كتابا لأبى محمد بن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان
ذهنه ١ » . وقد أشار الى هذا الكتاب كل من الذهبى فى
« تذكرة الحفاظ » والمقرئ فى « نفح الطيب » ، ولكنه — مع
الأسف — لم يصلنا . ولما كانت الصلة وثيقة بين الفلسفة وعلم
الكلام ، فربما كان فى وسعنا أن ندخل فى عداد كتب ابن حزم
الفلسفية كتابه الضخم المسمى باسم « الفصل فى الملل والأهواء
والنحل » وهو الكتاب الذى ضمنه الكثير من رسائله المتفرقة
فى مناقشة اليهود والنصارى ، وأصحاب الفرق الاسلامية من
أمثال المرجئة والمعتزلة والأشاعرة والشيعة والخوارج .. الخ .
وكثير من الكتب التى ينسبها المؤرخون الى ابن حزم متضمنة
فى هذا المجلد الكبير ، مثل رسالته فى الكلام على تحريف
اليهود والنصارى للتوراة والانجيل ، وكتاب « النصائح

(١) المقرئ : « نفح الطيب » ، الجزء الاول ، ص ٣٦٥ (وانظر أيضا تصدير
الدكتور احسان عباس لكتاب « الرد على ابن النفريلة اليهودى ورسائل اخرى » ،
القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٤) .

المنجية من الفضائح المخزية والقبائح المردية ، من أقوال أهل البدع : المعتزلة والخوارج والمرجية والشيعة » ، ورسالته في « المفاضلة بين الصحابة » ... الخ .

وأما عن دراسات ابن حزم الفقهية والشرعية فإنها تمثل الجانب الأكبر من إنتاجه المطبوع ، وقد ظهر منها حتى الآن كتاب « الأحكام في أصول الأحكام » في مجلدين كبيرين (من ثمانية أجزاء) نشرًا بتحقيق المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر (من سنة ١٣٤٥ هـ الى سنة ١٣٤٨ هـ) وكتاب المحلى بالآثار في شرح المحلى بالاختصار ، وقد طبع لأول مرة بتحقيق الشيخين أحمد محمد شاكر ، وعبد الرحمن الجزيري ، وأتمه محمد منير الدمشقي في ١١ مجلدًا . وقد روى الذهبي في كتابه « تذكرة الحفاظ » عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام أنه قال : « ما رأيت في كتب الاسلام في العلم مثل « المحلى لابن حزم » و « المغنى » للشيخ الموفق » ، وكتاب « النبذة الكافية في أصول أحكام الدين » الذي نشره وقدم له الامام الكوثري باسم كتاب « النبذ » ، وكتاب « ملخص ابطال القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل » الذي حققه ونشره وقدم له الأستاذ سعيد الأفغاني سنة ١٣٧٩ هـ بمطبعة جامعة دمشق ، وكتاب « الناسخ والمنسوخ » الذي طبع على هامش تفسير الجلالين بالقاهرة سنة ١٣٠٨ هـ ، سنة ١٣٢١ (وان كان يبدو أنه لابن حزم آخر فيما يقول البعض) ، وكتاب « نكت الاسلام » الذي نشر وترجم الى اللغة الاميبانية في غرناطة

سنة ١٩١١ ، وأخيراً رسالة : « التلخيص لوجوه التخليص »
و « رسالتان له أجاب فيهما عن رسالتين سئل فيهما سؤال
تعنيف » ، وقد نشرهما الدكتور احسان عباس سنة ١٩٦٠
ضمن مجموعة « الرد على ابن النفريلة اليهودى ورسائل
أخرى » .

وأما كتب ابن حزم الفقهية والشرعية التى ما زالت
مخطوطة ، أو التى ما زالت مفقودة ، فهى كثيرة نذكر من بينها :
كتاب « الايصال الى فهم الخصال » ، الجامعة لجمل شرائع
الاسلام ، فى الواجب والحلال والحرام ، والسنة والاجماع «
(فى أربعة وعشرين مجلداً) ، وكتاب « الجامع فى صحيح
الحديث » باختصار الأسانيد والاقتصار على أصحابها ، واجتلاب
أكمل ألفاظها ، وأصح معانيها ، وكتاب « كشف الالتباس ،
لما بين الظاهرية وأصحاب القياس » ، وكتاب « المجلئى » وهو
المتن الذى عمل عليه شرحا سماه بالمجلئى (وقد مر بنا فيما
سبق) ، و « كتاب فيما خالف فيه أبو حنيفة ومالك والشافعى
جمهرة العلماء ، وما انفرد به كل واحد ولم يسبق الى مثاله » ،
وقد أشار اليه ابن حزم نفسه فى المحلى عند حديثه عن
الفرائض ، كما نص عليه الذهبى فى « تذكرة الحفاظ » ، وكتاب
« شرح أحاديث الموطأ » ، وكتاب « الأصول والفروع » ،
وكتاب « الصادع والرادع على من كفر أهل التأويل من فرق
المسلمين ، والرد على من قال بالتقليد » ... الخ . وقد يكون

هناك تداخل بين أسماء بعض هذه الكتب ، ولكن من المؤكد أن لابن حزم كتباً أخرى كثيرة في الفقه ما زالت مطوية لم تنكشف عنها صدور المكتبات ^١ .

وأما القسم الثالث من أقسام مؤلفات ابن حزم ، فهو دراساته التاريخية والسياسية التي تمثل جانباً غير قليل من إنتاجه العلمي . وقد ظهر منها كتاب « جوامع السيرة » بالقاهرة سنة ١٩٥٦ ، حققه الأستاذان الدكتور احسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد ، وراجعاه الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر . وقد ألحق الناشران بهذا المجلد خمس رسائل أخرى هامة لابن حزم هي « القراءات المشهورة في الأمصار » ، و « أسماء الصحابة الرواة » و « أصحاب الفتيا من الصحابة ومن بعدهم » ، و « جمل فتوح الاسلام » ، و « أسماء الخلفاء والولاة » . ويدخل في هذا الباب أيضاً كتاب « جمهرة أنساب العرب » الذي نشره لأول مرة المستشرق الفرنسي ليقي پروقنسال ، ثم أعيد نشره بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون بدار المعارف سنة ١٩٦٢ . وهذا الكتاب لا يقتصر على ذكر أنساب العرب ، بل هو يتعرض أيضاً للكلام على مفاخرة عدنان وقحطان ،

(١) انظر مقدمة الدكتور احسان عباس لكتاب « الرد على ابن النفريقة اليهودي » ، ١٩٦٠ ، ص ٣ - ٦ ، وتقديم الأستاذ عبد السلام هارون لكتاب « جمهرة أنساب العرب » ، ١٩٦٢ ، ص ٩ - ١٢ وانظر أيضاً مقدمة « رسائل ابن حزم » للدكتور احسان عباس ، مكتبة الخانجي من ص ١ الى ٥ .

ويتناول يالبحث جمهرة نسب البربر ، ونسب بنى اسرائيل ،
وأنساب ملوك الفرس - ولابن حزم أيضا رسالة تسمى « تقط
العروس فى تواريخ الخلفاء » نشرها لأول مرة الأستاذ زنبولند
سنة ١٩١١ فى مجلة الدراسات التاريخية بغيرناطة ، ثم أعاد
نشرها بالاستناد الى نسخة أخرى جديدة أكمل وأضبط
الأستاذ الدكتور شوقى ضيف بمجلة « كلية الآداب » (جامعة
القاهرة) سنة ١٩٥١^١ . ولهذه الرسالة أهمية تاريخية كبرى
لأنها مرجع هام لكل من يريد أن يدرس نظام الخلافة الإسلامية ،
فضلا عن أنها تحتوى على الكثير من الأخبار الشخصية
والسياسية عن الخلفاء حتى عصر ابن حزم . وقد نشر الأستاذ
ممدوح حقى بدار اليقظة العربية بدمشق سنة ١٩٥٩ رسالة
صغيرة لابن حزم بعنوان « حجة الوداع » قدم لها بمقدمة قيمة ،
شرح فيها أهمية هذه الرسالة ، كما ختمها بتذييل مفيد عن
« المذهب الظاهرى » بصفة عامة . وقد سبق لنا أن أشرنا الى
رسالة ابن حزم فى « المفاضلة بين الصحابة » ، وهى الرسالة
المتضمنة فى كتاب « الفصل » ، وقد نشرها مستقلة الأستاذ
سعيد الأفغانى بدمشق عام ١٩٤٠ . ولابن حزم أيضا رسالة فى
« فضل الأندلس » أوردها المقبرى بتمامها فى كتابه « نفع
الطيب » (الجزء الثانى ، ص ١٢٥ - ١٢٨) ، وهى بمثابة دائرة

(١) راجع مقدمة الدكتور شوقى ضيف لهذه الرسالة : مجلة كلية الآداب ،

المجلد ١٢ ، الجزء الثانى ، ديسمبر سنة ١٩٥١ ، ص ٤١ - ٤٦

معارف كاملة لعلماء الأندلس ومؤلفاتهم وعلومهم ، وقد كتبها ابن حزم ليفاخر بها المشرق كله ، ولكنها في الوقت نفسه فهرس لمعارف الأندلسيين وتصنيف لعلماء الأندلس حتى تاريخ كتابتها ١ .

وأما كتب ابن حزم التاريخية والسياسية التي لم تنشر فهي عديدة نذكر من بينها كتاب « الامامة والسياسة في قسم سير الخلفاء ومراتبها ، والندب والواجب منها » ، وقد سماه المقرئ « الامامة والخلافة » ، وكتاب « ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس » الذي نص عليه الحميدى في « جذوة المقتبس » (ص ١٦٨) ، وكتاب « الفضائح » الذي نسبه ياقوت الى ابن حزم في « معجم البلدان » وقال انه تحدث فيه عن مخازى البربر وفضائح ملوكهم ... الخ . هذا الى أننا نجد في تضاعيف رسالة ابن حزم المسماة باسم : « التلخيص لوجوه التخليص » وصفا تاريخيا مشوقا للكثير من أحوال الأندلس في عصره ، وقد ألدعا لمجتمع الطوائف (حتى قبل تدهوره وانحطاطه) ، مما يدلنا على أن روح المؤرخ لم تكن روحا دخيلة على ابن حزم ، بل كانت صفة أساسية من صفاته .

وأما القسم الأخير من مؤلفات ابن حزم فهو دراساته الخلقية والنفسية التي لم يصلنا منها — مع الأسف — سوى كتابين ، ألا وهما : « طوق الحمامة في الألفة والألاف » (وقد

(١) سعيد الأفغاني : « ابن حزم الأندلسي ورسائله في المغاضلة بين

الصحابة » ، ١٩٤٠ ، ص ٤٤ — ٤٥

طبع هذا الكتاب لأول مرة بليدن سنة ١٩١٤ مع مقدمة فرنسية
للدكتور يتروف الأستاذ بجامعة بطرسبرج ، ثم أعيد طبعه
بدمشق سنة ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١ م مع مقدمة للأستاذ محمد
البزم ، وظهرت منه طبعة حديثة بالقاهرة سنة ١٩٥٩ م بتحقيق
الأستاذ حسن كامل الصيرفي ، وتقديم الأستاذ ابراهيم
الايارى ، وأعيد نشر هذه الطبعة بالقاهرة سنة ١٩٦٤ م -
١٣٨٣ هـ) ١ ، و « رسالة في مداواة النفوس » ، وتهذيب
الأخلاق والزهد في الرذائل » (وقد طبعت عدة مرات بدمشق
والقاهرة ، وظهرت ضمن « رسائل ابن حزم » التى حققها
الدكتور احسان عباس ، ١٩٥٤) . ويظهر أن ابن حزم
قد كتب رسائل أخرى عديدة فى الأخلاق فتقدت ضمن ما ضاع
من كتبه : فائنا نجد مؤرخى سيرته ينسبون اليه كتباً أخرى
فى الأخلاق مثل « الأخلاق والسير » ، و « أخلاق
النفوس » ... الخ . ولكن بعض المؤرخين يميلون الى القول بأن
« رسالة الأخلاق والسير » هى بعينها رسالة « مداواة
النفوس » ، وهى أيضا « حِكَم ابن حزم » التى نص عليها
آخرون . ومهما يكن من شىء ، فائنا حتى لو افترضنا أن ابن
حزم لم يكتب فى مجال الدراسات النفسىة والخلقىة سوى
رسالتى : « طوق الحماسة » و « مداواة النفوس » ، لكان

(١) ترجم هذا الكتاب الى الانجليزية (بقلم نيكل) ، والى الاسبانية
(بقلم غوميس) ، والى الروسية (بقلم ا.ساليه) .

هذان العملان وحدهما كهيلين بتخليد اسمه بين كبار العلماء من رجالات الأخلاق وعلم النفس . والمتأمل في هاتين الرسالتين ، يلاحظ أن ابن حزم كان ملماً بالكثير من النظريات اليونانية في النفس والأخلاق ، فضلاً عن أنه كان على علم غير قليل بحكمة الفرس والهند . ولكن المفكر الأندلسي الكبير لم يقتصر على هذه المعارف النظرية ، بل هو قد اعتمد أيضاً على تجربته ، فجاءت دراساته النفسية والخلقية دراسات تحليلية عميقة نبعت من صميم خبراته المتعاشة ، وصدرت عن حكمة عملية طويلة الأمد . فاذا أضفنا الى ذلك أن «رسالة الأخلاق» — فيما قال البعض — قد كانت عملاً متأخراً كتبه ابن حزم في آخر حياته ، أمكننا أن ندرك مدى نضج « التجربة » التي استند اليها فيلسوفنا في كتابة دراساته النفسية والأخلاقية . ولم يقتصر ابن حزم في تقريره للمبادئ الخلقية على الركون الى العقل والتجربة ، بل هو قد استند أيضاً الى الأصول الدينية ، فحاول تأييد أحكام العقل ببعض النصوص الدينية ، وعمد الى تزكية القضايا العقلية والتجريبية ببعض قصص القرآن^(١) .

وان الحديث ليطول بنا لو شئنا أن نستوعب كل مصنفات ابن حزم ، بما فيها رسائله الأدبية وآثاره الشعرية ، فحسبنا أن نكون قد أعطينا القارئ صورة عامة مجملّة لأهم دراساته مفكرنا العربي الكبير في ميادين المنطق ، والفلسفة ، والكلام ،

(١) محمد أبو زهرة : « ابن حزم — حياته وعصره — آراؤه وفقهه » ،

دار الفكر العربي ، ١٩٥٤ ، ص ١٥٩

والفقه ، والحديث ، والأنساب ، وعلم التاريخ ، والأخلاق ،
وعلم النفس ... وأما أسلوب ابن حزم — في كل هذه المؤلفات
والمصنفات — فهو أسلوب المفكر الدقيق العميق الذى يجعل
من اللغة أداة طيِّعة للتعبير عن أفكاره ومعانيه ، دون لغو أو
حشو ، ودون استطراد أو خروج عن الموضوع . وقد استطاع
ابن حزم أن يعبر عن أدق خلجات النفس ، وأرق أحاسيس
الشعور ، بلغة أنيقة رشيقة ، فكان الأديب الشاعر الذى يصف
للناس خبراته المتعاشية ، دون تكلف أو افتعال ، وينقل اليهم
عواطفه ومشاعره ، دون مبالغة أو اغراق فى الخيال ! وسيكون
علينا فيما يلى أن ندرس شخصية ابن حزم ، حتى ندرك الى
أى حد كان أسلوبه انعكاسا لشخصيته .

الفصل الرابع

شخصيته

حينما يتحدث علماء النفس عن « الشخصية » ، فانهم يعنون بها في العادة مجموع الصفات الجسمانية ، والوجدانية ، والعقلية ، والخلقية ، على نحو ما تتفاعل وتتكامل في شخص معين يحيا في بيئة اجتماعية معينة . وعلى الرغم من اختلاف علماء النفس في فهم دور كل من الوراثة والبيئة في تكوين الشخصية ، فانهم متجمعون — أو شبه مجمعين — على القول بأن ثمة مقومات ثلاثة رئيسية تدخل في بناء الشخصية ، ألا وهي عامل الذكاء أو المقدرة العقلية ، وعامل الاتزان العاطفي أو انتظام العمليات الانفعالية ، وعامل التبند الاجتماعي للفرد ، سواء أكان ذلك بالانطواء أم بالانبساط . فالشخصية إنما تمثل تلك الوحدة العضوية أو ذلك النظام الأساسي الذي يؤلف بين شتى وظائف السلوك الفردي (بما فيها وظيفة التفكير المجرد ، ووظيفة الكلام ، ووظيفة الإدراك ، ووظيفة الحركة ... الخ) . ولا شك أن فهم هذه الوحدة العضوية أو ذلك النظام الأساسي يقتضي من الباحث الالماس بالكثير من مظاهر النشاط النفسي التي يقوم بها الشخص في البيئة العادية

التي يحيا بين ظهرائها . وحينما يتسنى للباحث الوصول الى ادراك العلاقات القائمة بين شتى هذه المظاهر ، فهناك قد يكون في وسعه التحدث عن شخصية صاحبها بشيء من الدقة . ولئن كان ابن حزم — لحسن الحظ — قد زودنا بالكثير من المعلومات الدقيقة عن طفولته ، ونوع التربية التي تلقاها ، والطابع العام للبيئة التي نشأ فيها ، الا أن هذه المعلومات الهامة قد لا تكون كافية لتكوين صورة علمية دقيقة لشخصية امامنا الأندلسي الكبير . فاذا أضفنا الى ذلك أن دراسة الشخصية — اليوم — قد أصبحت دراسة تجريبية تقوم على طرق خاصة في القياس ، وأساليب دقيقة في التحليل الاحصائي ، أمكننا أن ندرك كيف أن الاقتصار على عرض السمات الأساسية أو الصفات الجوهرية لأي مفكر من المفكرين لا يمكن أن يرقى الى مستوى التحليل العلمي لشخصية هذا المفكر . ولو أننا حاولنا جمع أكبر قسط ممكن من المعلومات عن البتعد العقلي من أبعاد شخصية ابن حزم ، لكان في وسعنا أن نقول ان فيلسوفنا الأندلسي كان يتمتع بحافظة قوية مستوعبة ، وبديهة سريعة حاضرة ، وقدرة استدلالية هائلة . ولعل هذا ما حدا بتلميذه الحميدى الى القول بأنه : « ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ ^١ .. » . وقد أجمع كل مؤرخي سيرة ابن حزم على أنه كان يتمتع بذاكرة

(١) الذهبي : « تذكرة الحفاظ » (نقلا عن مقدمة الاستاذ عبد السلام

هارون لانساب العرب ، ص ٨) .

قوية ، وبديهة حاضرة ، كما اعترفوا له بسعة المعرفة ، وحدة الذكاء . وقد روى لنا الذهبي — في هذا الصدد — أن ابن حزم سمع يوماً أحدهم يقول : « أجل المصنفات الموطأ » ، فلم يكن منه سوى أن سرد على مسامع صاحب هذا القول وغيره من الحاضرين عشرات الأسماء من المصنفات القيمة والمؤلفات الجليلة في هذا الباب ^١ . وقد مر بنا من الشواهد الكثير على سعة علمه ، وقوة ذاكرته ، وسرعة بديهته . ولكن الذي يعنينا هنا أن ابن حزم لم يكن شخصاً عادياً في اطلاعه واستيعابه وحفظه ، وإنما كان شخصية فذة في قدرته على الفهم ، والتعلم والتحصيل .

والظاهر أن بعض العوامل الوراثية قد عملت على زيادة حظه من الذكاء ، ومضاعفة قدرته على التحصيل : فقد اجتمعت فيه سلالتان : أحدهما عربية ، والأخرى أعجمية (فارسية كانت أم إسبانية) ، فضلاً عن أنه كان ملماً بلغتين : العربية ، واللاتينية ، بدليل إشارته إلى هذه اللغة في كتابه « التقريب لحد المنطق والمدخل إليه » . ولعل هذا ما لاحظته أحد الباحثين حينما كتب يقول : « .. التقت في ابن حزم طبيعتان : أحدهما موروثة ، والأخرى مكتسوبة . وقد مكنت الموروثة للمكتسوبة أن تستشري ، فكان من هذا المزاج « ابن حزم » الناقد الحر

(١) سعيد الأفغاني : « ابن حزم الأندلسي ، ورسائله في المفاضلة بين

« الصحابة » ، ص ٤٤ - ٤٦

الجرىء ، ذو الأسلوب الجديد ، وصاحب النهج المبتدع ^١ .
واذا كانت قوة الملاحظة مظهراً من مظاهر الذكاء أو المقدرة
العقلية بصفة عامة ، فليس بدعاً أن نجد لدى ابن حزم ، الذى
قليل عنه انه كان صاحب ذكاء حاد ، مقدرة هائلة على الملاحظة ،
وحرصاً بالغاً على الكشف عن الأسباب فيما وراء المسببات .
فلم يكن ابن حزم يقنع برؤية الظواهر أو يكتفى بملاحظة
الوقائع ، وإنما كان يحاول دائماً الوقوف على أسبابها ، والكشف
عن عللها ، واثقاً من أن فى الطبيعة اطراداً مستمراً بين العلل
والمعلولات . وقد لاحظ بعض الباحثين ان ابن حزم لم يكن
يكتفى عند دراسته للفرق الاسلامية بدراسة آرائها ، ومعرفة
أدلتها ، وإنما كان يدرس أيضاً شتى البواعث النفسية
والاجتماعية التى جعلت الفرق تكثر وتتشعب ، مع اهتمامه فى
الوقت نفسه بالكشف عن البواعث التى جعلتها تختار تلك
الآراء ^٢ . وهو حين كان يدرس ظاهرة الحب ، لم يكن يقتصر
على ملاحظة أحوال المحبين ، ووصف عوارضهم وآفاتهم ، وإنما
كان يحاول أيضاً الاهتداء الى البواعث النفسية التى تكمن
من وراء أفعالهم وشتى مظاهر سلوكهم . ولعل من هذا القبيل
— مثلاً — ما لاحظته ابن حزم لدى المحبين من ازدواج عاطفى
يقوم على « تكافؤ الضدين » Ambivalence ، فنراه يصف لنا

(١) ابراهيم الابيارى : مقدمة « طوق الحمامة » ص (و) .

(٢) محمد ابو زهرة : « ابن حزم » ، ص ٦٨

هذه الظاهرة بما يدل على أنه قد فطن الى أن كل حب إنما يخفى وراءه كراهية في اللاشعور ... وهو يقول في ذلك بصريح العبارة : « افك لتجد المحين اذا تكافيا في المحبة وتأكدت بينهما تأكيداً شديداً ، أكثر بهما جدهما بغير معنى ، وتضادهما في القول تعمداً ، وخروج بعضهما على بعض في كل يسير من الأمور ، وتتبع كل منهما لفظة تقع من صاحبه ، وتأولها على غير معناها ... وبينما ترى المحين قد بلغا الغاية من الاختلاف الذي لا يقدر يصلح عند الساكن النفس ، السالم من الأحقاد ... فلا تلبث أن تراهما قد عادا الى أجمل الصحبة ، وأهدرت المعاتبة ، وسقط الخلاف ، وانصرفا في ذلك الحين بعينه الى المضاحكة والمداعبة ، هكذا في الوقت الواحد مراراً .. الخ (١) »

ويدخل في هذا الباب أيضاً ما لاحظته ابن حزم من أن سلوك المرأة يختلف كل الاختلاف (عن سلوكها العادي) ، حينما توجد في مجتمع مختلط به رجال ونساء ، فانها عندئذ تتكلف وتتصنع ، لشعورها بأنها مراقبة أو منظورة . وهذا ما عبر عنه ابن حزم بقوله : « وشيء أصفه لك تراه عياناً ، وهو أنى ما رأيت قط امرأة في مكان تحس أن رجلاً يراها أو يسمع حسنها الا وأحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل ، وأتت بكلام زائد كانت عنه في غنية ، مخالفين لكلامتها وحركتها قبل ذلك . ورأيت التهم لمخارج لفظها ، وهيئة قلبها ، لائحا فيها

(١) ابن حزم : « طوق الحمامة » ص ١٤

ظاهراً عليها لا خفاء به . والرجال كذلك اذا أحسوا بالنساء .
وأما اظهار الزينة ، وترتيب المشى ، وإيقاح المزح عند خطور
المرأة بالرجل واجتياز الرجل بالمرأة فهذا أظهر من الشمس في
كل مكان^١ .

ولا يتسع المقام للافاضة في شرح الشواهد العديدة على
حدة ذكاء ابن حزم ، وسرعة بديهته ، وقوة ملاحظته ، وإنما
حسبنا أن نحيل القارئ الى كتب المفكر الأندلسي الكبير
للتحقق بنفسه من صحة ما رواه المؤرخون عن هذه الشخصية
العربية الفذة . فاذا أضفنا الى ما تقدم أن ابن حزم لم يكن
يقنع بترديد آراء غيره ، أو الاقتصار على الأخذ عن السابقين
عليه ، أمكننا أن ندرك السر في حرصه على معاودة النظر في
المسائل لحسابه الخاص ، واهتمامه بالعمل على تفهم كل شيء
لنفسه وبنفسه . وليس أدل على استقلال ابن حزم في تفكيره
مما قاله هو نفسه في مقدمة كتابه «طوق الحمامة» : «والتزمت»
في كتابي هذا الوقوف عند حدك ، والاقتصار على ما رأيت
أو صح عندي بنقل الثقات ، ودعنى من أخبار الأعراب
والمتقدمين ، فسبيلهم غير سبيلنا ؛ وقد كثرت الأخبار عنهم ،
وما مذهبي أن أنضى مطية سواي ، ولا أتعلى بحلى مستعار^٢»
ولم يكن هذا الاستقلال الفكرى مجرد تعبير عن رغبة ابن حزم

(١) المرجع السابق : ص ١٢٥

(٢) ابن حزم : « طوق الحمامة » في الألفه والالاف « طبعة القاهرة ،

١٩٦٤ ، ص ٣

فى مخالفة السابقين ، أو سعيًا منه وراء الأصالة والتجديد ، وإنما كان نتيجة طبيعية لتلك العقلية المتفتحة الحرة التى لم تكن تركز إلا الى أوليات الحس ، وبديهيات العقل ، وما ارتد اليهما من براهين قاطعة . ولعل هذا ما عبر عنه ابن حزم بوضوح حينما قال : « لا بد لطالب الحقائق من أن يسمع حجة كل قائل ، فإذا أظهر البرهان ، لزمه الاقبياد والرجوع اليه ، والا فهو فاسق . والبرهان لا يجوز أن يعارضه برهان آخر . فالحق لا يكون شيئًا مختلفين ولا يمكن ذلك أصلاً ، والحق مبين فى الملل والديانات بموجب العقل ، والبراهين الراجعة الى أول الحس والضرورة^(١) » .

وقد يجد الناس أنفسهم أحياناً مدفوعين الى التباهى بلغتهم ، أو التفاخر بنسبهم ، أو الاعلاء من شأن جنسهم ، ولكننا نجد لدى ابن حزم — على العكس من ذلك — عقلية علمية ترفض مبدأ المفاضلة بين اللغات أو الأجناس أو السلالات . ولهذا نراه يقول : « توهم قوم فى لغتهم أنها أفضل اللغات . وهذا لا معنى له ، لأن وجوه الفضل معروفة ، وإنما هى بعمل أو اختصاص ، ولا عمل للغة ، ولا جاء نص فى تفضيل لغة على لغة . وقد قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ، ليعين لهم » ... وقد قال قوم : العربية أفضل

(١) « رسالة التلخيص لوجوه التلخيص » ، متضمنة فى كتاب : « الرد على ابن النفريلة ورسائل أخرى » ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، ١٩٦٠ ، القاهرة ، ص ١١٤

اللغات لأنه بها نزل كلام الله تعالى .. وهذا لا معنى له ، لأن الله عز وجل قد أخبرنا أنه لم يرسل رسولا الا بلسان قومه .. فبكل لغة قد نزل كلام الله تعالى ووحيه ، وقد أنزل التوراة ، والانجيل ، والزبور ، وكلم موسى عليه السلام بالعبرانية ، وأنزل الصحف على ابراهيم عليه السلام بالسريانية . فتساوت اللغات في هذا تساويا واحداً . « ١ . وكما تساوت اللغات ، كذلك تساوت الأجناس والسلالات ، فلا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى . وإذا لم يكن من حق الفرد أن يتباهى بجنسه أو نسبه أو سلالة ، فليس من حقه أيضاً أن يتباهى بعلمه أو ذكائه أو مواهبه . وفي ذلك يقول ابن حزم : « وان أعجبت بعلمك ، فاعلم أنه لا خصلة لك فيه ، وأنه موهبة من الله مجردة وهبك اياها ربك تعالى ، فلا تقابلها بما يسخطه ، فلمله ينسيك ذلك بعلة يمتحنك بها تولد عليك نسيان ما علمت وحفظت .. وليعلم ذو العلم أنه لو كان بالاكباب وحده ، لكان غيره فوقه . فصح أنه موهبة من الله تعالى ، فأى مكان للعجب ها هنا . ما هذا الا موضع تواضع وشكر لله تعالى ، واستزادة من نعمه ، واستعاذة من سلبها . « ٢ . وواضح من هذه العبارة أن ابن حزم كان يؤمن بأن مواهب الانسان العقلية هي عطايا الهية أو منحة ربانية ، فليس للانسان أن يفخر بها أو أن

(١) « الاحكام في اصول الاحكام » ، تحقيق الشيخ أحمد شاكر ، الجزء

الاول ، ص ٣٣ - ٣٤

(٢) ابن حزم : « مداواة النفوس » ، ص ٥٠ - ٥١

ينسب لنفسه الفضل فيها . وهو يروى لنا — في هذا الصدد — أنه أصيب في وقت ما من الأوقات بـعلة أثرت على ذاكرته ، فلم يكن يستطيع مداومة الحفظ ، ولكنه — لحسن الحظ — تمكن من التغلب على ذلك المرض ، فاسترجع حافظته ، واستعاد مقدرته على الاستيعاب .

وأما إذا انتقلنا الى الحديث عن العامل الثانى من عوامل بناء شخصية ابن حزم ، ألا وهو عامل التوازن العاطفى أو توافق الطاقات الانفعالية ، فسنجد أن فيلسوفنا الأندلسى كان يتميز بمزاج حاد عنيف ، وطبع عارم جارف . وليس من شك فى أن الظروف التى أحاطت به قد عملت على تأريث غضبه واشعال حماسه ، فكان من ذلك أن اكتسبت مناقشاته شيئاً من الحدة والقسوة والاندفاع . وعلى الرغم من أن ابن حزم كان يدعو الى مسالمة الناس والائتناس بهم ، إلا أن معاركه الفكرية مع الكثير من رجالات عصره قد خلقت منه مفكراً قاسياً عنيفاً ، حتى لقد قال عنه ابن العريف : « كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين . » ! ومع ذلك ، فاقنا نجد فى كتابات ابن حزم أحياناً روحاً تفيض بالبشر والمحبة والاخاء والمودة ، خصوصاً فى كتابه « طوق الحمامة » حيث نجد أنه يتحدث عن الكثير من الأصدقاء بروح اللطف والألفة والوداد والمحبة . وأغلب الظن أن يكون مزاج ابن حزم قد تأثر بذلك المرض الذى حدثنا هو نفسه عنه ، فقد ذكر لنا أنه أصيب بداء وكد الحدة فى خلقه ، وأفقده الاتزان والسكينة .. : « لقد

أصابتنى علة شديدة ، ولدت في ربوا في الطحال شديداً ، فولد ذلك على من الضجر ، وضيق الخلق ، وقلة الصبر ، والتزق ، أمراً جاشت نفسي فيه ، اذ أنكرت تبدل خلقى ، واشتد عجبى من مفارقتى لطبعى ، وصح عندي أن الطحال موضع الفرح ، واذا فسد تولد ضده .^١ . وابن حزم هنا يستبطن ذاته ، فيلاحظ ما طرأ عليها من تغير ، ويحاول تعليل هذا التغير بما أصابه من مرض ، واثقاً من أنه لا بد من أن يكون لكل معلول علة ، وبالتالي فانه لا بد من أن يكون المرض هو المسئول عن تبدل خلقه . ولسنا ندرى الى أى حد أصاب ابن حزم في تعليله ، وانما الذى نعلمه أن المفكر الأندلسي الكبير قد فطن هو نفسه الى ما أصاب توازنه العاطفى من خلل ، فراح يصم نفسه بالتزق والضجر وضيق الخلق ! وهكذا قدّم لنا ابن حزم الدليل الناصع على أنه لم يكن مجانباً للصواب حينما قال : « انى والله أعلم من عيوب نفسى أكثر مما أعلم من عيوب الناس وقصصهم » !^٢ . وكان ابن حزم ينتظر من الناس أن يكونوا صرحاء مع أنفسهم ، كما كان هو صريحاً مع نفسه ، ولكنهم كانوا يتخذون من صراحته ذريعة للطعن فيه والنيل منه ، بدلاً من أن يروا فيها حجة له ، لا عليه ! .. ومهما يكن من شيء ، فقد اتسمت علاقات ابن حزم بأهل عصره .

(١) المرجع السابق : ص ٥٤ .

(٢) ابن حزم : « رسالة التلخيص لوجوه التلخيص » ، تحقيق الدكتور

احسان عباس ، ص ١٧٦

من العلماء والفقهاء ورجال الكلام ، بطابع الخصومة والصراع
والعدوان ، وكان من ذلك أن تعرض اتزانة العاطفى للكثير
من الأخطار ، كما غلبت على أحكامه — فى بعض الأحيان —
شوائب الهوى والعاطفة والوجدان . وهذا ما حدا بالكثير من
خصومه الى اتهامه بالاندفاع ، والتهور ، والشطط ، وعناد
الرأى وطول اللسان^١ .

والواقع أن ما أطلق عليه بعض مؤرخى سيرة ابن حزم
« جهله بسياسة العلم » إنما هو فى الحقيقة صراحته فى الحق ،
وصرامته فى الدفاع عن رأيه ، وصلابته فى مواجهة أعدائه
وخصومه . ولا نرانا فى حاجة الى تكرار ما سبق لنا قوله من
أن ابن حزم كان شجاعاً فى الحق لا يخشى لومة لائم ، فلم
يكن يحسن المجاملة أو المصانعة أو الرياء ، وإنما كان يجاهر
برأيه حتى ولو أدى ذلك الى انصراف الأصدقاء عنه أو تأليبهم
عليه ، منتهجاً دائماً فى سلوكه منهجاً مستقيماً لا عوج فيه
ولا التواء . ولم يكن ابن حزم يبالى أمدحه الناس أم ذموه ،
وإنما كان يجتهد فى عمله ورأيه بكل اخلاص ، دون أن يعبأ
بما قد يجلبه عليه رأيه من أذى ، أو ما قد يسببه له عمله من
ضرر . وهو يروى لنا فى هذا الصدد أن عيسى عليه السلام
قال وقد سأله بعض الخواريين من المخلص : « المخلص من اذا
عمل خيراً لا يهتم أن يحمده الناس . » . وفى سبيل هذا

(١) الذهبى : « تذكرة الحفاظ » (نص أورده سعيد الأفغانى فى كتابه عن

« ابن حزم » ص ١٣٠/١٣١) .

الاخلاص ، تحمّل ابن حزم الكثير ، فقد تكتّل أعداؤه ، واجتمع الخاصة والعامة على تكفيره ، ولكنه مع ذلك لم يتراجع لحظة واحدة عما كان يعتقد — مخلصاً — أنه الحق ! ولا شك أن هذه الصلابة الفكرية هي التي عملت على تشويه سمعة ابن حزم ، حتى انتهى الأمر بخصومه الى استعداد الأمراء عليه ، فكان من ذلك أن مزقت كتبه وأحرقت علانية في اشبيلية ، كما مر بنا من قبل .

على أننا لو أنعمنا النظر الى البعد الاجتماعي من أبعاد شخصية ابن حزم ، لوجدنا أن فيلسوفنا الأندلسي الكبير لم يكن — كما وقع في ظن خصومه — شخصية عدوانية تميل دائماً الى تأكيد ذاتها بازاء الآخرين ، وتجاوز دائماً في سلوكها على الآخرين ! وآية ذلك أننا نجد لدى ابن حزم وفاء عجيماً لأصدقائه ، وتمسكاً قوياً بحبال المودة . وهو يصف لنا هذه الخصلة فيقول : « لقد منحني الله عز وجل من الوفاء لكل من عيت اليّ بقلية واحدة ، ووهبني من المحافظة لمن يتدمم مني ولو بمحادثته ساعة حظاً أفا له شاكر وحامد ، ومنه مستمد ومستزيد . وما شيء أثقل عليّ من الغدر . ولعمري ما سعت نفسي قط في الفكرة في اضرار من بيني وبينه أقل ذمام ، وان عظمت جريرته ، وكثرت اليّ ذنوبه . ولقد دهمني من هذا غير قليل ، فما جزيت على السوء الا بالحسنى . »^١

(١) « طرق الحماة » ، طبعة القاهرة ، ص ٨٢

ولا شك أن وفاء ابن حزم لأصدقائه — على الرغم من الأزمات التي مر بها والمكارة التي كابدها ، إنما هو الدليل القاطع على نيل أخلاقه وحسن عشرته . وهو نفسه يصف لنا هذا الوفاء في موضع آخر فيقول انه « وفاء لا يشوبه تلون ، قد استوت فيه الحضرة والمغيب ، والباطن والظاهر ، تولدته الألفة التي لم تعزف بها نفسى عما دريته ، ولا تتطلع الى عدم من صحبته ... وانى لأجفى فأحتمل ، وأستعمل الأناة الطويلة والتلوثم الذى لا يكاد يطيقه أحد ، فاذا أفرط الأمر ، وحميت نفسى ، تصبرت وفى القلب ما فيه ... »^١ . وأما فى مجال الحب ، فإن ابن حزم كان مثالا للوفاء ، فانه ليروى لنا أنه أحب في صباه جارية نشأت فى دار أهله ، وكانت غاية فى الحسن والجمال ، فم استطاع أن يظفر منها يوماً بنظرة واحدة أو لفظة واحدة ! وانتقلت أسرته من قرطبة الشرقية الى قرطبة الغربية ، ولم تنتقل تلك الجارية معهم لأمر أوجبت ذلك ، ثم كان أن التقى بها بعد ذلك بسنوات فى مأتم من المآتم ، فتذكر العهد القديم والحب التليد ! وهو يصف لنا وفاءه لهذه الجارية ، فيشعر القارئ بأنه كان صادقاً حقاً فى حبه ، وفياً مخلصاً فى عاطفته ، لا يعرف التحول أو التقلب ، ولا ينسى العهد أو المودة !^٢ .

بيد أن ابن حزم حين يحدثنا عن وفائه ، فانه يقرن هذه الفضيلة بخصلة أخرى ، فيقول : « دعنى أخبرك أنى جئلت

(١) المرجع السابق : ص ١١٥ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٠٩ - ١١٤ .

على طبيعتين لا يهنئني معهما عيش أبداً ، واني لأبرم بحياتي ،
باجتماعهما ، وأود التثبت من نفسي أحياناً ، لأفقد ما أنا بسببه
من النكد من أجلهما وهما : وفاء لا يشوبه تلوُّثٌ ... وعزّة
نفس لا تقر على الضيم ، مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغشّر
المعارف ، مؤثرة الموت عليه . فكل واحدة من هاتين السجيتين
تدعو الى نفسها ... وفي ذلك أقول قطعة منها :

لى خلتان أذاقاني الأسى جرّعا

ونقصنا عيشتى واستهلكا جلكدى

كلتاهما تطبيني نحو جبيلتها

كالصيد ينشب بين الذئب والأسد

وفاق صدق فما فارقت ذا مقّة

فزال حزنى عليه آخر الأبد

وعزّة لا يحلّ الضيم ساحتها

صرامة فيه بالأموال والولد^١

والم تأمل في عبارات ابن حزم يشعر بأنه يقيم ضرباً من
التعارض بين هاتين الخلتين : خلة الوفاء ، وخلة عزّة النفس ،
فقد كان الوفاء عنده بمثابة اخلاص للغير ، ومحافضة على العهد ،
وابقاء على النود ، في حين كانت عزّة النفس عنده بمثابة اعتداد
بالنفس ، واحترام لحقوق الذات ، وتقديس للكرامة الشخصية.
وليس بدعاً أن نجد لدى ابن حزم احساساً قوياً بالاعتزاز

(١) « طوق الحمامة » طبعة القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١١٤ - ١١٥

والاعتداد بالنفس : فقد حبله الله من كرم الأصل ، وعلو الهمة ،
بوسمو المواهب ، ويسار العيش ، ما جعله يحتفظ دائماً باستقلاله
المادى والروحى ، فاستغنى عن الناس ، ولم يكن فى حاجة الى
التراعى على أبواب الخلفاء والأمراء ! ولو أننا فهمنا « الوفاء »
على أنه صورة من صور « الحب » ، ونظرنا الى « عزة النفس »
على أنها مظهر من مظاهر التمسك بحقوق الذات أو الذود عن
الكرامة الشخصية ، لكان فى وسعنا أن نقول ان هذا
الاستقطاب الحاد الذى قام فى نفس ابن حزم بين الوفاء وعزة
النفس ، هو الذى أشاع فى نفسه ذلك التوتر العنيف الذى
أشرنا اليه آنفاً بين قطب « الحب » وقطب « الحرب » ، فأحال
حياته النفسية الى ضرب من التمزيق الباطنى الأليم .

والظاهر أن نفس ابن حزم كانت تميل دائماً الى الاستقرار ،
وتنزع باستمرار نحو الهدوء ، ولكن ظروفه قد اضطرتة الى
التنقل والتغير والتحول ، فكان من ذلك أن نشأ فى نفسه
احساس قوى بالتوتر بين ما هو كائن ، وما ينبغى أن يكون ،
أو بالأحرى ما كان يريد له أن يكون ! وهو يصف لنا حبه
للاستقرار فيقول : « .. وان حنينى الى كل عهد تقدم لى
ليغصنى بالطعام ويشرقنى بالماء ، وقد استراح من لم تكن
هذه صفته .. وما مكلت شيئاً قط بعد معرفتى به ، ولا أسرع
الى الأوس بشيء قط أول لقائى له ، وما رغبت فى الاستبدال
الى سبب من أسبابى مذ كنت ، لا أقول فى الآلاف والاحوان
وخدمهم ، لكن فى كل ما يستعمل الانسان من ملبوس ومركوب

ومطعوم وغير ذلك .. ولقد نغص تذكرى ما مضى كل عيش
أستأنفه ، وانى لقتيل الهموم فى عداد الأحياء ، دفين الأسى بين
أهل الدنيا ... »^١ . وواضح من هذه العبارات أن ابن حزم
يترجع شعوره بالهم والأسى الى وفائه للأشخاص والأشياء ،
وألقته للأحبة والديار ، وكأنما هو يحن الى الهدوء والاستقرار ،
متحسراً على ما أصاب آماله من انهيار ، متبرماً بحياة متحولة
متبدلة لا يقر لها قرار !

وقد يعجب القارىء حين يرانا نستند فى الحكم على
شخصية ابن حزم الى ما ورد على لسانه من اعترافات ، أو ما
نسبه هو الى نفسه من صفات ، ولكن الحقيقة أن أحداً من
مؤرخى سيرته — حتى من بين خصومه أنفسهم — لم يطعن
فى نزاهته ، ولم يجرؤ على تكذيبه . ولم يكن من الغريب على
ابن حزم المؤرخ أن يتصف بصفة الصدق ، فان رأس مال
المؤرخ النزاهة إنما هو الصدق فى الرواية ، وتوخى الدقة فى
تحرى الوقائع ، واختيار الرواية الصائبة بعد الفحص والنظر
والمقارنة . وكل هذه المميزات قد توافرت فى ابن حزم المؤرخ ،
فقد كان يدقق النظر فى النص المنقول ، ويتحرى الصحة فى
الرواية المختارة ، ولا يقطع برأى الا بعد التأكد من صحته ،
حتى لقد كان تلميذه الحميدى لا يفتأ يقول كلما وجد رواية

(٢) المرجع السابق : ص ٢٥ . (وانظر أيضا كتاب : « ابن حزم الأندلسى
ورسالته فى المفاضلة بين الصحابة ، للأستاذ سعيد الأفغانى ، دمشق ، ١٩٤٠ ،
ص ١٢٤ - ١٢٦) .

نُستأذه تخالف غيره : « وأبو محمد أعلم بالتواريخ ، أو كلاماً بهذا المعنى . » ^١ . وان ابن حزم ليحمل بشدة — في أكثر من موضع — على رذيلة الكذب ، فان الكذب في رأيه أصل كل فاحشة ، وجامع كل سوء ، وجالب لمقت الله عز وجل . وهو يصارحنا بمقتته للكذب والكذابين فيقول : « .. ما أحببت كذاباً قط ، واني لأسامح في اخاء كل ذي عيب وان كان عظيماً ، وأكبل أمره الى خالقه عز وجل ، وآخذ ما ظهر من أخلاقه ، حاشي من أعلمه يكذب ، فهو عندي ماح لكل محاسنه ، ومثقف على جميع خصاله ، ومذهب كل ما فيه ، فما أرجو عنده خيراً أصلاً . وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه ، وكل ذام فقد يمكن الاستتار به ، والتوبة منه ، حاشي الكذب فلا سبيل الى الرجعة عنه ولا الى كتمانته حيث كان . وما رأيت قط ، ولا أخبرني من رأى ، كذاباً ترك الكذب ولم يعد اليه ، ولا بدأت قط بقطيعة ذي معرفة الا أن أطلع له على الكذب ، فحينئذ أكون أنا القاصد الى مجانبته والمتعرض لمتاركته .. » ^٢ .

وابن حزم يروى لنا الكثير من الأحاديث النبوية في النهي عن الكذب ، فيقول ان الرسول عليه الصلاة والسلام سئل يوماً هل يكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال : نعم . قيل : فهل يكون المؤمن جباناً ؟ ، فقال : نعم . قيل : فهل يكون المؤمن كذاباً ؟ قال :

(١) احسان عباس وناصر الدين الأسد : مقدمة « جوامع السيرة » لابن

حزم ، دار المعارف ، ١٩٥٦ ، (بعنوان : « ابن حزم والسيرة النبوية ») ص ١٠

(٢) ابن حزم : « طوق الحمامة في الالف والالاف » ، ص ٥٥

لا ... وقال أيضاً — صلوات الله عليه — في حديث سئل فيه : « لا خير في الكذب » . وروى أنه أتاه صلى الله عليه وسلم رجل فقال : يا رسول الله ، انى أستتر بثلاث : الخمر والزنا والكذب ، فمرنى أيها أترك . قال : اترك الكذب . فذهب منه ، ثم أراد الزنا ففكر فقال : آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألنى : أزنيت ؟ فان قلت : نعم ، حدةً نى ، وان قلت : لا ، قهضت العهد ، فتركه . ثم كذلك في الخمر . فعاد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله انى تركت الجميع . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً أنه قال : ثلاث من كن فيه كان منافقاً : من اذا وعد أخلف ، واذا حدث كذب ، واذا أؤتمن خان .^١

وابن حزم يعرف الصدق والكذب في موضع آخر فيقول : « الصدق هو الاخبار عن الشيء بما هو عليه ... والكذب هو الاخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه . »^٢ . وتبعاً لذلك فان الكفر — في نظره — هو صورة من صور الكذب ، لأنه اخبار عن الله بخلاف ما هو عليه ؛ وهل الكفر الا كذب على الله عز وجل ، والله الحق وهو يحب الحق ، وبالحق قامت السموات والأرض .^٣

ولا يكتفى ابن حزم ببيان ما يحق بالفرد من أضرار بسبب

(١) المرجع السابق : ص ٥٦ — ٥٧

(٢) ابن حزم : « الاحكام في اصول الاحكام » ج ١ ، ص ١

(٣) « طوق الحمامة » : ص ٥٧

كذب ، بل هو يؤكد أيضاً أن للكذب عواقب وخيمة علوي
لجتمعات ، « فما هلكت الدول ، ولا هلكت الممالك ، ولا
سُفكت الدماء ظلماً ، ولا هتكت الأستار ، بغير النمائهم
الكذب ، ولا أكدت البغضاء والاحن المردية الا بنمائهم لا
حظي صاحبها الا بالملت والحزى والذل . » ^١ . ولا شك أن
خبرات ابن حزم الخاصة قد جاءت مؤكدة لهذه الحقيقة : فانا
نعرف أن الكثير من الولايات التي حاقت به قد كانت نتيجة
لموشايات التي قام بها بعض خصومه من الناقمين عليه ،
لمتربصين به الدوائر . وهذا ما رواه لنا ابن حزم نفسه حينما
قال : « انقطعت دولة بني مروان ، وقتل سليمان الظافر أمير
المؤمنين ، وظهرت دولة الطالبية ، وبويع على بن حمود الحسنى ،
المسمى بالناصر بالخلافة ... وفي أثر ذلك فكبنى خيران صاحب
المرية ، اذ قل اليه من لم يتق الله عز وجل من الباغين — وقد
انتقم الله منهم — عنى وعن محمد بن اسحاق صاحبى ، أنا نسعى
في القيام بدعوة الدولة الأموية فاعتقلنا عند نفسه أشهراً ، ثم
أخرجنا على جهة التغريب ، فصرنا الى حصن القصر ... » ^٢ .
على أن تعلق ابن حزم بالصدق ، وتقوره من الكذب ،
وازدراءه للنميمة ، لم تكن مجرد خصال خلقية فيه ، وانما كانت
أيضاً طباعاً متأصلة في شخصيته كعالم وفقه . وليست نزعة
ابن حزم الظاهرية سوى مظهر من مظاهر اعتداده بالواقع ،

(١) « طوق الحمامة » ص ٥٧

(٢) المرجع السابق : ص ١١٨

وتمسكه بالنص ، ونفوره من تجاوز الظاهر . والحق أن ابن حزم كان يتمتع بعقلية واقعية تحترم الحقيقة ، وتزدرى الخرافة ، وتجزع من الاسراف في الخيال ، فنحن نجد يعتد بأوليات الحس والعقل ، ويرفض شطحات الصوفية ، وينفر من أخيلة الشعراء ومبالغاتهم . ولهذا نجد يعتذر — في ختام كتابه « طوق الحمامة » — عما أورده من مبالغات وتهاويل فيقول : « ولم أمتنع أن أورد لك في هذه الرسالة أشياء يذكرها الشعراء ، ويكثرون القول فيها ، موفيات على وجوها ، ومفردات في أبوابها .. مثل الافراط في صفة النحول ، وتشبيه الدموع بالأمطار وكأنها تروى السقار ، وعدم النوم ألبتة ، واقطاع الغذاء جملة ، إلا أنها أشياء لا حقيقة لها ، وكذب لا وجه له . ولكل شيء حد ، وقد جعل الله لكل شيء قدراً . والنحول قد يعظم ، ولو صار حيث يصفونه لكان في قوام الذرة أو دونها ، ولخرج عن حد المعقول . والسهر قد يتصل ليالى ، ولكن لو عدم الغذاء لهلك ... الخ »^١ . وهذه النزعة الواقعية التي ترفض الخيال ، وتنفر من اللامعقول ، هي التي أملت على ابن حزم استنكار الشطحات الصوفية ، وتشديد النكير على أوهام بعض أصحاب التصوف ممن كان « يمشي في صورة مجنون يتبعه الصبيان بالحجارة حتى يدموا قدميه »^٢ !

(١) المرجع السابق : ص ١٥٢ — ١٥٣

(٢) « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ج ٤ ، ص ٢٢٦ — ٢٢٧

ولهذا فقد كرم ابن حزم فصلا من كتابه « الفصل في الملل والأهواء والنحل » للتنديد بأقاويل بعض الصوفية ممن كانوا يزعمون أنه قد سقطت عنهم الشرائع كلها من صلاة وصيام وزكاة وغير ذلك وأنه قد حلت لهم المحرمات كلها من الزنا والخمر وغير ذلك ، فاستباحوا بذلك نساء غيرهم ، وقالوا انهم يرون الله ويكلمونه وان الله يقذف في نفوسهم الحق .. الخ . ولا شك أن ابن حزم حين رفض كل هذه الأوهام ، وحينما حمل بشدة على أمثال تلك الانحرافات ، إنما كان يصدر عن نزعة الواقعية العقلية التي كانت تملئ عليه الاعتداد بأوليات الحس والعقل . وعلى حين قال قوم انه لا يُعلم شيء الا بالالهام ، وقال آخرون لا يُعلم شيء الا بقول الامام ، وقال غيرهم لا يُعلم شيء الا بالخبر ، وقال آخرون أيضا انه لا يُعلم شيء الا بالتقليد ، نجد ابن حزم يؤكد أنه لا شيء الا ما قامت عليه حجة العقل ^١ .

ولسنا هنا بمعرض الحديث عن منهج ابن حزم العقلي (فذلك ما سنعود اليه بالتفصيل في الباب الثاني من كتابنا هذا) وإنما نحن هنا بازاء الحديث عن أهم الخصائص النفسية والعقلية التي اتسمت بها شخصية ابن حزم . وقد رأينا كيف أخذ ابن حزم نفسه بفضيلة الصدق ، وكيف اتخذ من العقل رائداً له في كل أقواله وأفعاله . ولا غرو فقد كان فيلسوفنا مؤمناً أشد

(١) « الاحكام في اصول الاحكام » ج ١ ، ص ٢٣

الایمان بأن « کلام الانسان من عمله ^١ » ، فلم یکن یری فی « القول » نفسه سوى مجرد سلوك عملی یکشف عن صاحبه ، مثله فی ذلك کمثل أى فعل آخر . ولعل هذا هو السبب فیما فلمحه لدى ابن حزم من دقة فی التعبير ، ووضوح فی الفكرة ، وحرص بالغ علی اجتناب الغموض والتعقید : فقد كان فیلسوفنا أعلم الناس بما قد یسببه الحدیث الغامض من شغب أو التباس ، كما كان فی الوقت نفسه أحرص الناس علی توصیل معانیه الی أذهان السامعین أو القراء دون عوج أو التواء ! وإذا كان أسلوب الشخص هو الشخص نفسه ، فلیس بدعاً أن نجد فی أسلوب ابن حزم انعکاساً لایمانه بالعقل ، وتعلقه بالوضوح ، وتفوره من التعقید ، وحرصه علی سلامة التعبير .

وکما كان ابن حزم مستقیم الرأی ، صریح العبارة ، سلیم الفكرة ، فکذلك كان أیضاً فی سلوكه العملی عقیف النفس ، طاهر الذیل ، بریء الساحة . وعلى الرغم من أن ابن حزم كان أعرف الناس بضعف الانسان ، وعجزه عن السيطرة علی شهوته ، فانه مع ذلك كان یعترف بأن الله قد عصمه من ارتکاب المعصية . ونحن نعرف کیف عاش فیلسوفنا فی وسط عامر بالاختلاط ، حافل بأسباب الغواية ، فلم یکن من السهل علی مثله توقی الاغراء ، والانتصار علی دواعی الخطیئة ، لولا توفیق من الله وهدایة من المولی عز وجل . ولهذا فجدده یقول :

(١) « طوق الحملة » ص ١٥٢

« يعلم الله — وكفى به عليماً — أنى برىء الساحة ، سليم الأديم ، صحيح البشرة ، تقى الحجزه ، وانى أقسم بالله أجل الأقسام انى ما حلت متزرى على فرج حرام قط ، ولا يحاسبنى ربى بكبيرة التزنى منذ عقلت الى يومى هذا ^١ » ، فلا نملك سوى الاعجاب بهذه الصفة النادرة ، وذلك الصلاح العجيب ، فى بيئة كانت تدعو الى الفساد ، وتحض على السقوط ! وان ابن حزم ليروى لنا فى حديثه عن المعصية أن لدى الانسان قوتين متصارعتين : قوة العقل وقائدها العدل ، وقوة النفس ، وقائدها الشهوة . ولم يكن من الغريب على فيلسوف أعمال عقله فى كل شىء ، أن ينجح أيضا فى تغليب عقله على شهوته ، وتحكيم ارادته فى هواه . وما جاءت الشرائع بتحريم الزنا الا لما فيه من « اباحة الحريم ، وافساد النسل ، والتفريق بين الأزواج ... مما لا يهون على ذى عقل ، أو من له أقل أخلاق ^٢ » . فلا غرابة بعد ذلك فى أن نجد علم ابن حزم وعماله يتلاقيان ، وكأنما هو قد أراد أن يقدم لنا الدليل العملى على أن العالم الحقيقى انما هو ذلك الذى يعمل بعلمه ، مثله فى ذلك كمثل الشجرة المثمرة التى تؤتى أكلها كل حين ! ... حقا ان التجربة لتدلنا — مع الأسف — على « أن الفضائل مستحسنة ومستثقلة ، كما أن الرذائل مستقبحة ومستحبة ^٣ » ، ولكن

(١) المرجع السابق : ص ١٢٦

(٢) المرجع السابق : ص ١٢٩

(٣) « مداواة النفوس » : ص ٦٦

مهمة الفيلسوف انما تنحصر — على وجه التحديد — في اظهار
الناس على أن الاستحسان والاستقباح لا يكونان باللفظ
فقط ، وانما يكونان بالعمل أيضا . وقد استطاع ابن حزم أن
يقدم للناس من دلائل العفة ، والنورع ، والطهر ، والصلاح ،
ما جعل أعداءه يعترفون له — قبل أصدقائه — بنقاء السيرة ،
وحسن السيرة !

ولو شئنا الآن أن نلخص أهم السمات التي تميزت بها
شخصية ابن حزم ، لكان في وسعنا أن نقول مع المستشرق
الأسباني بالنشيا : « كان ابن حزم رجلا صادقا مخلصا قويا ،
ذا ديانة وحشية وسؤدد . وكان يؤمن بأن سلامة العقيدة
والشرف فوق الحياة نفسها ، وكان مخلصا لأصحابه يتفانى في
سبيلهم ، لدودا في خصومته ، لا يصفح ولا ينسى ثأره ، ولوعا
بالسخرية من خصومه ، شديد الاعتداد بما أوتى من علم ،
وكان كريما عفيفا وسطا في إيمانه : لا هو ساذج يقبل كل شيء ،
ولا هو متشدد لا يقبل إلا حكم العقل ، بل هو أقرب الى
العقلين منه الى العاطفين ، كما يقول آسين پلاسيوس : « لأن
مزاجه الذي جمع بين الهدوء والرزانة والنفاذ والصلابة
والقدرة على قبول الحقائق الجافة ، جعله بمنأى عن الاستغراق
في فيوض الحياة الروحية ^١ » . وهكذا نمود فنقرر أن الغلبة في
شخصية ابن حزم كانت للفيلسوف على الشاعر ، حتى انما

(١) بالنشيا : « تاريخ الفكر الاندلسي » ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ،

لنجدده يأخذ على الشعراء مبالغتهم وأخيلتهم التي لا تطابق الواقع ، كما يحذر في الوقت نفسه من الإفراط في استعمال المجازات والتشبيهات وضروب البلاغة اللفظية . ومن هنا فقد اتسمت أشعار ابن حزم بطابع الواقعية والعمق وعدم التكلف ، كما كانت تصف لنا الكثير من الأحاسيس العميقة والمشاعر الصادقة ، دون صَنعة أو مبالغة أو اسراف ! ولكن شخصية ابن حزم لم تتجل فقط في قصائده العاطفية المفعمة بالمشاعر الحارة المشبوبة ، وإنما هي قد تجلت أيضا في أشعاره الفلسفية التي استطاع فيها أن يبلغ أعلى قمم التجريد الذهني كقوله :
أمن عالم الأملاك أنت أم انسى

أبن لي فقد أزرى بتميزي العي
أرى هيئة انسانية ، غير أنه
إذا أعْمِلَ التفكير فالجرم علوي
تبارك من سوي مذهب خلقه
على أنك النور الأنيق الطبيعي
ولا شك عندي أنك الروح ساقه
الينا مثال في النفوس اتصالي
عَدِ متنا دليلا في حدوثك شاهدا
تقيس عليه ، غير أنك مرئي
ولولا وقوع العين في الكون لم هل
سوى أنك العقل الرقيق الخفي^١

(١) « طوق الحمامة في الالف واللاف » طبعة القاهرة ، ص ١٠

وهو نفسه يروى لنا آياتا من قصيدة له سماها بعضهم
« الادراك المتوهم » فيقول :

تري كل ضده قائما
فكيف تحده اختلاف المعاني
فيأيتها الجسم لا ذا جهات
ويا عرّضا ثابتا غير فان
قضت علينا وجوه الكلام
فما هو مذكّر تحت بالمستبان^١

ولسنا هنا بمعرض الحديث عن شعر ابن حزم ، وإنما حسبنا
أن نكون قد أعطينا القارئ صورة سريعة لشخصية ابن حزم
على نحو ما تجلت في أخباره ، وأفكاره ، وأشعاره . وسنرى
فيما بعد عند الحديث عن مذهب ابن حزم كيف عمل مزاجه
العقلي على تحديد معالم فقهه الظاهري ، وكيف أدى إيمانه
بأوائل الحس والعقل الى رفض التصوف وبذ القول بالكرامات
والخوارق . ولما كان من الضروري لنا أن نقف على منهج ابن
حزم في الدراسة والبحث ، فسنعرض أولا لوجهة نظره في
المنطق ، حتى نلهم بالموقف الذي اتخذه من الطرق الاستدلالية
التي كانت متبعة في « علوم الأوائل » .

(١) المرجع السابق ، ص ١٠

الباب الثاني

ابن حزم المفسر

المفصل الأول

ابن حزم المنطقي

لو أننا استقرينا موقف مفكرى الاسلام من علوم الأوائل ،
خصوصا فى القرنين الرابع والخامس الهجريين ، لوجدنا أن
الكثيرين منهم قد ثاروا على الفلسفة عموما ، والمنطق على وجه
التخصيص . « وقد ظهر الكفاح ضد المنطق فى صورة معارضة
خطيرة كل الخطورة ، فاعتبر الاعتراف بطرق البرهان
الأرسطائية خطراً على صحة العقائد الإيمانية ، لأن المنطق
يهددها تهديداً جديداً كبيراً . وعن هذا رأى عبر الشعور العام
لدى غير المثقفين فى هذه العبارة التى جرت مجرى
المثل : « من تَمَنَّى تَرَ تَدَق »^١ . وهكذا حمل
الكثير من أهل السنة على الفلسفة ، واعتبروا الاشتغال
بالم منطق خروجاً على الدين . وكانت حججهم فى ذلك
أن الفلسفة شر ، والمنطق مدخل الفلسفة ، ومدخل الشر شر ،
فالمنطق إذن شر ! ونحن نعرف كيف أن أبا الوليد الباجي

(١) جولدسيهر : « موقف أهل السنة القدماء بأزاء علوم الأوائل » ،
بحث منشور بكتاب « التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية » ، ترجمة الدكتور
عبد الرحمن بدوى ، القاهرة ، ١٩٤٠ ، ص ١٤٧

— خصم ابن حزم المشهور — قد نصب نفسه عدواً للمنطق ، وكيف أنه أفتى بعدم جواز قراءته الا لبيان فساد ، فضلا عن أنه هو الذي قهر الى أهل الأندلس أن المنطقى ببغداد « مستحق مستضعف ^١ » وقد ذكر لنا ابن حزم نفسه أنه رأى « طوائف من الخاسرين شاهدهم أيام عثفوان طلبه ، وقبل تمكن قواه في المعارف ... كانوا يقطعون بظنوتهم الفاسدة ، من غير يقين أتتجه بحث موثوق به ، على أن الفلسفة وحدود المنطق منافية للشرعة ^٢ » . ونحن نستنتج من هذه العبارة أن اشتغال ابن حزم بدراسة الفلسفة والمنطق قد بدأ في مرحلة مبكرة من مراحل تطوره الفكرى ، مما يؤيد قول صاعد الأندلسى : « وكان ابنه الفقيه أبو محمد وزيراً لعبد الرحمن المستظهر ... ثم نبذ هذه الطريقة ، وأقبل على قراءة العلوم ، وتقييد الآثار والسنن ، فعنى بعلم المنطق ... وأوغل بعد هذا في الاستكثار من علوم الشرعة ^٣ » . وليس بدعا أن يكون المنطق من أول العلوم التى أقبل على دراستها ابن حزم ، فإنا نلمح فى معظم دراساته الفقهية ، والكلامية ، والتاريخية ، والنفسية ، وغيرها ، عقلية منطقية تعرف كيف تستنتج النتائج

(١) سعيد الأفغانى : مقدمة « ملخص ابطال القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل » لابن حزم طبعة جامعة دمشق ، ١٩٦٠ ، ص ١٢ (الهامش) .
(٢) ابن حزم : « التقريب لحد المنطق والمدخل اليه » ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، بيروت ، ص ١١٥ - ١١٦ .
(٣) صاعد الأندلسى : « طبقات الأمم » الطبعة اليسوعية ، بيروت ، ١٩١٢ ،

من المقدمات ، ولا يستخفها اتحاد النتائج اذا اختلفت المقدمات ،
ولا ترضى الا بالدقة والصرامة فيهما كليهما .

ونحن نجد ابن حزم — في تضاعيف مؤلفه الشهير المسمى
بالفصل في الملل والأهواء والنحل — يدافع عن كل من الفلسفة
والمنطق فيقول : « ان الفلسفة على الحقيقة انما معناها ، وثمرتها ،
والغرض المقصود نحوه بتعلمها ، ليس هو شيئا غير اصلاح
النفس ... وهذا نفسه لا غيره هو الغرض في الشريعة . هذا
ما لا خلاف فيه بين أحد من العلماء بالفلسفة ، ولا بين أحد
من العلماء بالشريعة ... (اللهم الا) لمن اتمى الى الفلسفة
بزعمه ، وهو ينكر الشريعة بجهله على الحقيقة بمعانى الفلسفة ،
وبعده عن الوقوف على غرضها ومعناها ^١ » ... وواضح من
هذا النص أن ابن حزم لا يرى داعيا لمعاداة الفلسفة : فان غاية
الفلسفة الحقيقية انما هي الحكمة العملية — أو اصلاح النفس —
وتلك الغاية بعينها هي غاية الشريعة ، فلا تعارض اذن بين
الاثنتين ^٢ . وأما عن المنطق ، فان ابن حزم أعرف الناس بقيمته ،
اذ نراه يقرر بصراحة أن « الكتب التى جمعها أرسططاليس فى
حدود الكلام ... كلها كتب سالمة مفيدة ، دالة على توحيد الله
عز وجل ، وقدرته ، عظمة المنفعة فى انتقاد جميع العلوم .
وعظم منفعة الكتب التى ذكرنا فى الحدود : ففى مسائل الأحكام

(١) ابن حزم : « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » ، الجزء الاول ، ص ٦٤

(٢) جولدسيهر : البحث المشار اليه فى « التراث اليونانى فى الحضارة

الإسلامية » ، ص ١٥١ - ١٥٢

الشرعية بها يتعرف كيف التوصل الى الاستنباط ، وكيف تؤخذ
الألفاظ على مقتضاها ، وكيف يعرف الخاص من العام ، والمجمل
من المفسر ، وبناء الألفاظ بعضها على بعض ، وكيف تقديم
المقدمات ، وإنتاج النتائج ، وما يصح من ذلك صحة ضرورية
أبداً ، وما يصح مرة ، وما يبطل أخرى ، وما لا يصح البتة ،
وضرب الحدود التي من شذ عنها ، كان خارجا عن أصله ،
ودليل الخطاب ، ودليل الاستقراء ، وغير ذلك مما لا غناء
بالفقيه المجتهد لنفسه ولأهل ملته عنه ^١ .

وقد سبق لنا أن أشرنا الى أن ابن حزم ألف كتابا في المنطق
أطلق عليه اسم « التقريب لحد المنطق والمدخل اليه » ، وهو
الكتاب الذي أشار اليه هو نفسه عدة مرات في مؤلفه الضخم
المسمى باسم « الفصل » ، وقال عنه أحد الباحثين : « .. انه
سلك في بيانه ، وإزالة سوء الظن عنه ، وتكذيب المخترقين به ،
طريقة لم يسلكها أحد قبله فيما علمناه ^٢ » . وقد حدثنا عن
هذا الكتاب أيضا صاعد الأندلسي فقال في معرض حديثه عن
ابن حزم : « فعنى بعلم المنطق ، وألف فيه كتابا سماه التقريب
لحدود المنطق ، بسط فيه القول على تبين طرق المعارف ،
وإستعمل فيه أمثلة فقهية ، وجوامع شرعية ، وخالف
أرسططاليس ، ووضح هذا العلم ، في بعض أصوله ، مخالفة من

(١) ابن حزم : « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، الجزء الثاني ، ص ٩٥

(٢) الحميدى : « جدوة النفس » ، طبعة مصر ، ١٩٥٢ ، ص ٢٩١

لم يفهم غرضه ، ولا ارتاض في كتبه ، فكتابه من أجل هذا كثير الغلط ، بيثن السقط ^١ .

ولئن كان ابن حيان — معاصر ابن حزم — لم يشر الى كتاب « التقريب » ، الا أننا نراه يتحدث عن خروج ابن حزم على قواعد المنطق الأرسططالى فيقول : « كان أبو محمد حامل فنون : من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب ، مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة ، وله في بعض تلك الفنون كتب كثيرة ، غير أنه لم يَخلُ فيها من الغلط والسقط ، لجرأته في التسوُّر على الفنون ، لا سيما المنطق ، فانهم زعموا أنه زل هنالك ، وضل في سلوك تلك المسالك ، وخالف أرسططاليس واضعه ، مخالفة من لم يفهم غرضه ، ولا ارتاض في كتبه ^٢ » .

والحق أننا لو أنعمنا النظر الى كتاب ابن حزم في المنطق ، يل الى سائر كتبه ورسائله ، لوجدنا أنه كان مؤمنا أشد الايمان بجدوى الفلسفة ، وفائدة المنطق ، فلم يكن من المستغرب على رجل مثله أن يعمد الى تبسيط المنطق الصورى ، وتوضيح مستغلِّقه ، وتقريب معانيه الى أفهام السواد الأعظم من الناس . والواقع أن منطق أرسطو كان يَعد في أيام ابن حزم

(١) صامد الاندلسي : « طبقات الامم » ، الطبعة اليسوعية ، بيروت ، ١٩١٢ ،

ص ٧٦

(٢) ياقوت الحموى : « معجم الادباء » ، طبعة القاهرة ، ج ١٢ ، ص ٢٤٧ ،

« والذخيرة » لابن بسام ، ج ١ ، ص ١٤٠

من أصعب العلوم وأعقدها ، لا لغموض الترجمة العربية والتباسها
فحسب ، بل ولتعدد رموزه وكثرة مصطلحاته أيضا . وليس
أدل على ركاكة الترجمة العربية لكتب أرسطو في المنطق مما
جاء على لسان أبي سعيد السيرافي في مناظرته المشهورة مع
متى بن يونس حول المفاضلة بين النحو العربي والمنطق اليوناني
حينما قال : « ترجموا لغة هم فيها ضعفاء ناقصون بترجمة
أخرى هم فيها ضعفاء ناقصون ، وجعلوا تلك الترجمة
صناعة ^١ » ... وابن حزم نفسه ينص على هذه الحقيقة حين
يقول في صدر كتابه : « فلما نظرنا في ذلك وجدنا بعض الآفات
الداعية الى البلايا التي ذكرنا ، تعقيد الترجمة فيها ،
وايرادها بألفاظ غير عامية ولا فاشية الاستعمال . وليس كل
فهم تصلح له كل عبارة ، فتقربنا الى الله عز وجل بأن نورد
معاني هذه الألفاظ سهلة بسيطة يستوى ان شاء الله في فهمها
العامى والخاصى ، والعالم والجاهل ، حسب دراكننا .
الخ .. » ^٢ .

ثم يستطرد ابن حزم فيقول ان طالبي العلم في القديم كانوا
كثيرين ، فلم يكن من الغريب على المترجمين أن يعمدوا الى
« اغماض الألفاظ وتوغيرها وتخشين المسلك نحوها » شحة

(١) أبو حيان التوحيدي : « الامتاع والمؤانسة » ، الجزء الاول (تحقيق

أحمد أمين وأحمد الزين) ، ص ١٢١

(٢) ابن حزم : « التقريب لحد المنطق والمدخل اليه » ، ص ٨ ، ص ١٠ - ١١

منهم بالعلم وضناً به ، وأما الآن وقد زهد الناس في العلم ، ان لم قل بأنهم قد أصبحوا أميل الى اىذاء أهله والنيل منهم ، فقد أصبح لزاما على العارف بقدره أن يسهل علمه ، ويقربه الى الناس بقدر طاقته ، ويعمل على نشره بين أهله وغير أهله بكل ما أوتى من مقدرة . ولهذا يعترف ابن حزم — منذ البداية — بأنه لم يثرذ من وراء الكتابة في المنطق سوى تبسيط هذا العلم ، وشرح عويصه ، والكشف عن مستغلقه ، حتى يفيد منه العام والخاص .

وابن حزم يحصر أنواع المؤلفات في سبعة لا ثامن لها :
فهي اما شيء لم يتسبق المؤلف الى استخراجهِ فيستخرجه ،
واما شيء ناقص فيكمله ويتممه ، واما شيء باطل أو خاطيء فيصححه ،
واما شيء مستغلق فيشرحه ، واما شيء مشتهب فيختصره (دون أن يحذف منه شيئاً يخل بمقصده) ، واما شيء متفرق فيجمعه ، واما شيء منشور فيرتبه . وابن حزم مفكر متواضع يعرف قدر نفسه ، فهو لا يزعم لنفسه أنه قد أضاف الى المنطق شيئاً جديداً ، كما أنه لا يوهم قارئه بأنه قد أدخل على المنطق اليوناني أى تعديل جوهري ؛ وانما فراه يدرج كتابه تحت النوع الرابع من أنواع المؤلفات ، وهو النوع المقصود به شرح المستغلق ، وان كنا نجد يشير الى أن كتابه لا يخلو من « تصحيح رأى فاسد يوشك أن يغلط فيه كثير من الناس » ، وتنبه على أمر غامض ، واختصار لما ليست بطالب الحقائق

إليه ضرورة ، وجمع أشياء مفترقة مع الاستيعاب لكل ما يطالب
البرهان إليه أقل حاجة ، وترك حذف من ذلك البتة » .

ولما كان الكثيرون من معاصري ابن حزم قد وقفوا من
المنطق الأرسططالي موقفا عدائيا ، سواء أكان ذلك لظنهم بأن
كتب أرسطو محتوية على الكفر وفاصرة للالحاد ، أم لاعتقادهم
بأنها هذَر من القول (والناس أعداء ما جهلوا) ، أم لعجزهم
عن فهمها والاحاطة بمعانيها ، فقد وجد ابن حزم نفسه مضطراً
إلى استهلال كتابه في المنطق بالحديث عن منفعة كتب أرسطو ،
لا في علم واحد فحسب ، بل في كل علم من العلوم أيضاً .
وعلى حين أن فيلسوفاً مثل ابن سينا في حديثه عن فائدة صناعة
المنطق قد اقتصر على القول بأن أحداً لا يستغنى عن العلم
بأصول هذه الصناعة (اللهم الا أن يكون انساناً مؤيداً من
عند الله تعالى) ، في حين أن الفطرة السليمة والذوق السليم
ربما أغنيا عن تعلم النحو والعروض ^١ ، نجد أن ابن حزم يتوسع
في شرح منفعة علم المنطق بالنسبة إلى كل من علم الكلام ،
وعلم الفقه ، والحديث ، وعلم النظر بالآراء والديانات والأهواء ،
والمقالات ، وعلم النحو ، واللغة ، والخبر ، والبلاغة ، والشعر ،
والخطابة ، والعروض .. الخ ^٢ . وهو في رسالته المسماة باسم
« مراتب العلوم » ينصح طالب العلم بأن يتتبع دراسته للقراءة

(١) ابن سينا : « النجاة » ، القسم الأول في المنطق ، طبعة محي الدين

صبري الكردي ، ١٩٢٨ ، ص ٥

(٢) « التقريب لحد المنطق » ، ص ٩ - ١٠

والكتابة وأصول النحو واللغة بدراسة أخرى يقوم فيها بالنظر في حدود المنطق وعلم الأجناس والأنواع والأسماء المفردة ، والقضايا ، والمقدمات والقرائن والنتائج ، ليعرف ما البرهان وما الشَّغَب (أى السفسطة) وكيف التحفظ مما يظن أنه برهان وليس ببرهان ؛ وبالتالي فانه ينسب الى المنطق مهمة الوقوف على كافة الحقائق ، وتمييزها من الأباطيل تمييزاً لا يبقى معه ريب ^١ . ولكن من المؤكد أن اشتغال ابن حزم بالمنطق قد صدر في جانب كبير منه عن رغبته الدفينة في خدمة الكلام والدراسات الدينية (كما لاحظ المستشرق المجرى جولدتسيهر ^٢) ، فلم يكن من الغرابة في شيء أن يستمد معظم أمثله المنطقية من الفقه ، كما سيفعل من بعد الامام الغزالي في كتابه « المستصفى » ، وهذا ما فطن اليه أحد الباحثين الممتازين حينما كتب يقول : « ولم يكن ابن حزم منفرداً في محاولته تقريب المنطق بالاستكثار من الأمثلة الشريعية ، ولكن لعله أول من فتح هذا الباب ، مثلما حاول ابن سينا استمداد الأمثلة من الطب ، ومن بعد جاء الغزالي فعاد يستمد الأمثلة من الفقه ، فكتاب التقريب يثبت أن الغزالي مسبوق الى هذه المحاولة ^٣ » .

(١) رسائل ابن حزم ، طبعة الدكتور احسان عباس ، مصر ، ص ٧١
(٢) جولدتسيهر : البحث المشار اليه ، « التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية » ، ١٩٤٠ ، ص ١٥٢
(٣) احسان عباس : مقدمة كتاب « التقريب لحد المنطق والمدخل اليه » ، ص : (ل) .

واذا كان المنطقة المسلمون — من أمثال الفارابي وابن سينا وغيرهم — قد راعوا في عرضهم للمنطق الصوري ترتيب كتب أرسطو ، فإنا نجد ابن حزم يسايرهم في هذا الترتيب ، مقدماً على كتب أرسطو الثمانية ، « المدخل الى المنطق » (أو ايساغوجي) ، وان كنا فراه يسمى الكتاب الأول (قاطاغورياس) باسم « الأسماء المفردة » ، بدلا من تسميته باسم « المقولات » ، ويسمى الكتاب الثاني (باري أرمنياس) باسم « الاخبار » ، بدلا من تسميته باسم « العبارة » ، ثم يدمج الكتب الأربعة التالية (ألا وهي القياس أو التحليلات الأولى ، والبرهان أو التحليلات الثانية ، والمواضع الجدلية أو الطوبيقا ، والحكمة المموهة أو السوفسطيقا) في باب واحد يطلق عليه اسم « البرهان » . ولكن ربما كان أعجب ما في منطق ابن حزم أنه يسقط تماما لفظ « القياس » من حديثه عن أشكال الاستدلال ، اكتفاء بكلمة « البرهان » . وأغلب الظن أن توجس ابن حزم من قياس الفقهاء هو الذي حدا به الى تجنب استعمال هذه الكلمة ، خصوصا وأنه قد كتب كتابا في « ابطال القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل » قال فيه بصراحة ان القياس الفقهي « دعوى بلا برهان »^١ .

ولكن ابن حزم — مع ذلك — قد وجد نفسه مضطراً الى

(٢) ابن حزم : « ملخص ابطال القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل » ، تحقيق سعيد الأفغاني ، ص ٥ .

البحث عن تسمية خاصة لهذا النوع من الاستدلال الذي تترتب فيه النتيجة على مقدمتين (كبرى وصغرى) فأطلق على ما اعتدنا تسميته « بالقياس » اسم « الجامعة » . وهو يقول في تحليل هذه التسمية : « .. اعلم أن القضيتين المذكورتين (أى المقدمة الكبرى والمقدمة الصغرى) اذا اجتمعتا ، سمتهما الأوائل « القرينة » . واعلم أن باجتماعهما ... يحدث أبداً عنهما قضية ثالثة أبداً ، صادقة أبداً ، لازمة ضرورة ، لا محيد عنها ، وتسمى هذه القضية الحادثة عن اجتماع القضيتين « نتيجة » . والأوائل يسمون القضيتين والنتيجة معاً في اللغة اليونانية « السلجسموس » ، وتسمى الثلاثة كلها في اللغة العربية : « الجامعة » . مثال ذلك أن تقول : كل انسان حي ، فهذه قضية تسمى على انفرادها « مقدمة » ؛ ثم تقول : وكل حي جوهر ، فهذه أيضاً على انفرادها : « مقدمة » ؛ فاذا جمعتهما معاً ، فاسمهما « قرينة » لاقتراحهما ، وذلك اذا قلت : كل انسان حي ، وكل حي جوهر ، فيحدث من هذا الاجتماع قضية ثالثة ، وهى أن كل انسان جوهر ، فهذه قضية تسمى على انفرادها نتيجة ؛ فاذا جمعتها لثلاثتها سميت كلها جامعة ، والجامعة السلجسموس . ^١ ولسنا ندرى — على وجه التحقيق — من أين جاء ابن حزم بهذه التسمية العربية للاصطلاح اليونانى : " syllogismus " ، ولكننا نميل الى الظن بأنه أراد

(١) « التقريب لحد المنطق والمدخل اليه » : ص ١٠٦

بهذا اللفظ العربى تجشّب استخدام كلمة « القياس » التى
 جرت على ألسنة الفقهاء وأهل السنة .
 والحق أن ما اصطلح الفقهاء على تسميته باسم « القياس »
 إنما هو ما أطلق عليه أرسطو اسم « الاستقراء » . وقد شرح
 ابن سينا « الاستقراء » الأرسططالى فقال انه : « حكم على
 الكلى ، لوجود ذلك الحكم فى جزئيات ذلك الكلى ، اما كلها
 وهو الاستقراء التام ، واما أكثرها وهو الاستقراء المشهور ؛
 فكأنه يحكم بالأكبر على الواسطة ، لوجود الأكبر فى
 الأصغر . »^١ وقد فطن ابن حزم الى أن قياس الفقهاء هو
 استقراء أرسطو ، فكتب فصلا طويلا فى بيان فساد هذا النوع
 من البرهان ، خصوصا ما اصطلحنا على تسميته باسم
 « الاستقراء الناقص » . ومما كتبه ابن حزم فى هذا المقام قوله :
 « فمن ذلك شيء سماه الأوائل « الاستقراء » وسماه أهل ملتنا
 « القياس » ، فنقول وبالله تعالى التوفيق : ان معنى هذا اللفظ
 هو أن تتبع بفكرك أشياء موجودات ، يجمعها نوع واحد
 وجنس واحد ، ويحكم فيها بحكم واحد ، فتجد فى كل
 شخص من أشخاص ذلك النوع ، أو فى كل نوع من أنواع
 ذلك الجنس ، صفة قد لازمت كل شخص مما تحت النوع ، أو
 فى كل نوع تحت الجنس ، أو فى كل واحد من المحكوم فيهم .
 الا أنه ليس وجود تلك الصفة مما يقتضى العقل وجودها فى

(١) ابن سينا : « النجاة » ، طبعة القاهرة ، ١٩٢٨ م ، القسم الاول فى

كل ما وجدت فيه ، ولا تقتضيه طبيعة ذلك الموصوف ، فيكون حكمه لو اقتضته طبيعته أن تكون تلك الصفة فيه ولا بد ، بل قد يتوهم وجود شيء من ذلك النوع خالياً من تلك الصفة ..^١ ثم يستطرد ابن حزم فيقرر أن وجود صفة ما في نوع ما من الأنواع لا يستلزم بالضرورة أن تكون تلك الصفة لازمة ضرورية لكل أفراد ذلك النوع ، اللهم الا اذا كان في وسعنا أن نتقصى سائر أفراد ذلك النوع من أولها الى آخرها ، حتى نحيط علماً بأنه لم يشذ واحد منها عن تلك الصفة . ولكن لما كان من المستحيل علينا أن نستقصى جميع الأفراد الداخلة تحت نوع واحد ، أو لما كان الانسان أعجز من أن يحيط بجميع الأشياء التي تتوافر فيها تلك الصفة ، « فهذا تكهن من المتحكم به ، وتخريص وتسهل في الكذب ، وقضاء بغير علم . »^٢ . وابن حزم هنا يثير في الحقيقة مشكلة هامة من مشاكل المنطق ، لأنه يناقش الاستقرار بوصفه عملية منطقية ذات طابع توسعي ، ما دام من شأن « الاستقرار الناقص » أن يؤكد شيئاً أكثر من كل ما استطعنا ملاحظته أو ادراكه . ولو شئنا أن نعبر عن رأي ابن حزم بلغة المناطقة المحدثين ، لكان في وسعنا أن نقول ان ثمة جرأة علمية في الانتقال من الجزء الى الكل ، أو من

(١) ابن حزم : « التقريب لحد المنطق ... » ، ص ١٦٣ - ١٦٤ (وفي النص المطبوع : « لو اقتضته طبيعة أن تكون تلك الصفة فيه » ، والصواب : طبيعته ، كما ذكرنا) .

(٢) « التقريب الى حد المنطق » ، ص ١٦٤

ملاحظة بعض الوقائع الى اثبات قانون عام . وابن حزم يرى في الاستقراء ضرباً من التكهن ، لأنه ليس من حقنا أن نحكم — لجبرد توافر بعض الملاحظات المتكررة أو بعض الظروف المتشابهة — بأن علاقات واحدة بعينها سوف تتكرر دائماً ، أو تتابعاً سببياً واحداً سوف يتحقق في كل زمان ومكان . ولم يجانب ابن حزم الصواب في بيانه لموضع الاشكال من « الاستقراء الناقص » فإن من المؤكد أن في الاستقراء طفرة تنتقل بها الى مجال المجهول ، ما دنا نحكم على ما لم نشاهده ، أو بالأحرى ما دنا تكهن بشيء يتجاوز نطاق علمنا الحاضر . ولعل هذا ما عبر عنه ابن حزم أحسن تعبير حينما كتب يقول : « فينبغي لكل طالب حقيقة أن يقر بما أوجبه العقل ، ويقر بما شاهد وأحص وبما قام عليه برهان ... وأن لا يسكن الى الاستقراء أصلاً ، الا أن يحيط علماً بجميع الجزئيات التي تحت الكل الذي يحكم فيه . فإن لم يقدر ، فلا يقطع في الحكم على ما لم يشاهد ، ولا يحكم الا على ما أدركه دون ما لم يدرك »^١ .

ولنفرض — مثلاً — أننا لم قرّ في حياتنا العادية فاعلاً مختاراً الا وهو جسم ، فهل يحق لنا من أجل هذا أن نقطع بأن الفاعل الأول عز وجل لا بد من أن يكون جسماً ؟ أو لنفرض مثلاً أننا تتبعنا كل موصوف في العالم ، فرأينا أنه انما استحق ذلك الاسم نصفه فيه اشتق له منها ذلك الاسم ، فهل نقطع

من أجل ذلك بأن الواحد الأول عز وجل ذو سمع وبصر وحياة واردة ، وأنه متكلم لا يسكت ... الخ ؟ هذا ما يجيب عليه ابن حزم بالنفى القاطع : فإنا لم نشاهد موصوفاً بشيء إلا وتلك الصفة عرض فيه أو محمول له ، فالصفة عرض لجوهر ، ولو جاز أن يكون الله جوهرًا ، لكان جوهرًا يحمل أعراضاً لا يفارقها قط ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً^١ . ومعنى هذا أن ابن حزم يرفض « الاستدلال بالشاهد على الغائب » ، إذا كان المقصود بهذا الاصطلاح قياس « الغيبات » على « الطبيعيات » ، أو فهم « الحقيقة الإلهية » على غرار « الواقعة الطبيعية » . وأما إذا كان المقصود بالغائب هنا هو الغائب عن الحواس من الأشياء المعلومة ، فإن ابن حزم يرى أن هذا ليس بغائب عن العقل ، بل هو شاهد فيه كشهود ما أدرك بالحواس ، دون أدنى فارق . « وإذا أيقن المرء أن الحواس موصّلات إلى النفس ، وأن النفس إنما يصح حكمها بالمحسوسات ، إذا صح عقلها من الآفات ... لم يجد المرء حينئذ لما يشاهد بحواسه فضلاً على ما شاهده بعقله دون حواسه ، فلا غائب من المعلومات أصلاً ، إذ ما غاب عن العقل ، لم يجز أن يتعلم البتة »^٢ . واذن فلا معنى مطلقاً للحديث عن « الاستدلال بالشاهد على الغائب » . ويشير ابن حزم — في موضع آخر — إلى أن المتقدمين.

(١) المرجع السابق : ص ١٦٥

(٢) المرجع السابق : ص ١٦٦

قد أطلقوا على عملية الاستدلال من مقدمتين اسم « القياس » ،
 فوجد الفقهاء القياسيون في ذلك حيلة ضعيفة سوفسطائية
 لتسمية استقراءهم المذموم « قياساً » ، وكأن حكمهم فيما لم
 يرد فيه نص بحكم شيء آخر مما ورد فيه نص (لاشتباههما في
 بعض أوصافهما) استدلال قياسي ، أو اجراء للعلة في المعلول .
 وابن حزم يشبه هؤلاء الفقهاء الذين أرادوا تصحيح الباطل
 فسموه باسم أوقعه غيرهم على الحق الواضح بأولئك الذين
 أرادوا أن يستحلوا الخمر فسموها بغير اسمها ! « وهذه حيلة
 مموهة لا تثبت على التخليص . وقد قلنا قبل انه ليس في العالم
 شيان الا وبينهما شبه وافتراق ما ضرورة لا بد من ذلك . فان
 كان الشبه يوجب استواء الحكم ، فلنحكم لكل ما في العالم
 بحكم واحد في كل حال ، من أجل اشتباههما في صفة ما . وللم
 كان الاجتماع في الشبه يوجب استواء الحكم ، ولم يكن
 الافتراق في الشبه يوجب اختلاف الحكم ؟ فيجب على هذا أن
 لنحكم لشيئين أصلاً بحكم واحد ، لاختلافهما في صفة ما .. »^١
 . وواضح من هذا النص أن رفض ابن حزم لقياس الفقهاء إنما
 هو تأكيد لرأيه السابق في الطابع الارتيازي للاستقراء الناقص .
 والحق أن كتاب ابن حزم في المنطق شاهد على اهتمامه
 الزائد بتأسيس علم الفقه على دعائم عقلية منطقية ، فأننا نجده
 يطبق الكثير من القواعد المنطقية على الأمثلة الفقهية والحقائق

(١) « التريب لحد المنطق » ، ص ١٧٣

الشرعية ... إلخ . ولكن ابن حزم حريص في الوقت نفسه على
تذكيرنا بأن مجال الشريعة غير مجال العقل الخالص ، فانه « ليس
في الشرائع علة أصلاً بوجه ما من الوجوه ، ولا شيء يوجبها
إلا الأوامر الواردة من الله عز وجل فقط ، اذ ليس في العقل
ما يوجب تحريم شيء مما في العالم ، وتحليل آخر ، ولا ايجاب
عمل ، وترك ايجاب آخر . فالأوامر أسباب موجبة لما وردت
به . فاذا لم ترد فلا سبب يوجب شيئاً أصلاً ولا يمنعه . »^١
وابن حزم يستند في فهمه للشريعة الى باب « الجهات » في
المنطق الصوري ، فيقول ان الجهات أو « العناصر » (على حد
تعبيره) ثلاثة أقسام لا رابع لها : « اما واجب وهو الذي قد
وجب وظهر ، أو ما يكون مما لا بد من كونه ، كطلوع الشمس
كل صباح ، وما أشبه ذلك . وهذا يسمى في الشرائع :
« الفرض واللازم » . واما ممكن وهو الذي قد يكون وقد
لا يكون ، وذلك مثل توقعنا أن تمطر غداً وما أشبه ذلك ، وهذا
يسمى في الشرع : « الحلال والمباح » . واما ممتنع وهو الذي
لا سبيل اليه كبقاء الانسان تحت الماء يوماً كاملاً ، أو عيشه
شهرأ بلا أكل ، أو مشيه في الهواء بلا حيلة وما أشبه ذلك ،
وهذه التي اذا ظهرت من انسان علمنا أنه نبي . وهذا القسم
يسمى في الشرائع : « الحرام والمحظور » وابن حزم هنا
يقرب معنى « الجهة » الى عقلية القارئ العربي ، فلا يعمد

(١) المرجع السابق : ص ١٦٩

الى استخدام مصطلحات فلسفية معقدة ، بل هو يتحاشى استعمال كلمة « الجهة » نفسها ، مؤثراً عليها لفظ « عنصر » . ولنورد هنا — على سبيل المقارنة — تعريف ابن سينا للجهات ، حيث نراه يقول : « الجهات ثلاث : واجب ويدل على دوام الوجود ، وممتنع ويدل على دوام العدم ، وممكن ويدل على لا دوام وجود ولا عدم . »^١ . فنحن نجد ابن سينا هنا يضع « الواجب » فى مقابل « الممتنع » ، وأن كان (ابن سينا) ينسب الى كل من « الواجب » و « الممتنع » معنى الضرورة : لأنه يرى أن الأول منهما ضرورى فى الوجود ، بينما الثانى ضرورى فى العدم . وقد وقع فى ظن بعض الناس — فيما يقول ابن سينا — أن « الممكن » هو « ما ليس بممتنع » ، وأن « غير الممكن » هو « الممتنع » فقالوا ان كل شىء اما أن يكون « ممكناً » أو « ممتنعاً » ، دون أن يكون ثمة موضع لقسم ثالث . ولكن الحقيقة أن لفظ « الممكن » انما يصدق على ما ليس بواجب ولا ممتنع ، فهو يشير الى كل ما ليس ضرورياً فى الوجود ، ولا ضرورياً فى العدم^٢ . وابن حزم أيضاً يشير الى هذه التفرقة الثنائية التى ذهب اليها البعض فيقول : « وقد قال قوم ان العناصر اثنان وهما : « واجب » و « ممتنع » فقط . قالوا : ولا « ممكن » ألبتة ، لأن الشىء الذى تسنوه

(١) ابن سينا : « النجاة » قسم المنطق ، ص ١٨

(٢) ابن سينا : « النجاة » : القسم الاول فى المنطق ، القاهرة : طبعة

محيى الدين صبرى أنكردي ، ١٩٣٨ . ص ١٧

ممكناً هو قبل وجوده ممتنع ، وهو بعد وجوده واجب ، فلا ثالث . قالوا : وما غاب عنا فاما أنه في علم الله تعالى يكون ، واما أنه لا يكون . فان كان الله عز وجل علم أنه سيكون ، فهو الآن واجب أن يكون ، وان كان تعالى عليم أنه لا يكون ، فهو الآن ممتنع أن يكون . ^١ . وأصحاب هذا الرأي — كما هو واضح — يستبعدون من أنواع الجهات الثلاث جهة « الممكن » ، على أساس أن الشيء اما أن يكون ضروري الوجود ، واما أن يكون ضروري العدم ، فهو لا يخرج عن كونه « واجباً » أو « ممتنعاً » . ولكن ابن حزم يرد عليهم بقوله ان الشيء لا يكون ممتنعاً قبل كونه ، والا لما أمكن خروجه الى الفعل ، بل الصحيح أنه يكون بالقوة أو في الظن ، بمعنى أنه قد يكون أو قد لا يكون . « وأما حجتهم بعلم الله تعالى ، فان الله تعالى قد أمر ونهى ، فلو لم يكن الشيء الذي أمر الله به متوهماً كونه في المأمور به ، لم يكن للأمر معنى . فالتوهم كونه هو الممكن ، وأفعال المختارين قبل كونها داخلة في قسم الممكن ، بخلاف أفعال الطبيعة » ^٢ .

وهكذا نرى أنه وان كان حديث ابن حزم هنا عن الواجب والممكن والممتنع حديث العالم المنطقي الذي يشرح لنا أنواع « الجهات » ، الا أننا نجد يدرك ارتباط هذا الحديث بالمشكلة الدينية (أو الفلسفية) التي تدور حول « الجبر والاختيار » .

(١) ابن حزم : « التقريب لحد المنطق » : ص ٨٨

(٢) المرجع السابق : ص ٨٨

فينتهز هذه الفرصة لشرح معنى « الامكان » ، دون أن يشمر
 القارئ بأنه يتقحم على دراسته المنطقية حاشيا كلاميا أو
 ميتافيزيقيا . ولا يجد ابن حزم بأسا من أن يدلل على صحة
 رأيه ببعض الأمثلة ، فنراه يقول : « ان الحس والعقل قد ثبت
 فيهما أن بين مشى القاعد الصحيح الجوارح والجسم الغير
 ممنوع ، وبين مشى المتعبد المبطل الساقين فرقا ، وهذا فرق بين
 « الممكن » و « الممتنع » . وكذلك فيهما أن بين قعود الصحيح
 الذي ذكرنا (أنه) اذا شاء تركه تركه ، وبين قعود المقعد الذي
 لو رام جهده تركه لم يقدر ، فرقا واضحا ، وهذا فرق بين
 الممكن والممتنع . والواجب أن تلزم من قال بخلاف قولنا أن
 لا يتأهب للجوع اذا أصابه ، بأكل الطعام ، لأنه ان كان انتهى
 أجله فواجب أن يموت ، وان كان لم ينته أجله فممتنع أن
 يموت . وينبغي أن يقتحم النيران اذا كان في المغييب أنه لا يحترق
 فممتنع أن يحترق . فيلزم مخالفنا أن تأهبه وفكرته وسعيه فيما
 يدفع عن نفسه البرد والعطش والأذى كتأهبه لدفع حركة الفلك
 أو لمنع الشمس من الطلوع ... » ^١ ! وواضح من هذا النص
 أن ابن حزم يستند الى التفرقة المنطقية بين الواجب والممتنع
 والممكن ، من أجل التمييز بين « الأفعال الاختيارية »
 و « الأفعال الاضطرارية » ، على اعتبار أن الفعل الاختياري
 ممتنع على ذي الجوارح المعتلة ، بينما هو ممكن بالنسبة الى

(١) المرجع السابق : ص ٨٨ - ٨٩.

ذی الجوارح السلیمة . » واثنا بالضرورة نعلم أن المقعد لو رام القيام جهده لما أمکنه ، وتقطع یقیناً أنه لا یقوم ؛ وأن الصحیح للجوارح لا ندری اذا رأیناه قاعداً أیقوم أم یتکىء أم یتمادی علی قعوده ، وكل ذلك منه ممکن ... »^١ .

واذا کان ابن حزم قد اعترف — فی دفاعه عن المنطق — بأن كتب أرسطو فی حدود الکلام كتب سالمة مفیده دالة علی توحید الله ، فما ذلك الا لأنه قد فطن الی أن فی استطاعة المنطقی الافادة من القواعد المنطقية لتأیید الكثير من العقائد الدينية أو الحقائق الشرعية . فابن حزم — مثلاً — حیثما يتحدث عن « العدد » لا یقتصر علی القول بأنه « الکم المنفصل » ، بل هو یضیف الی هذا التعریف « أن الواحد لیس عدداً ، لأن العدد هو ما وجد عدد آخر مساو له ، و لیس للواحد عدد یساویه ، لأنک اذا قسمته لم یکن واحداً ، بل هو کثیر حیث ... »^٢ . ومعنی هذا أن الواحد مبدأ ، و لیس عدداً ، وبالتالي فان الله الواحد الحق انما هو الخالق للمبتدئ الجمیع الخلق ، دون أن یكون هو نفسه عدداً ، ولا معدوداً ، فی حین أن الخلق كله معدود . وابن حزم حین يتحدث — مثلاً — عن الواحد والكثیر ، فانه یقسم الموجودات الی قسمین لا ثالث لهما : الخالق الواحد الأول الذی لم یزل ، والمخلوقات المتعددة .

(١) ابن حزم : « الفصل فی المثل والاهوال والنحل » ، الجزء الثالث ،

ص ٢٣ — ص ٢٤

(٢) « التقریب لحد المنطق » ، ص ٥٢ (وانظر ایضاً ص ٤٨) .

التي هي بمثابة جواهر ذات أعراض . وهو بهذه القسمة ينفي عن الله اسم « الجوهر » ، لأن « الواحد » لا يتسم بصفات ، ولا تحمل عليه محمولات ، ولا تجوز عليه أعراض . ومعنى هذا « أن الخالق عز وجل ليس حاملاً ولا محمولاً بوجه من الوجوه »^١ . وهو يعبر عن هذه الحقيقة في موضع آخر فيقول : « كل ما دون الخالق عز وجل ينقسم قسمين : جوهر ولا جوهر . فالجوهر هو الجسم ... والجسم هو الجوهر ، ولا شيء دون الخالق تعالى الا جسم محمول في جسم . وقد أثبت غيرنا جوهرًا ليس جسمًا وهذا باطل . »^٢ . وهو حين يتحدث عن الأسماء المفردة ، ووقوع الأسماء كلها على مسميات ، ينتهز هذه الفرصة فيتحدث عن أسماء الله تعالى قائلاً انها أسماء أعلام ورد بها النص ، دون أن تكون مشتقة من شيء أصلاً . « وأما صفات الفعل له تعالى فمشتقة من أفعاله ، كالمحيي والمميت ، وما أشبه ذلك ، وتلك الأفعال أعراض حادثة في خلقه ، لا فيه ، تعالى الله عن ذلك »^٣ . وهو يشير عند تعرضه لباب الإضافة الى أن بعض أصحاب الفلسفة قد زعم أن الباري تعالى جسم : لأن الفاعل من أجل فعله جسم ، والباري جل وتعالى فاعل ، فهو اذن لا بد من أن يكون جسمًا . وفات هؤلاء — فيما يقول ابن حزم — أنه « ليس من أجل أن الفاعل فاعل وجب أن يكون

(١) انرجع السابق : ص ١٦ - ١٧

(٢) المرجع السابق : ص ٢٧

(٣) المرجع السابق : ص ٢٨

جسماً ، لكن الصواب في القضية أن قول : الفاعل بالفعل فاعل أو ذو فعل ، فهذه قضية صحيحة تعلمها النفس بأول العقل . وقد غلط بعضهم فقال السميع بالسمع سميع ، والحي بالحياة حي ، فأرادوا أن يوجبوا للباري تعالى حياة وسمعا ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وفحن لم نسم الباري تعالى حيا من أجل وجود الحياة له ، فيلزمنا اضافة الحياة اليه ، وكذلك التسمية له تعالى بأنه بصير ، وانما سميناه حيا وسميعاً وبصيراً اتباعاً للنص ، لا لمعنى أوجب ذلك ؛ وليس شيء من ذلك مشتقاً من عرض فيه .. فكل هذا تركيب لا يكون الا في محدث ، وانما هذه أسماء أعلام للباري تعالى فقط ... ١ .

وليس في وسعنا — بطبيعة الحال — أن تفيض في بيان تلك الأمثلة الشرعية والفقهية والكلامية التي شاء ابن حزم أن يطبق عليها قواعد المنطق الأرسططالي ، وانما حسبنا أن نقول ان حرص ابن حزم على التقريب بين المنطق والشرعة قد اضطره في كثير من الاحيان الى اصطناع مصطلحات منطقية جديدة ، كما أنه قد أدى به الى الالتفاف من قيمة « الاستقراء » ، وانكار مبدأ العلية ، وتجنب استعمال لفظ « القياس » .. الخ . فهل يكون هذا وحده سبباً كافياً للقول بأن كتابه في المنطق « كثير الغلط ، يئس السقط » ؟ أو هل يكون في تحاشي ابن

حزم لاستعمال الحروف والرموز في التعبير عن القضايا ، مبرر كاف للقول بأنه « خالف أرسطو واضع المنطق ، مخالفة من لم يفهم غرضه ، ولا ارتاض في كتبه »^١ ؟ يبدو لنا أن مجرد الاكثار من ايراد الأمثلة الشرعية لا يكفي للطعن في قيمة الجهد العلمي الذي قام به ابن حزم حينما حاول تقريب المنطق الى أذهان العامة من الناس ، كما أن تجنب التمثيل بالحروف والرموز لا ينطوي في حد ذاته على أية مخالفة خطيرة لروح المنطق الأرسططالي . ويبقى أن يكون القائلون بخروج ابن حزم على قواعد المنطق الأرسططالي قد وجدوا في تضاعيف كتابه أخطاء صريحة أو انحرافات خطيرة بررت في ظنهم الحكم على صاحب هذا الكتاب بأنه لم يفهم أرسطو ولم يدرك دلالة منطقهِ . وقد حاول كاتب هذه السطور أن يقف على بعض تلك الأخطاء أو الانحرافات ، فكان من بين ما لاحظته — مثلا — أن ابن حزم يسمي التقابل القائم بين الصحة والمرض ، أو بين الحياة والموت ، أو بين الاجتماع والافتراق « تناقضا » (أو « تنافيا » على حد تعبيره هو)^٢ ، في حين أننا نأزاء « حدود متضادة » ، لا « متناقضة » . ومن ذلك أيضا أن ابن حزم يعتبر التقابل القائم بين القضيتين الكلية الموجبة والكلية السالبة أشد

(١) ابن بسام : كتاب « اللخيرة » ، المجلد الأول من القسم الأول «

١٩٢٩ ، ص ١٤٠

(٢) « التقريب لحد المنطق » : ص ٧٠ - ٧١

تباينا من التقابل القائم بين القضيتين الكلية الموجبة والجزئية السالبة ، بحجة أن النفي في الحالة الأولى ينصب على كل ما تقرره القضية ، في حين أن النفي في الحالة الثانية لا ينصب الا على بعض ما تثبته القضية . ولهذا فانه يسمى تقابل « التضاد » باسم « النفي العام » ، بينما نراه يسمى تقابل « التناقض » باسم « النفي الخاص »^١ . وفات ابن حزم أن تقابل « التناقض » أقوى من تقابل « التضاد » ، لا لاختلاف القضيتين المتناقضتين كيفاً وكماً ، في حين أن القضيتين المتضادتين تختلفان كيفاً فقط ، وانما لأن القضيتين المتناقضتين لا تصدقان معا ولا تكذبان معا ، في حين أن القضيتين المتضادتين لا تصدقان معا ، ولكنهما قد تكذبان معا . ومن ذلك أيضا قول ابن حزم : « واعلم أن قولك اذا قلت ممكن أن يكون ، وقلت ممكن أن لا يكون ، وقلت غير ممكن أن يكون ، وغير ممكن أن لا يكون ، وقلت غير واجب أن لا يكون ، فكلها متلازمات أى متفقات المعانى^٢ » . ولا شك أن هذا القول انما يجعل من « الممكن » ما ليس بممتنع ، من غير أن يشترط فيه أن يكون واجبا أو غير واجب . وهذا هو الخطأ الذى نبهنا اليه ابن سينا حينما قال ان العامة تظن أن الممكن هو ما ليس بممتنع ، فيكون غير الممكن هو ما ليس بغير ممتنع ، أى الممتنع ، دون أدنى

(١) المرجع السابق : ص ٩٢

(٢) المرجع السابق : ص ١٠٢

إشارة إلى الوجوب أو عدمه ^١ ... ومهما يكن من شيء ، فقد
قدم لنا ابن حزم في كتاب « التقريب » عرضاً طريفاً مشوقاً
لنطق أرسطو ، فكان بذلك خير من شرح مستغلقه ، وأوضح
غامضه ، وقرّب بعيده !

(١) ابن سينا : « النجاة » ، قسم المنطق ، ص ١٨

الفصل الثاني

ابن حزم الجدل

لو أننا استرجعنا أسماء كتب ابن حزم التي أتينا على ذكرها فيما تقدم ، لوجدنا أن الجانب الأكبر منها قد انطوى على مناقشات جدلية ، ومناظرات فقهية ، ومساجلات كلامية ، مما حّدَا بالكثير من مؤرخي الفكر الاسلامي الى ادراج اسم ابن حزم في عداد « أهل الجدل » . ولعل من هذا القبيل مثلاً ما فعله المؤرخ الأندلسي أبو مروان بن حيان حينما كتب يقول : « ولهذا الشيخ أبي محمد مع يهود لعنهم الله ، ومع غيرهم من أولى المذاهب المرفوضة من أهل الاسلام ، مجالس محفوظة ، وأخبار مكتوبة . وله مصنفات في ذلك معروفة من أشهرها في علم الجدل كتابه المسمى كتاب الفصل بين أهل الآراء والنحل ، وكتاب الصادع والرادع على من كفر أهل التأويل من فرق المسلمين ، وكتاب الرد على من قال بالتقليد ... الخ . »^١ وإن ابن حزم نفسه ليروى لنا في أحد المواضع أنه كان يتناقش يوماً مع أبي عبد الله محمد بن كليب

(١) ياقوت الحموي : « معجم الادباء » ، طبعة القاهرة ، تحقيق الدكتور

فريد الرقاص ، ج ١٢ ، ص ٢٥٦

(من أهل القيروان) حول ماهية الحب ومعانيه ، فقال له هذا الرجل : « أنت رجل " جدلي " ، ولا جدل في الحب يُلْتَفَت إليه ^١ » . وواضح من هذه العبارة أن شهرة ابن حزم الجدلية قد جاوزت بلاد الأندلس نفسها ، بسبب انتشار كتبه في الرد على غير المسلمين ، ومناقشة أهل الفرق ، ودحض بعض نظريات الأشاعرة وغيرهم من المتكلمين . والحق أن المتأمل في كتاب « الفصل » ، يعجب لقدرة ابن حزم الهائلة على الجدل ، وطول بابه في المناقشة ، وصلابة عوده في مضمار التحدى الفلسفى . وأغلب الظن أن ما شاهده ابن حزم في عصره من استهتار الحكام بأمور الشريعة ، وتهاونهم في الدفاع عن الاسلام ، هو الذى حدا به الى خوض كل تلك المعارك الفكرية مع أهل العقائد الأخرى من يهود ، ومسيحيين ، ومائويين ، وملحدين ، ومشركين ... وهو ينص على هذا صراحة في مقدمة احدى رسائله فيقول : « اللهم انا نشكو اليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن اقامة دينهم ، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم ... حتى استشرف لذلك أهل القلة والذمة ، وانطلقت ألسنة أهل الكفر والشرك بما لو حقق النظر أرباب الدنيا لاهتموا

(١) ابن حزم : « طوق الحماة في الالف والالاف » ، طبعة القاهرة ، ١٩٦٤ ،

بذلك ضعف همنا ، لأنهم مشاركون لنا فيما يلزم الجميع من
الامتعاض للديانة الزهراء والحمية للملة الغراء^(١) .

ولئن كان الكثيرون من معاصري ابن حزم قد عابوا عليه
عنفه في الجدل ، وصرامته في الحكم على آراء مخالفيه ، حتى
لقد قيل عنه انه كان « يصكّ معارضة صكّ الجندل » ،
الا أننا نجد في تضاعيف كتبه الكثير من الدلائل على نزاهته
الفكرية وأمانته الفلسفية . فابن حزم — مثلاً — لا يبدأ
حديثه دائماً بمهاجمة خصمه أو تسفيه رأيه ، أو الطعن في
شخصه ، بل هو يحاول على قدر المستطاع سرد حجج خصمه
واحدة بعد الأخرى ، مورداً في كثير من الأحيان أقاويل الخصم
بحذاقيها (كما فعل مثلاً في رده على ابن النغيلة اليهودي) ،
ثم لا يلبث بعد ذلك أن يكشف لنا عما تنطوي عليه من بطلان
مناقشا كل حجة من حجج خصمه على حدة ، واضعاً نصب عينيه
دائماً الوصول الى الحق ، لا مجرد الانتصار لرأيه الشخصي .
ويروى لنا ابن حزم أنه ناظر يوماً رجلاً من أصحابه في مسألة
من المسائل فأفحمه « لبكوء كان في لسانه » ، وانقض المجلس
على أنه هو المحق ، فلما عاد الى منزله ، خطرت له فكرة ،
فراح يبحث في بعض مراجعه ، وسرعان ما اهتدى الى برهان
صحيح يبين بطلان قوله وصحة قول خصمه ، وكان معه أحد
أصحابه ممن شهد ذلك المجلس ، فعرفه ابن حزم بالأمر ، وقال

(١) ابن حزم : « الرد على ابن النغيلة اليهودي » ، طبعة القاهرة ، تحقيق
الدكتور احسان عباس ، ١٩٦٠ (مكتبة دار العروبة) ، ص ٤٥

له انه يريد العودة الى خصمه ، واعلامه بأنه المحق ، والاعتراف ،
أمامه بأنه كان مبطلاً ! « فهجم عليه (أى على صديقهم) من ذلك
أمر مبنهت ، وقال لى (أى لابن حزم) : وتسمح نفسك
بهذا ؟ ! فقلت له : نعم ، ولو أمكننى ذلك فى وقتى هذا ،
ما أخرته الى غد ١ » . وواضح من هذه القصة أن ابن حزم
لم يكن يدعى لنفسه أنه معصوم من الخطأ ، أو أن الرأى هو
بالضرورة ما ارتآه ، وإنما كان يرى فى الجدل وصلاً فكرياً
يتراد من ورائه الوصول الى الحقيقة ، لا مجرد افحام الخصم .
وقد قدم لنا ابن حزم فى نهاية كتابه المشهور المسمى باسم
« التقريب لحد المنطق » عرضاً مسهباً لأهم قواعد الجدل وآداب
المناظرة ، فيبين لنا الفارق الكبير بين الجدل والسفسطة ،
وأظهرنا على ضرورة التمييز بين « الجدل المدوح » و « الجدل
المذموم » . والجدل المدوح فى رأى ابن حزم إنما هو ذلك
الذى أوصانا به الله تعالى فى قوله : « ولا تجادلوا أهل الكتاب
الا بالتي هى أحسن ، الا الذين ظلموا منهم » ، فأمر عز وجل
بضرورة المناظرة ، مع الترفق والانصاف فى الجدل ، وترك
التعسف والبداء والاستطالة ، اللهم الا اذا كان المتناظر هو
البادىء بشيء من ذلك ... وأما الجدل المذموم فهو ذلك الذى
عبر عنه ابن حزم فى موضع آخر بقوله : « المذموم وجهان
أحدهما من جادل بغير علم ، والثانى من جادل ناصراً للباطل

(١) ابن حزم : « التقريب لحد المنطق والمدخل اليه » ، تحقيق الدكتور

احسان عباس ، بيروت ، ص ١٩٤

يشغب وتمويه بعد ظهور الحق . وهؤلاء المذمومون هم الذين قال الله تعالى فيهم : « ألم تر الى الذين يجادلون فى آيات الله أتتى يصرفون » ، وقوله تعالى : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد » ، وقوله تعالى : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .. » . فبيّن تعالى كما ترى أن الجدال المحرم هو الجدال الذى يجادل به لينصر الباطل ، ويبطل الحق بغير علم . ^١ . وابن حزم يحدثنا فى موضع آخر عن هذا النوع من الجدال فيقول انه ليس أبعد عن جادة الصواب من أولئك الذين يتججّحون بقدرتهم فى الجدل ، فيقرر الواحد منهم أنه « قادر على أن يجعل الحق باطلا والباطل حقا » ! ^٢ ، وأمثال هؤلاء — فى رأى ابن حزم — « سفلة أرذال ، أهل كذب وشر ومخرقة » ، لأنه ليس فى قدرة مخلوق أصلا أن يحيل الخطأ صواباً ، والصواب خطأ ، اللهم الا أن يكون من ضعف العقل وقلة العلم بحيث يختلط عليه الحق بالباطل والباطل بالحق ! ولعل هذا هو السر فى كل تلك « الجدليات الفاسدة والشغبيات الساقطة » التى طالما حفلت بها مجالس المتناظرين .

وأما الشرط الأول لقيام المناظرة — فى رأى ابن حزم — فهو أن يكون المتناظران طالبى حقيقة ، لا مجرد متصارعين

(١) ابن حزم : « الاحكام فى اصول الاحكام » ، طبعة القاهرة ، الجزء الاول ،

ص ٢١ — ٢٤ .

(٢) ابن حزم « التقريب لحد المنطق » الطبعة المشار اليها ، ص ١٦٥

يريد كل واحد منهما أن يكون هو الغالب لا المغلوب ! « فاذن :
 اتفق أن يكون المتناظران هكذا ، فتلك مناظرة فاضلة حميدة .
 العاقبة يوشك أن تنحل عن خير مضمون » . وأما إذا كان .
 المتناظران غالطين أو مغالطين ، أو كان أحدهما جاهلاً مكابراً ،
 والثاني غالطاً أو مغالطاً ، فتلك « مناظرة يكثر فيها الشغب ،
 ويعظم النصب ، ويكثر الصخب ، ويشتد الغضب ، ويوشك
 أن تشتد مضرتها ، وأما المنفعة فلا منفعة . »^١ . ومعنى هذا
 أنه لا بد للمتجادلين من أن يكونا مخلصين في طلب الحق ،
 بحيث لا يبغي الواحد منهما بجدله مجرد الانتصار على خصمه ،
 أو الاستطالة عليه بلسانه ، بل طلب الحق لذاته ، والتزام
 الانصاف الذي هو غاية العدل في المناظرة^٢ . وابن حزم نفسه
 يسارع الى الاعتراف بأنه على استعداد للتخلي عن رأيه ، اذ
 تبين له خطأ ما استمسك به ، أو صواب ما قال به مخالفه .
 وهو يعبر عن هذا المعنى بقوله : « ... فنقول مجدين مقرين
 ان وجدنا أهدي منه اتبعناه ، وتركنا ما نحن عليه . »^٣ .

بيد أن مجرد القول بأن الغاية من الجدل هي بلوغ « الحقيقة »
 يفترض بالضرورة رفض نظرية السوفسطائيين الذين يبطلون

(١) ابن حزم : « التقريب لحد المنطق والمدخل اليه » ، طبعة بيروت ، دار
 مكتبة الحياة ، ص ١٨٦

(٢) محمد أبو زهرة : « ابن حزم - حياته ومصره - آراؤه وفقهه » ،
 دار الفكر العربي ، ١٩٥٤ ، ص ١٨٧

(٣) ابن حزم : الاحكام في اصول الاحكام ، الجزء الاول ، ص ٢٠

الحقائق ، ونبذ مزاعم بعض أهل النظر من القائلين بتكافؤ الأدلة . وابن حزم يدحض حجج السوفسطائيين بالأدلة الفلسفية المعروفة ، فيقرر أنه لا موجب للطعن في شهادة الحواس بحجة أنها قد تخطئ أحياناً ، فإن الخطأ يكون لآفة في الحاس ، لا في المحسوس . ولئن كنا نرى أثناء النوم أشياء تتوهم أنها حقائق ، فإذا ما استيقظنا تبين لنا أنها لم تكن سوى أضغاث أحلام ، إلا أن عقلنا « شاهد بالفرق بين ما يخيّل الى النائم ، وبين ما يدركه المستيقظ »^١ ، وابن حزم يرد على الشكاك من السوفسطائيين فيقول لهم : « أشككم بوجود صحيح منكم ، أم غير صحيح ولا موجود ؟ فإن قالوا هو موجود صحيح منا ، أثبتوا أيضاً حقيقة ما ، وإن قالوا هو غير موجود ، نفوا الشك وأبطلوه ، وفي إبطال الشك اثبات الحقائق أو القطع على إبطالها . »^٢ ويمضي ابن حزم الى حد أبعد من ذلك فيفند مزاعم القائلين بالنسبية من السوفسطائيين بحجة « أن الشيء حق عند من هو عنده حق ، وباطل عند من هو عنده باطل » ! ورد ابن حزم على هذا الزعم أن الشيء لا يكون حقاً باعتقاد من اعتقد أنه حق ، كما أنه لا يبطل باعتقاد من اعتقد أنه باطل ، وإنما يكون الشيء حقاً بكونه موجوداً ثابتاً ، سواء اعتقد المرء أنه حق أم اعتقد أنه باطل . ومعنى هذا أن الحق والباطل — في رأى ابن حزم — مسميان يصدقان على الأشياء كما هي في الأعيان ،

(١) و (٢) ابن حزم : « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، الجزء الاول ،

لا كما هي في الأذهان ، والا « لكان الشيء معدوماً وموجوداً في حال واحدة في ذاته ، وهذا عين المحال . »^١ .

وأما القائلون بتكافؤ الأدلة فانهم يزعمون أنه لا موجب لترجيح رأى على آخر أو تغليب ديانة على أخرى : إذ لو كان ثمة قول ظاهر الغلبة ، لما أشكل على أحد ، وبالتالي لبدا الحق للناس ظاهراً . « فلما بطل هذا صح أن كل طائفة تتبع اما ما نشأت عليه ، واما ما يخيّل لأحدهم أنه الحق ، دون تثبت ولا يقين . »^٢ هذا الى أن المرء قد يعتقد مقالة ما ، ويتعصب لها ، وينظر عنها ، ويحاجج دونها ، ثم تبدو له بادية ، فلا يلبث أن يعادى ما كان ينصر ، مبيناً ضلال عقيدة كان هو نفسه من أشد المتحمسين لها ! ومثل هذا المسلك انما يدلنا على « فساد الأدلة وتكافؤها جملة ، وأن كل دليل فهو هادم » الآخر ، وكلاهما يهدم صاحبه »^٣ . ورد ابن حزم على الحجة الأولى من هاتين الحجتين أن اشكال الشيء على بعض الناس لا يعنى انعدام كل حقيقة ، بل هو يعنى فقط جهل هؤلاء الناس بحقيقة ذلك الشيء ؛ وليس جهل الجاهل حجة ضد العالم ببرهان صحة ذلك الشيء . وقد وقع الاختلاف بين الناس ، لاختلاف حظوظهم من الذكاء أو الفهم ، وتفاضل أنصبتهم من المعرفة أو العلم ، فلم يكن هذا الاختلاف الا شاهداً على قصور فهم بعض الناس ،

(١) المرجع السابق : ص ٩

(٢) « الفصل في الملل والاهواء والنحل » ، الجزء الخامس ، ص ١٢٧

(٣) المرجع السابق ، الجزء الخامس ، ص ١٢٣

أو بلادة عقولهم ، أو تكاسلهم عن تقصى البرهان . وأما إذا ارتفعت هذه الموانع ، فهناك لا بد للبرهان من أن يلوح لهم جميعاً ساطع اليقين ^١ . وابن حزم لا يجد أيضاً أدنى صعوبة في تنفيذ الحجة الثانية القائلة بتقلب بعض الناس من مذهب الى مذهب ، فان هذه الحجة عنده لا تعنى اكثر من أن هناك قوما يخطئون ، وآخرين يصيبون ! ولو لم يكن هناك خطأ وصواب ، لما كان هناك موضع للانتقال من رأى الى آخر ، أو التقلب من مذهب الى مذهب . والحق أن اقرار أصحاب هذا الرأى بوجود خطأ يلزمهم ضرورة التسليم بوجود صواب ما دام الخطأ هو مخالفة الصواب ، « فلو لم يكن صواب » ، لم يكن خطأ ، ولو لم يكن برهان ، لم يكن شغب مخالف للبرهان . ^٢ .

ولما كان ابن حزم قد رفض أقاويل السوفسطائية ، ومزاعم القائلين بتكافؤ الأدلة ، فليس بدعاً أن نراه يقرر « أن المسامحة في طلب الحقائق لا تجوز ألبتة ، وانما هو حق أو باطل ولا يجوز أن يكون الشيء حقاً باطلاً ، ولا باطلاً حقاً ... » ^٣ . ومعنى هذا أن ابن حزم يأبى التسليم بأن جميع أقوال الناس صحيحة ، لأن هذا القول انما يعنى أن يكون الشيء باطلاً وحقاً معاً ، كما يرفض في الوقت نفسه التسليم بأن جميع أقوال الناس كاذبة ، لأن هذا القول انما يعنى اثبات الشيء

(١) المرجع السابق ، ج ٥ ص ١٣٠

(٢) المرجع السابق ، ج ٥ ص ١٣٣

(٣) « التقريب الى حد المنطق والمدخل اليه » . تحقيق د. احسان عباس ،

وضده معاً . واذن فان في الأقوال حقاً وباطلاً ، ونحن
نعرف بالضرورة أن بين الحق والباطل فرقا موجوداً
« وذلك الفرق هو البرهان ، فمن عرف البرهان ، عرف الحق
من الباطل . »^١ ، وهكذا فرى أن دعامة الجدل عند ابن حزم
انما هي البرهان (المفرق بين الحق والباطل) ؛ وليس البرهان
في نظره سوى الرجوع الى الحواس والعقل (من قرب أو من
بعد) رجوعاً صحيحاً متيقناً ...

ويشرح لنا ابن حزم في كتابه « التقریب » ، وفي كتابه
« الفصل » ، ماهية البراهين للجامعة الموصلة الى معرفة الحق ،
فيقرر أن لدينا جميعاً — الى جانب ادراكات الحواس
لمحسوساتها — ادراكاً سادساً يتم عن طريق البديهيّات . فالطفل
الصغير يعلم أن الجزء أقل من الكل ، وأن المتضادين لا يجتمعان ،
وأن الجسم الواحد لا يمكن أن يكون في مكانين في وقت واحد ،
وأن الطويل زائد على مقدار ما هو أقصر منه ، وأن الغيب
لا يعلمه أحد ... الخ . بل ان ابن حزم ليذهب الى أن الطفل
يستطيع بالبداهة التمييز بين الحق والباطل : « فانه اذا أخبر
بخبير تجده في بعض الأوقات لا يصدّقه ، حتى اذا تظاهر عنده
بمخبير آخر وآخر صدقه وسكن الى ذلك ... واذا ذكرت له
أمراً ما ، قال متى كان ، واذا قلت له لم تفعل كذا وكذا ، قال
ما كنت أفعله ، وهذا علم منه بأنه لا يكون شيء مما في العالم
الا في زمان ... واذا رأى شيئاً لا يعرفه قال : أى شيء هذا ؟

(١) « الفصل في الملل والاهواء والنحل » ، الجزء الخامس ، ص ١٢٥

فاذا شرح له سكت ... واذا رأى شيئاً قال من عمل هذا ؟
ولا يقنع البتة بأنه انعمل دون عامل ، واذا رأى بيد آخر شيئاً
قال : من أعطاك هذا ؟ ... (وهو) يكذب بعض ما يخبر به ،
ويصدق بعضه ، ويتوقف في بعضه ... الخ »^١ ، وصفوة القول
أن هناك « بديهيات » لا يختلف فيها ذو عقل ، ولا يشك ذو
تمييز صحيح في أنها صادقة لا امتراء فيها ، وتلك هي « أوائل
العقل » التي لا يجهلها الا مجنون ، أو معتوه ، أو جاهل يغالط
حسه ويكابر عقله . وابن حزم يترسل في تعداد تلك
المقدمات ، لكي يخلص الى القول بأنه لا بد للاستدلال من
الاستناد الى أمثال هذه البديهيات التي هي المقدمات الضرورية
لكل برهان . « وما شهدت له مقدمة من هذه المقدمات بالصحة
فهو صحيح متيقن ، وما لم تشهد له بالصحة فهو باطل
ساقط . »^٢

ولكن ، اذا كان الأصل في كل تفكير هو تلك المقدمات
البديهية التي لا يختلف عليها اثنان ، فمن أين نشأ الخطأ في
استدلالات الناس ، وكيف دب الفساد في الكثير من أقيسة
الفلاسفة ؟ هذا ما يرد عليه ابن حزم بقوله ان الرجوع الى تلك
« البديهيات العقلية » قد يكون من قرب أو من بعد ، فما كان
من قرب فهو أظهر الى كل نفس وأمكن للفهم ؛ « وكلما بعدت
المقدمات المذكورة ، صعب العمل في الاستدلال ، حتى يقع

(١) « الفصل في الملل والاهواء والنحل » ج ١ ، ص ٥ - ٦

(٢) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧

فى ذلك الغلط ، الا للفهم القوى الفهم والتمييز « ١ . وكما
 أن الأعداد القليلة سهلة الجمع بحيث قلما يقع فيها غلط ، فى
 حين يصعب جمع الأعداد الكبيرة ، فيزيد احتمال الوقوع فى
 الخطأ عند جمعها ، فكذلك يمكن القول بأن الاستدلال المستند
 الى مقدمات قريبة سهل ، بينما الاستدلال القائم على مقدمات
 بعيدة صعب ، أو هو على الأصح فى حاجة الى جهد عقلى
 شاق . ويضرب لنا ابن حزم مثلاً فيقول اننا نعلم بالبداهة أن
 الغيب سر محجَّب ، فاذا رأينا شخصين : يحكى أحدهما خبراً
 كاذباً طويلاً ، ثم يأتى الآخر — وهو لم يسمعه — فيحكى ذلك
 الخبر بعينه كما هو دون أدنى زيادة أو نقصان ، أمكننا أن
 نحكم باستحالة كذب ذلك الخبر ، والا لكان الحاكي لذلك
 الخبر عالماً بالغيب ، ما دام علم الغيب انما هو الاخبار عما لا يعلم
 المتخبر عنه بما هو عليه . وهكذا يستنتج ابن حزم أن « كل
 ما نقله من الأخبار اثنان فصاعداً مفترقان قد أيقنا أنهما لم
 يجتمعا ولا تشاعرا ، فلم يختلفا فيه ، فبالضرورة يتعلم أنه حق
 متيقن مقطوع به على غيبه . وبهذا علمنا صحة موت من مات ،
 وولادة من ولد ، وعزل من عزل ، وولاية من ولى ، و (عرفنا
 كذلك) البلاد الغائبة عنا ، والوقائع والملوك والأنبياء ..
 ودياناتهم ، والعلماء وأقوالهم والفلاسفة وحكمهم ... الخ . » ٢

واذن فان دعامة الجدل — في رأى ابن حزم — انما هي القدرة على الاستدلال ، ابتداءً من تلك المقدمات الأولية ، أو هي بالأحرى العلم « بحدود الكلام ، وبناء بعضه على بعض ، وتقديم المقدمات ، واثباتها النتائج التى يقوم بها البرهان وتصدق أبداً ، أو تميزها من المقدمات التى تصدق مرة وتكذب أخرى ولا ينبغي أن يُعتبرَ بها . »^١ . ولما كان العقل هو المبدأ الذى يستطيع المرء عن طريقه تمييز القول الصحيح مما ليس بصحيح من الأقوال ، فان المهمة الحقيقية للباحث الجدلى انما هي رد نتائجها الى مقدمات أولية لا تحتل الكذب . ولهذا يقرر ابن حزم مرة أخرى أن « الصحيح من الأقوال يشهد له العقل والحواس ببراهين ترده الى العقل والى الحواس ردًا صحيحًا . وأما الباطل فينقطع ويقف ، قبل أن يبلغ الى العقل والى الحواس ... »^٢ وسواء أكان موضوع جدالنا هو بعض القضايا الطبيعية ، أم بعض الأحكام الشرعية ، فانه لا بد لنا فى كلتا الحالتين من تحرّى الصواب ، بحيث لا نستنتج من النتائج الا ما توجبه مقدمات موجودة عن مثلها ، وهلمَّ جرّاء الى أن نبلغ « أوائل العقل والحس »^٣ . وليست « السفسطة » التى تحدث عنها الأوائل سوى الانطلاق من

(١) « التقريب لحد المنطق والمدخل اليه » ، طبعة الدكتور احسان عباس ،

بيروت ، ص ١٠

(٢) « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » ، ج ٥ ، ص ١٢٩

(٣) « التقريب لحد المنطق » ، ص ١٧٢

« مقدمات فاسدة » ، أو « الشغب » الناصر للباطل بسلاح « التلبيس » . وابن حزم يفيض في شرح مظاهر هذا « التلبيس » ، فيحدثنا عن الكثير من المغالطات اللفظية ، كما يتوقف طويلاً عند أخطاء الاستدلال وشتى « الجدليات الفاسدة » . وهو يضيف الى هذا كله أن التجرد عن الهوى شرط ضرورى لصحة الحكم ونزاهة الاستدلال ، فإن الآراء المتسبقة والتحيزات البغيضة كثيراً ما تقف حجر عثرة في سبيل الوصول الى تمييز صحيح الفكر من فاسده . « واعلم أنه لا يدرك الأشياء على حقائقها الا من جرّد نفسه عن الأهواء كلها ، ونظر في الآراء كلها نظراً واحداً مستوياً لا يميل الى شىء منها ، وفتش أخلاق نفسه بعقله تفتيشاً لا يترك فيها من الهوى والتقليد شيئاً البتة ... »^١ .

وحينما يحدثنا ابن حزم عن أصول الجدل ، فانه لا يتناسى — وهو الفيلسوف الأخلاقى الذى قدّم لنا كتاباً فى « أخلاق النفس والسيرة الفاضلة » — أن يشير الى الصفات الأخلاقية التى لا بد من توافرها فى أهل الجدل . فهو يحذّر المتجادلين — مثلاً — من التقول على خصومهم ، أو التباهى بآرائهم ، أو تسفيه حجج الآخرين بغير وجه حق ... الخ . ولعل من هذا القبيل مثلاً قوله : « وان أعجبت بآرائك ، فتفكر فى سقطاتك ، واحفظها ولا تنسها ، وفى كل رأى قدرته صواباً فخرج بخلافه تهديرك ، وأصاب غيرك ، وأخطأت أنت . فانك ان فعلت ذلك ،

(١) المرجع السابق ، ص ١٨١

فأقل أحوالك أن يوازن سقوط رأيك صوابه ، فتخرج لا لك ولا عليك ، والأغلب أن خطأك أكثر من صوابك ... »^١ . وهو ينبهنا - في موضع آخر - الى ضرورة « طلب الحق لنفسه فقط » ، لا لكسب مديح الناس ، أو التفاخر بأية موهبة عقلية . وأما الآفة الكبرى التي يحذرنا منها ابن حزم فهي « الكذب » ، لأن « الكذب أصل كل فاحشة ، وجامع كل سوء ، وجالب لمقت الله عز وجل ... وهل الكفر الا كذب على الله ؟ .. » ، والله الحق وهو يحب الحق ، وبالحق قامت السماوات والأرض .. »^٢ . ومن مظاهر الكذب في الجدل أن يتقوّل المرء خصمه ما لم يقل فيكذب ، أو أن يتجاهل حججه ولا يتقصّى أدلّته ، فيكون بذلك ظالماً له وغير منصف للحق نفسه . وابن حزم ينص أيضاً على خطأ آخر طالما وقع فيه المتناظرون . ألا وهو معارضة الخطأ بالخطأ في المناظرة « مثل أن يقول السائل للسئول : أنت تقول كذا ، أو لم تقول كذا ، فيقول المجيب : وأنت تقول أيضاً كذا ، فيأتيه بمثل ما أنكر هو عليه أو أشنع ، فهذا كله خطأ فاحش ، وعار عظيم ، واقتداء بالخطأ .. »^٣ . وقد يكون من مظاهر التزييف الفكري في المناظرة تعمّد الغموض أو اصطناع التعمية ، لستر ضلال أو حجب تناقض . وليس بدعاً أن نجد

(١) « رسالة الاخلاق » طبعة القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٦٢

(٢) « طوق الحمامة في الالفه والالاف » ، طبعة القاهرة ، ١٩٦٤ ، تحقيق

حسن كامل الصيرفي ، ص ٥٧

(٣) « التقريب لحد المنطق والمدخل اليه » ، ص ١٩٠ (من باب الكلام في

رتبة الجدل وكيفية المناظرة) .

ابن حزم يُلحق الغموض والتعمية بالحيانة الفكرية والزيف العقلي ، فاتنا نعرف عنه طريقته الظاهرية في معالجة المواضيع بوضوح وصراحة . ولعل هذا ما لاحظته أحد الباحثين حينما وصف لنا منهج ابن حزم فقال : « انه لا يؤوّل كالباطنية ، ولا يقيس كالحنفية ، ولا يكنى ولا يورى ولا يغمم ، بل يعيش قدما واضحا صريحا لا يحمل اللفظ أكثر مما يطيق من معنى ، ولا يدعى دعوى الا أرفقها بشاهدها ، وأيدها بمرورى متسلسل الأسناد . »^١ . وابن حزم ينبها في هذا الصدد الى أن بعض المتجادلين (بل بعض المؤلفين) قد يستعملون كلاما مستغلقا بقصد التمويه على القراء ، أو المستمعين ، فيظن المرء أن كلامهم مملوء حكمة ، وهو في الحقيقة مملوء هذرا . ويضرب لنا ابن حزم مثلا لهذا النوع من التمويه فيقول انه قرأ كتاب « اللع » لأبي الفرج القاضى ، فما وجد فيه الا « كلاما معقدا مغلقا ، لا معنى له الا التناقض والهدم لما بنى . وفي زماننا من سلك هذا الطريق في كلامه ، فلعمري لقد أوهم خلقا كثيرا أنه ينطق بالحكمة ، ولعمري ان أكثر كلامه ما يفهمه هو ، فكيف يفهمه غيره » !^٢ .

والحق أن ابن حزم الجدلى انما هو أعدى أعداء التعقيد ،

(١) مدوح حقى : مقدمة كتاب « حجة الوداع » لابن حزم ، طبعة دمشق ،

دار اليقظة العربية ، ص ٨

(٢) « التقريب لحد المنطق » ، ص ١٩٧ (والكتاب المشار اليه هو كتاب

اللع فى أصول الفقه) .

والغموض ، والتعمية ، فهو يوجب على المتناظر أن يصوغ أسئلته واضحة ، سليمة من كل قص أو اشكال ، وهو ينبهه الى ضرورة تحديد موضوع بحثه تحديداً دقيقاً صارماً ، بحيث لا يتقحم على المناظرة (أو على المناقشة) ما ليس منها ويدخل في هذا الباب أيضاً ما قد يلجأ اليه البعض من استطراد يطيل معه الكلام بلا داع ، « حتى يتنسى آخره أوّله » ! ومثل هذا الاستطراد قد يدفع بالمتناظر الى الانتقال من قول الى قول ، ومن سؤال الى سؤال ، على سبيل التخليط ، لا على سبيل الابانة . ولا شك أن تكرار الكلام بلا زيادة فائدة انما هو ضرب " من العي " ، ان لم نقل بأنه سَفَه لا معنى له . والظاهر أن معظم ضروب الجدل التي كانت سائدة في عصر ابن حزم كانت من هذا الطراز ، فاننا نجد يندد بمثل هذا النوع من التناظر ، لما ينتهي اليه في العادة من سَبِّ وتكفير ولعن وسفه وقذف ^١ .. الخ . وأما المتناظر المنصف فهو ذلك الذي يتأمل مقدماته ومقدمات خصمه ، وتنتائج وتنتائج خصمه ، دون أن يرضى لنفسه من خصمه الا بالحق الواضح ^٢ . ولكن ليس معنى « الوضوح » في نظر ابن حزم أن يطالبك خَصْمُكَ بأن تصوّر له ما لا سبيل الى تصويره ، أو ما لا صورة له أصلاً ، فان هناك من المعاني ما لا يقبل التجسيم أو التشكيل بأي حال من الأحوال . ويسوق لنا ابن حزم مثلاً

(١) المرجع السابق : ص ١٩٧

(٢) المرجع السابق : ص ١٩٢

فيقول انك اذا أخبِرتَ خصمك بأن الواحد الأول ليس
بجوهر ولا عرض ولا جسم ، لأنه ليس حاملا ولا محمولا ،
كما أنه ليس في زمان ولا في مكان ، فليس من حق خصمك
أن يطلب اليك تشكيل هذا المعنى ، اللهم الا اذا كان من حق
الأعمى أن يكلف البصير أن يصور له الألوان ! ومن هذا القبيل
أيضا ما يرويه ابن حزم من أن أحد أصدقائه طلب اليه يوما أن
يريه « العَرَض » معزولا عن « الجوهر » قائما بنفسه ، بحجة
أنه ان لم يَرَ ذلك فانه لا يصدق أن يكون ثمة عرض ! وراح
ابن حزم يريه كيف أن قطعة الطين قد تكون مستديرة ، وقد
تكون مربعة ، وقد تكون مثلثة ، فتذهب هذه الأعراض جميعا
وتبقى قطعة الطين كما هي ، وكيف أن المرء قد يجلس أو يقوم
أو يذهب ، كما أن الثوب قد يَسودُ بعدَ بياضه ، أو
قد يَتصبَّغَ بلون آخر أحمر كان أم أزرق .. الخ ، فلا يكون
الثوب الا ثوبا ، ولا يكون الانسان (في جلوسه وقيامه وذهابه)
الا انسانا . ولكن صاحبه ظل عند رأيه في ضرورة رؤيته
للعرض مثزلا عن الجوهر ، قائما بذاته ، وفكاته أن العرض
لو قام بنفسه وكان كما يريد ، لم يكن عرضا أصلا ! « ولو
جاز لكل من لا يتشكل في نفسه شيء أن ينكره ، لجاز للأخشم
أن ينكر الروائح ، والذي ولد أعمى أن ينكر الألوان ، ولأنه
أن تنكر الفيل والزرافة وكل هذا باطل . وإنما يجب على العاقل
أن يثبت ما أثبت البرهان ، ويثبت ما أبطل البرهان ، ويقف

فيما لم يثبتته ولا أبطله برهان ، حتى يلوح له الحق ١ » .
وواضح من هذا النص أن ابن حزم لا يريد أن يقيس الغائب
على الشاهد ، لأنه يعلم حق العلم أنه ليس أشنع من ذلك الخطأ
الذي يقع فيه بعض العلماء حينما يحاولون قياس الغيبات على
الطبيعات مع البون الشاسع بين عالم الغيب وعالم الشهادة ٢ .

ولم يكن غريباً على ابن حزم الذي ألف كتاباً في « إبطال
القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل » أن يحمل
بشدة على الآخذين بمبدأ « التقليد » أو المتسكين بآراء
الأقدمين ، أو المستندين في أحكامهم الى حجج السابقين . وهو
ينص على ذلك بصراحة فيقول : « التقليد حرام ، ولا يحل
لأحد أن يأخذ بقول أحد من غير برهان ٣ » . ويقول في موضع
آخر : « اياك وتقليد الآباء ، فقد ذم الله عز وجل ذلك ، ولو
كان محموداً لعذر من وجد آباءه زناة أو سراقاً أو على بعض
الخلال التي هي أخبث مما ذكرنا أن يقتدى بهم ٤ » . ومعنى
هذا أن ابن حزم يرفض « المذهبية » ، ويأبى أن يجيز لأى
إنسان أن يجىء الى عالم ، فيأخذ كل أقواله ، ويقلدها ويتبعه
في كل ما وصل اليه ، دون أن يفرق بين قول وقول ، أو بين

(١) ابن حزم : « التقريب لحد المنطق والمدخل اليه » ، ص ١٦٢ - ص ١٦٣

(٢) سعيد الأفغانى : مقدمة للخص « إبطال القياس والرأى والاستحسان

والتقليد والتعليل » ، دمشق ، ص ١١

(٣) ابن حزم : « النبد » ، مطبعة الانوار بمصر سنة ١٩٤٠ ، ص ٥٤

(٤) « التقريب لحد المنطق ... » ، ص ١٦٥

رأى ورأى . ويمضى ابن حزم الى حد أبعد من ذلك فيقول :
« اياك والاعتذار بكثرة صواب الواحد ، فتقبل له قولة واحدة
بلا برهان ، فقد تخطر في خلال صوابه بما هو أئين وأوضح من
كثير مما أصاب فيه ^١ » . ومعنى هذا أن ابن حزم يرفض كل
« سلطة فكرية » ، لأنه يرى أن المصيب قد يخطئ ، والسائر
في طريق الحق قد يضل ، فلا موضع للتسليم بأى مذهب من
المذاهب في جملة وة ولا موجب للأخذ عن أى امام
من الأئمة ، وكأنما هو نبي . عصوم تماما من الخطأ ! وسرى فيما
بعد كيف نفى ابن حزم العصمة عن أى مخلوق ما من المخلوقات ،
فيما عدا الأنبياء والرسل الذين تقع على يدهم خوارق
العادات .

وهكذا نرى أن ابن حزم قد اشترط للجدال الكثير من
الشروط الفكرية ، والنفسية ، والأخلاقية ، فجعل منه جهداً
عقليا شاقا يستلزم اتباع منهج خاص ، ويتطلب التجرد عن
الأهواء ، ويقتضى الاخلاص لوجه الحق ، فكان بذلك العدو
الأكبر للسفسطة ، والخصم الأول لشتى ضروب الزيف
الفكرى ، والناطق الأسمى باسم العقل والمنطق والبحث النزىه
الموضوعى . ولهذا فأننا نراه يختم حديثه عن الجدل بتوجيه
النصيحة الى طالبه قائلاً : « واعلم أن ما ذكرنا من الوقوف
على الحقائق لا يكون الا بشدة البحث ، وشدة البحث لا تكون

(١) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

الا بكثرة المطالعة لجميع الآراء والأقوال ، والنظر في طبائـ
الأشياء ، وسماع حجة كل محتج ، والنظر فيها والتفتيش ؛
والإشراف على الديانات والنحل والمذاهب والاختيارات ؛
واختلاف الناس وقراءة كتبهم ... الخ^١ .

والمسأمل في مناظرات ابن حزم التي حفلت بها كتبه
ورسائله ، يدرك أن هذا الرجل الذي ناقش الفلاسفة والمتكلمين
والأئمة والفقهاء وأصحاب الفرق المختلفة كان على المام واسع
بشتى النحل والملل ، وعلى دراية كبرى بالكثير من العقائد
والمذاهب ، فكافت حياته الفكرية صراعا مستمرا ، وجدالا
طويلا . ولئن كانت بعض مناظرات ابن حزم (خصوصا مع
أعداء الاسلام من المشركين والملحدين) لم تكن تخلو من
عنف وتناول ، الا أننا نشعر شعورا واضحا بأن ابن حزم كان
مخلصا في جدله ، مؤمنا بما يقول ، شديد التحمس لما يظنـ
الحق . وقد يأخذ عليه الكثيرون أنه لم يراع في جداله كثيرا
من الشروط التي نص عليها في كتبه ، ولكن من المؤكد أن جدل
ابن حزم لم يكن من ذلك النوع المذموم الذي وصفه لنا هو
نفسه حينما تحدث عن المجادل بغير علم ، والمجادل لنصرة
الباطل بشغب وتمويه بعد ظهور الحق . ونحن لا ننكر أن ابن
حزم قد اشتط أحيانا في حكمه على بعض عقائد أصحاب الفرق
الأخرى ، ولكننا نميل الى الظن بأن هذا الشطط لم يكن وليدـ

(١) « التقريب لحد المنطق والمدخل اليه » : ص ١٦٨

مكابرة أو عناد ، بل كان مجرد تعبير عن إيمانه العميق بأن المساومة
في الحق خيانة فكرية كبرى !

ولن نستطيع أن نختم حديثنا عن ابن حزم الجدلي دون أن
تشير الى نموذج أو أكثر من نماذج جداله مع أهل الديانات
الأخرى. فهو في رده - مثلاً - على ابن النغيلة اليهودي ينتهز
فرصة إبطال أقوال خبصنمه ، فلا يكتفى بالدفاع عن
الاسلام ، بل يمضي الى الهجوم على التوراة ، مع الاستشهاد
بالكثير من النصوص ، والتعرض لمزاعم رجالات الملة اليهودية .
وهو يعتمد في مناقشته لنصوص التوراة على الأوليات العقلية
والمقدمات البديهية ، فيسرد الآية أو الخبر أو القصة ثم يفند
ما فيها من تناقض أو استحالة أو مجافاة للعقل . ولعل من هذا
القبيل مثلاً ما أورده ابن حزم نقلاً عن سفر الخروج من أن الله
قال لموسى انه سيهلك بني اسرائيل ، وسيقدمه هو على
أمة أخرى عظيمة ، وكان الله يكلم موسى فما لهم ، كما يكلم
المرء صديقه ، فلم يزل موسى يتوعد الى ربه ، ويطلب اليه
المغفرة ، حتى أخذ الرب بقول موسى ورضى عن شعب اسرائيل !
وابن حزم يعقب على هذه الرواية بقوله : « ان في هذا الفصل
من السخف غير قليل ، ... لأن فيه البذاء ، تعالى الله عما
يقولون علواً كبيراً ... وفيه التكليم فما لهم ، وتحقيق التجسيم
والتناقض على البارئ تعالى في كلامه وفعله ، دون تأويل ، ولا

مخرج لهم من هذا ^١ . وهو يورد أيضا في كل من « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، وفي « الرد على ابن النغريلة » قصة تعبد بنى اسرائيل لعجل من ذهب صنعه لهم هارون أخو موسى ، وكيف أن موسى عليه السلام وجد بنى اسرائيل عرا بين يدي العجل ، يتغنون ويرقصون ، وكان هارون قد عراهم بجهالة قلبه ! وهو يعقب على هذه القصة بقوله : « هذه نصوص كتابهم . أفيسوغ في عقل من له أدنى مسكة ، أن يكون نبي يعمل عجلا للعبادة من دون الله تعالى ، ويأمر قومه يعبدوا له : ويرقص هو وهم تعظيما للعجل على أنه الههم الذي من مصر ، وإذا جاز أن يكون عجلا وثنا ويعبدوه ، جاز لنبي آخر أن يزني ، فكيف يصدق في شيء من كلامه ، وما الذي جعل سائر كلامه أولى بالقبول من كلامه وأمره في العجل ؟ .. والذي لا شك فيه عندي أن من بدّل توراتهم ، ودخل فيها مثل هذا ، إنما قصد الى ابطال النبوة جملة ^٢ » .. ويعجب ابن حزم أيضا لما ورد في التوراة من أن يعقوب عليه السلام صارع ربه ليلة بتمامها ، وهو لا يعرف من هو ، فلما انسلخ الصباح ، عرف أنه الله ، فلما عرفه أمسكه فقال له ربه : أطلقني : فقال له يعقوب : لا أطلقك حتى تباركني : فقال له ربه : كيف لا أباركك ، وأنت كنت قويا على الله فكيف على الناس ؟ ! ثم

(١) « الرد على ابن النغريلة » ، ص ٥٨ - ٥٩ (والبدء بغير ارادة الله لتغير علمه) .

(٢) « الرد على ابن النغريلة » ، ص ٧١ ، « الفصل في الملل والاهواء والنحل » ، ج ١ ، ص ١٦١ - ١٦٢

مس مأبضه ، فخرج يعقوب من وقته ! . وهو يعقّب على هذه القصة بقوله : « ... ولا يجرؤ منهم أحد فيقول : ان المصارع ليعقوب كان ملكاً ، فان لفظ اسم المصارع له في توراتهم « الوهيم » وهذا هو اسم الله تعالى وحده بالعبرانية ، فلو أن هذا الجاهل (أى ابن النغيلة اليهودى) تفكر فى مثل هذا وشبهه ، لعلم أن الحق بأيدى غيرهم ، وأنهم فى باطل وغرور ، وعلى ضلال وزور^١ .

ولسنا نريد أن نسترسل فى اعطاء نماذج أخرى لمناقشات ابن حزم مع اليهود (وغيرهم من أصحاب العقائد الأخرى) ، وانما حسبنا أن نحيل القارئ الى الجزأين الأول والثانى من كتاب « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » ، فانهما مليّان بالكثير من المناقشات الدقيقة لنصوص التوراة والانجيل ، لا من وجهة نظر عقلية فحسب ، وانما من وجهة نظر تاريخية أيضا . وقد كان ابن حزم أسبق من الكثير من علماء الأديان ورجالات النقد التاريخى الى دراسة التوراة والانجيل بروح الفيلسوف المتعمق والمؤرخ الفاحص المدقق ، حتى اننا لنجد فى تضاعيف كتبه الكثير من الآراء التى سوف يرددها من بعد خصوم المسيحية من أمثال : دافيد شتراوس ، وبرونو باور ، ورنان ، وغيرهم . وقد يكون من الطريف أن يعمد الباحث الى القيام بدراسة مقارنة لكتب ابن حزم فى نقد الديانتين اليهودية

(١) «الرد على ابن النغيلة» ص ٦٢ ، «الفصل فى الملل والاهواء والنحل» ،

ج ١ ، ص ١٤١ - ١٤٢

والمسيحية ، ومؤلفات أنصار الفكر الحر من رجالات المدرسة
الانجليزية المعاصرة ، فانه واجد بلا شك لدى فيلسوفنا العربى
الكثير من الآراء المطابقة لما انتهى اليه أولئك « المفكرون
الأحرار » . ومهما يكن من شيء ، فقد كان ابن حزم رجاء
الجدل الأول فى تاريخ الفكر الأندلسى ، لا بشهادة أنصاره
وتلاميذه فحسب ، بل وبشهادة خصومه ومعارضيه أيضا . ولو
لم يترك لنا ابن حزم سوى تلك المجلدات الضخمة التى كتبها
فى مناقشة أهل العقائد الأخرى من غير المسلمين ، لكان حربه
فخراً أن يكون قد قضى حياته فى تعمق دراسة الأديان ،
والغوص فى أسرار الملل ، والعمل على سَـبـِّر أغوار
المذاهب ... الخ .

الفصل الثالث

ابن حزم المتكلم

لذا كنا قد تحدثنا عن ابن حزم المنطقي ، وابن حزم الجدلي ،
فقد وجب علينا الآن أن نتحدث عن ابن حزم المتكلم . ولا نرانا
في حاجة الى القول بأن ابن حزم لم يشغل نفسه بالمنطق ، ولم
يدافع كل هذا الدفاع عن الجدل ، الا لكي يستخدم مبادئه
المنطقية في مناقشته لأهل الفرق الكلامية ، ولكي يطبق منهجه
الجدلي على دراسته للعقائد الاسلامية . ولن يتسع المجال
— بطبيعة الحال — للأسهاب في عرض آراء ابن حزم العديدة
في نظريات المعتزلة ، والأشاعرة ، والمرجئية ، والشيعة ،
والخوارج ، وانما سنقتصر على الامام بأهم المعالم البارزة في
مذهبه الكلامي ، مكتفين بذكر آرائه في التوحيد ، ونفي
التشبيه ، والأسماء الالهية ، والجبر والاختيار ، والقضاء
والقدر ... الخ . وقد أخبرنا ابن حزم نفسه أنه كان قد ألف
كتاباً في مناقشة أهل الفرق الاسلامية أطلق عليه اسم :
« النصائح المنجية من الفضائح المخزية والقبائح المردية من
أقوال أهل البدع من الفرق الأربع : المعتزلة والمرجئية
والخوارج والشيعة » . ثم عاد ابن حزم فأضاف هذا الكتاب

الى مجلده الضخم المسمى باسم « الفصل » تحت عنوان :
« ذكر العظائم المخرجة الى الكفر أو الى المحال من أقوال أهل
البدع المعتزلة والخوارج والمرجئية والشيعة »^١ . وهو يعتمد
في مناقشته لأهل الفرق الاسلامية (في هذا الفصل وغيره)
على مصدرين : أولهما المبادئ العقلية المقررة في أوائل الحس
وبدائه العقل ، وثانيهما : النصوص . ولهذا يرفض ابن حزم
منذ البداية شتى النظريات القائلة بالتأويل أو القياس أو
التعليل ، مؤكداً أن « دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه ، وجهر
لا سر تحته ، كله برهان لا مسامحة فيه ... وكل من ادعى
للديانة سرّاً وباطناً ، فهي دعاوى ومخارق ... وما كان عند
الرسول عليه السلام سر ولا رمز ولا باطن ، غير ما دعى الناس
كلهم اليه ... »^٢ .

ولما كان لب العقيدة الاسلامية هو الايمان بالوحدانية ،
فليس بدعاً أن نجد ابن حزم يهتم — في المقام الأول — بالكلام
في التوحيد ونفى التشبيه . وقد ذهبت طائفة من طوائف
المتكلمين — وهم المشبهة — الى القول بأن الله تعالى جسم ،
وحجتهم في ذلك أنه لا يقوم في العقول الا جسم أو عرض ،
فلما بطل أن يكون تعالى عرضاً ، ثبت أنه جسم . هذا الى أن

(١) ابن حزم : « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ج ٢ ، ص ١١١ ،
ج ٤ ص ١٧٨ — ٢٢٧ ، وانظر أيضاً : « دائرة المعارف الاسلامية » ، ج ١ ،
ص ١٤٠ .

(٢) « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، ج ٢ ، ص ١١١

الفعل لا يصح الا من جسم ، والبارى تعالى فاعل ، فهو اذن جسم . وفضلا عن ذلك ، فقد ورد في الكثير من الآيات القرآنية ذكر اليد واليدين والأيدى والعين والوجه والجنب ؛ وهذه كلها دلائل على أن الله جسم . وابن حزم يرد على هذه الحجج فيقول : ان ادعاءهم بأنه لا يقوم في المعقول الا جسم أو عرض قسمة ناقصة ، وانما الصواب أن يقال انه لا يوجد في العالم سوى جسم أو عرض ، وكلاهما يقتضى بطبيعته وجود محدث له . ولو كان محدثها جسماً أو عرضاً ، لاقتضى بالضرورة فاعلاً فعله ، واذن فقد لزم ألا يكون فاعل الجسم والعرض جسماً ولا عرضاً . « ولو كان البارى — تعالى عن الحادهم — جسماً ، لاقتضى ذلك ضرورة أن يكون له زمان ومكان هما غيره ، وهذا ابطال التوحيد ، وايجاب الشرك »^١ .

وأما اذا اعترض المشبهة بقولهم : انكم تقولون ان الله عز وجل حي لا كالأحياء ، وعليم لا كالعلماء ، وقادر لا كالقادرين ، وشيء لا كالأشياء ، فلم منعتم القول بأنه جسم لا كالأجسام ؟ ، كان رد ابن حزم على هذا الاعتراض أنه « لولا النص الوارد بتسميته تعالى بأنه حي وقدير وعليم ما سميناه بشيء من ذلك ؛ لكن الوقوف عند النص فرض ، ولم يأت نص بتسميته تعالى جسماً ، ولا قام البرهان بتسميته جسماً ، بل البرهان مانع من تسميته بذلك تعالى . ولو أتانا نص بتسميته تعالى جسماً ،

(١) « الفصل في الملل والنحل » ، ج ٢ ، ص ١١٧

لوجب علينا القول بذلك ، وكنا حينئذ نقول انه لا كالأجسام.»^١
ومن هنا فان ابن حزم يؤكد أن من قال ان الله تعالى جسم ،
فقد ألحد في أسماء الله تعالى ، اذ سماه عز وجل بما لم يسم
به نفسه .

وأما الألفاظ الموهمة بالتشبيه من أمثال قوله تعالى : « يد
الله فوق أيديهم » أو : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » ،
أو « يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله » ، أو « فانك
بأعيننا » ... الخ ، فان ابن حزم لا يرى داعيا لتأويلها على
غير ظاهرها ، كما فعل البعض مثلاً حينما قال ان المراد باليد
القوة والسلطان ، والمراد بالوجه الذات العلية ، والمراد
بالاستواء على العرش الاستيلاء الكامل على كل ما في هذا
الوجود ، بل هو يذهب الى أن كل تلك الألفاظ الموهمة
بالتشبيه هي مجاز ظاهر يفهمه كل عربي ، دون حاجة الى أدنى
تأويل . فوجه الله — مثلاً — ليس غير الله تعالى ، بدليل قوله
عز وجل حاكيا عن رضى عنهم من الصالحين : « انما نطعمكم
لوجه الله » ، وهم لا يقصدون بذلك غير الله تعالى ؛ وقوله
أيضاً : « أينما تولوا فثم وجه الله » ، ومعناه : فثم الله تعالى
بعلمه وقبوله لمن توجه اليه . وأما يد الله ، فان ابن حزم لا يرى
داعياً لتفسيرها بالنعمة — كما فعلت المعتزلة — « لأنها دعوى
بلا برهان » ، بل هو يقرر أن يد الله هي الله عز وجل لا شيء

(١) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١١٨ - ١١٩

غيره . ودليله على ذلك أن الله تعالى يقول عن الدخول بالجارية بسبب ملكيتها « وما ملكت أيمانكم » ، والمراد بطبيعة الحال : « وما ملكتم » وما فهم أحد أن المراد ملكية اليد اليمنى دون سواها ، وإنما هي مجازات مشهورة تعد كأنها حقائق لغوية ، لها مكانها من البلاغة ، ومراعاة مقتضى الحال ^١ . وقال تعالى حاكيا عن قول قائل ، قال : « يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله » ، وهذا معناه فيما يقصد به الى الله عز وجل ، وفي جنب عبادته . وأما قوله : « فانك بأعيننا » ، فإن المراد به قرب الله وقرب الله منه . وهكذا نرى أن ابن حزم ينادى بضرورة حمل الآيات القرآنية على ظاهرها ، ما لم يمنع من حملها على ظاهرها نص آخر أو اجماع أو ضرورة حس .

واذا كان هناك حديث ثابت يقول : « خلق الله آدم على صورته » ، فإن ابن حزم يرفض ما قاله الأشاعرة عن هذا الحديث من أن الله خلق آدم على صفة الرحمن من الحياة والعلم والافتقار وصفات الكمال ، بدليل أنه أسجد له ملائكته كما أسجدهم لنفسه ، وجعل له الأمر والنهي على ذريته كما كان لله كل ذلك ، بل هو يؤكد أن كلمة « صورته » في الحديث النبوي الشريف هي اضافة ملئك ، بمعنى أن الله خلق آدم على الصورة التي أرادها أو تخيرها له سبحانه وتعالى ^٢ . وابن حزم

(١) محمد أبو زهرة : « ابن حزم ، حياته وعصره ، آراؤه وفقهه » ، دار

الفكر العربي ، ١٩٥٤ ، ص ٢٢٤

(٢) « الفصل في الملل والنحل » ، ج ٢ ، ص ١٦٧ . (والمرجع السابق :

ص ٢٢٥) .

يضيف الى ذلك أنه لا موضع للمساواة بين الله عز وجل وآدم في الحياة والعلم والاقتدار واجتماع صفات الكمال فيهما ، خصوصاً وأن الله يقول : « ليس كمثله شيء » . وليس سجود الملائكة لآدم كسجودهم لله : لأن سجودهم لله تعالى سجود عبادة ، ولآدم سجود تحية واکرام . ومن قال ان الملائكة عبدت آدم كما عبدت الله عز وجل ، فقد أشرك . وأما القول بأن صفات الكمال التي لله تعالى قد اجتمعت في آدم ، فهذا هو الاتحاد بعينه ، خصوصاً وأن صفات الكمال في الملائكة أكثر منها في آدم نفسه ^١ .

بل ان ابن حزم ليذهب الى حد أبعد من ذلك فيقرر أن اطلاق لفظ « الصفات » لله تعالى مُحال لا يجوز ، لأن الله عز وجل لم ينص قط في كلامه المنزل على لفظة الصفات ولا على لفظ الصفة ، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينسب الى الله يوماً صفة أو صفات ، ولا جاء ذلك قط على لسان واحد من الصحابة ، ولا عن أحد من خيار التابعين .. الخ « وإنما اخترع لفظ الصفات المعتزلة وهشام ونظراؤه من رؤساء الرافضة ، وسلك سبيلهم قوم من أصحاب الكلام ، سلكوا غير مسلك السلف الصالح ، ليس فيهم أسوة ولا قدوة ... وربما أطلق هذه اللفظة من متأخري الأئمة من الفقهاء من لم يحقق النظر فيها ، فهي وهلة من فاضل ، وزلة من عالم ، وإنما الحق في الدين

(١) « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، ج ٢ ، ص ١٦٨

ما جاء عن الله نصًّا أو عن رسوله (ص) كذلك ، أو صح
اجماع الأمة كلها عليه ، وما عدا هذا فضلال ، وكل متحدثه
بدعة . » ^١ فان قيل ان كتاب الله يقول عنه تعالى وتبارك انه
العليم ، الحكيم ، الرحيم ، القدير ، المرید ، السميع ، البصير ..
الخ ، كان رد ابن حزم على ذلك أن كل هذه أسماء لله تعالى ،
وليست نعوتاً أو صفات قد يحق لنا معها أن ننسب الى الله
صفات العلم ، والحكمة ، والرحمة ، والقدرة ، والسمع ،
والبصر ... الخ : « ... وكل هذه فانما هي لله عز وجل أسماء
بنص القرآن ونص السنة والاجماع من جميع أهل الاسلام .
قال الله تعالى : « والله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا
الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » . وقال
تعالى : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله
الأسماء الحسنى » ... ولم يختلف أحد من أهل الاسلام في أنها
أسماء لله تعالى ولا في أنها لا يقال انها نعوت له عز وجل ولا
أوصاف الله . ولو وجد في المتأخرين من يقول ذلك لكان قولاً
باطلاً ومخالفة لقول الله تعالى ... » ^٢ . وتبعاً لذلك فان ابن حزم
لا يفهم من قولنا « قدير » و « عالم » (عند الحديث عن الله
تعالى) الا ما يفهم من قولنا « الله » فقط ، لأن كل هذه في
نظره أسماءٌ علام ، لا موصوفات مشتقة من صفات . صحيح
اتنا اذا قلنا عن الله تعالى انه بكل شيء عليم ، أو انه يعلم

(١) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٢١

(٢) المرجع السابق : ج ٢ ، ص ١٥٠ - ١٥١

الغيب ، فأتنا تنسب اليه معلومات ، وقرر أنه لا يخفى عليه شيء ، ولكن هذا القول لا يعنى مطلقاً أن يكون لله علم هو غيره ، أو أن يكون علم الله تعالى شيئاً غير الله عز وجل . ولهذا يقرر ابن حزم أن « علم الله تعالى حق ، وقدرته حق ، وقوته حق ، وكل ذلك ليس هو غير الله تعالى ، ولا العلم غير القدرة ، ولا القدرة غير العلم ، إذ لم يأت دليل بغير هذا لا من عقل ، ولا من سمع .. »^١

وهنا يثور ابن حزم على الأشاعرة لقولهم ان الله سبحانه وتعالى عالم بعلم ، وقادر بقدرة ، وكأن علم الله غير الله تعالى وخلافه ، وان يكن لم يزل مع الله تعالى ، أو كأن قدرته غيره سبحانه وخلافه ، وان تكن لم تزل معه تعالى . وهو يقول في الرد على هذا الرأي : « هذا قول لا يحتاج في رده الى أكثر من أنه شرك مجرد ، وإبطال للتوحيد : لأنه اذا كان مع الله تعالى شيء غيره لم يزل معه ، فقد بطل أن يكون الله تعالى كان وحده ، بل قد صار له شريك في أنه لم يزل ، وهذا كفر مجرد ، ونصرانية محضة ، مع أنها دعوى ساقطة بلا دليل أصلاً . وما قال بهذا أحد قط من أهل الاسلام قبل هذه الفرقة المحدثثة بعد الثلاث مائة عام ، فهو خروج عن الاسلام وترك للاجماع المتيقن ... »^٢ . وابن حزم هنا يناقش مشكلة كلامية هامة هي مشكلة الصفات الالهية ، فهل هي شيء غير الذات ، أم هي

(١) المرجع السابق : ج ٢ ، ص ١٢٩

(٢) « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ج ٢ ، ص ١٣٥

والذات شيء واحد ؟ وهو يزعم أن الأشاعرة بقولهم ان علم الله غير ذاته قد وقعوا في الشرك ، لأنهم جعلوا من العلم الالهي حقيقة أزلية قائمة الى جوار الله . وليس من شك في أن الأشاعرة لم يقولوا بحال ان الله شريكاً : اذ الشريك ذات مغايرة لله اتصفت بالألوهية مثله ، ولكنهم هم لم يقولوا بذلك ، بل هم قد تزهوا الله عن الشريك ، مقررين في الوقت نفسه أن الله ذات تتصف بصفات ، دون أن يقولوا ان هذه الصفات مساوية لله في الجوهر . ولكن ابن حزم — في تمسكه بالوحدانية الخالصة — يأبى التسليم بأنه قد كان مع الله تعالى شيء غيره لم يزل ، حتى ولو كان هذا الشيء هو العلم الالهي نفسه !

ويعود ابن حزم الى مهاجمة الأشاعرة في موضع آخر فينسب الى الباقلاني أنه قال ان الله تعالى خمس عشرة صفة ، كلها قديمة لم تزل مع الله تعالى ، وكلها غير الله تعالى وخلافه ، وكل واحدة منهن غير الأخرى ، وخلاف لسايرها ، وأن الله تعالى غيرهن وخلافهن . وهو يعقب على هذا الرأي فيقول : « هذا والله أعظم من قول النصارى وأدخل في الكفر والشرك لأن النصارى لم يجعلوا مع الله تعالى الا اثنين هو ثالثهما ، وهؤلاء جعلوا معه تعالى خمسة عشر هو السادس عشر لهم وقد صرّح الأشعري في كتابه المعروف بالمجالس بأن مع الله تعالى أشياء سواه لم تزل كما لم يزل . »^١ والذي نعلمه أن

(١) المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٢٠٧

الأشاعرة قد ثاروا على القائلين بنفى الصفات ، كما يظهر بوضوح من قول الأشعري : « الحمد لله الذى بصرنا خطأ المخطئين ، .. وحيرة المتحيرين ، الذين تقوا صفات رب العالمين ، وقالوا : ان الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه — لا صفات له ، وأنه لا علم له ، ولا قدرة له ، ولا حياة له ، ولا سمع له ، ولا بصر له ، ولا جلال له ، ولا عظمة له ، ولا كبرياء له ، وكذلك قالوا فى صفات الله عز وجل التى يوصف بها لنفسه . وهذا قول أخذوه عن المتفلسفة الذين يزعمون أن للعالم صانعاً لم يزل ليس بعالم ولا قادر ولا حى ولا سميع ولا بصير ولا قديم ، وعبروا عنه بأن قالوا تقول : عين لم يزل ، ولم يزيدوا على ذلك ^١ » . ولكن ابن حزم يأخذ على جماعة الأشاعرة « طريقتهم الفاسدة » فى اثبات علم الله وقدرته وعزته وكلامه ، لأنه يرى أن فى هذه الطريقة ابطالا للوحدانية وتورطاً فى الشرك ، وكأن الأشاعرة بقولهم ان علم الله غير ذاته قد خرجوا على تعاليم الكتاب !

أما حين يزعم بعض الأشاعرة أن علم الله ليس هو الله تعالى ، ولا هو غيره ، وانما هو صفة ذات لم تزل ، فان ابن حزم يرد عليهم بقوله ان هذا الكلام فاسد محال ، لأننا هنا بازاء تناقض يجعل كلامهم يبطل بعضه بعضاً ! وآية ذلك أنهم

(١) أبو الحسن الأشعري : « مقالات الاسلاميين » ، طبعة الاستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مكتبة النهضة ، ١٩٥٠ ، الجزء الثانى ، ص ١٥٦

إذا قالوا ان علم الله ليس هو الله تعالى ، فقد أوجبوا ضرورة أن يكون علم الله غيره . ولكنهم يعودون فيقررون أن علم الله ليس غيره ، وبذلك يبتطلون الغيرية ويوجبون بهذا القول أن يكون هو ! واذن فنحن هنا بازاء قفى واثبات معا ، يستوى في ذلك أن يكون معنى قولهم ان علم الله لا هو هو ولا غيره ، أم أن يكون معناه ان علم الله هو هو وهو غيره ! ولم يجد الأشاعرة أدنى صعوبة في الرد على هذا النقد ، فقد قال قائلهم : « ان صفات الله ليست هو ولا غيره غيراً منفكاً ، بمعنى أن صفاته العلية لا تنفك عن ذاته وتعدم ، مع أنها ليست عين الذات ^١ » . ومعنى هذا — على حد تعبير بعضهم — أن الله حامل لصفاته في ذاته ، دون أن تكون صفاته عين ذاته . وابن حزم يأخذ عليهم — في هذا الصدد — أنهم قد جعلوا من لفظ « الله » عبارة تقع على ذات الباري وجميع صفاته ، لا على ذاته دون صفاته . وهو يروى لنا أنه قال يوماً لأحد الأشاعرة : « أتعبد الله أم لا ؟ فقال لي : نعم . فقلت له : فانما تعبد اذا باقرارك الخالق وغيره معه ، فيكفيك . فنفر نفرة وقال : معاذ الله من هذا ، ما أعبد الا الخالق وحده . فقلت له : فانما تعبد اذا باقرارك بعض ما يسمّى به الله . فنفر أخرى وقال : معاذ الله من هذا ، وأنا واقف في هذه المسألة » ^٢ .

(١) ابن حزم : « الفصل في الأهواء والملل والنحل » ، ج ٢ ، ص ١٣٧

(انظر الهامش) .

(٢) المرجع السابق : ج ٤ ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨

ولكن ، اذا كان ابن حزم قد غارض مذهب الأشاعرة في اثبات الصفات ، فهل يكون معنى هذا أنه قد عاد الى رأى بعض المعتزلة من المتكلمين في نفى الصفات ؟ هذا ما تكفل ابن حزم بالاجابة عليه حينما قال ان ما يسمونه بصفات الله انما هى أسماء أعلام غير مشتقة ، فليس لنا سوى أن نسمى الله بـ «وجل بما سمى به نفسه ، دون أن نزيد على ما أتى به النص» شيئاً ، ما دام فى وسعنا أن نأخذ النص على ظاهره دون تكلف، تأويل . وحسبنا أن ثجرت الألفاظ الموهمة بالتشبيه على المنهاج العربى الصحيح ، لكى تتحقق من أنها جميعا مجازات ظاهرة يفهما كل عربى ، دون أن يجد فيها ما يوحى بالتشبيه أو التجسيم . وأغلب الظن أن يكون الغزالى قد اطلع على رأى ابن حزم فى هذا الصدد ، فانتا نراه يلتجئ الى هذا المنهج نفسه فى كتابه المعروف : « الجام العوام عن علم الكلام » ، فضلا عن اعترافه — فى موضع آخر — بأنه قد قرأ لابن حزم كتابا فى أسماء الله الحسنى^١ . ومما قاله الغزالى فى تفسير عبارة « يد الله » وغيرها قوله « .. فينبغى أن يعلم أن اليد تطلق على معنيين : أحدهما هو الوضع الأصلى ، وهو عضو مركب من لحم وعظم وعصب ... وقد يستعار هذا اللفظ أعنى اليد لمعنى آخر ، ليس ذلك المعنى بجسم أصلا ، كما يقال البلدة فى يد الأمير ، فان ذلك مفهوم ، وان كان الأمير مقطوع اليد مثلا ،

(١) المقرئ : « نفع الطيب » ، القاهرة ، تحقيق الدكتور فريد الرفاعى ،

الجزء السادس ، ص ٢٠٤

فعلى العامى وغير العامى أن يتحقق قطعاً وبقينا أن الرسول
لم يرد بذلك جسماً هو عضو مركب من لحم ودم وعظم ، وأن
ذلك فى حق الله تعالى محال ، وهو عنه مقدس^١ .

وأما اذا أردنا أن نقف على رأى ابن حزم فى مشكلة
الصفات الالهية على نحو ما حلّتها المعتزلة ، فحسبنا أن نرجع
الى الجزء الرابع من كتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل »
لكى نطالع ما كتبه بعنوان : « ذكر شنع المعتزلة » ، ففى هذا
الفصل نجده يورد الكثير من آراء المعتزلة فى القدرة الالهية ،
والعلم الالهى ، وصلة الخالق بالمخلوقات ، وعلاقة الله
بالشر .. الخ . وهو يأخذ عليهم فى هذا الصدد أنهم قد انتقصوا
من قدرة الله ، اذ قال زعيمهم ابراهيم بن سيار النظام :
« .. ان الله تعالى لا يقدر على ظلم أحد أصلاً ، ولا على شيء
من الشر ، وأن الناس يقدرون على كل ذلك ، وأنه تعالى لو
كان قادراً على ذلك ، لكننا لا نأمن أن يفعله ، أو أنه قد فعله ،
فكان الناس عنده (أى عند النظام) أتم قدرة من الله
تعالى^٢ . وقد يعجب المرء كيف يجعل ابن حزم من القدرة
على فعل الشر مظهراً من مظاهر الكمال ، فيطعن فى رأى النظام
بحجة أنه يأبى على الله ما فسببه الى البشر ، ويجعل الله أعجز
من كل ضعيف من خلقه ، وكأن القدرة على الشر — فى رأى

(١) أبو حامد الغزالى : « الجام العوام عن علم الكلام » ، طبعة القاهرة.

ص ٥

(٢) « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » الجزء الرابع ، ص ١٦٢

ابن حزم — صفة من صفات القادر الجبار القوى ! ولكن ابن حزم لا يرى مانعا من القول بأن قدرة الله تمتد الى كل شيء ، حتى الى الشر ، خصوصا وأن الله تعالى — في نظره — هو خالق الشر : « ألسنا نقول انه تعالى خلق جميع العالم من جواهره وأعراضه ؟ والشر عرض ، فالله تعالى خالق الشر ^١ » . وابن حزم ينسب الى النظام والعلاف أنهما اتفقا على القول بأن الله تعالى لا يقدر — في مضمار الخير — على أصلح مما عمل ، « فاتفقا على أن قدرته على الخير متناهية . ثم قال النظام انه تعالى لا يقدر على الشر جملة ، فجعله عديم قدرة على الشر عاجزاً عنه . وقال العلاف : بل هو قادر على الشر جملة ، فجعل ربه متناهي القدرة على الخير ، وغير متناهي القدرة على الشر ^٢ » ! وهكذا يخلص ابن حزم الى أن العلاف قد نسب الى ربه أخبث صفة يمكن أن تنسب الى موصوف ، فما بالك وقد نسبها الى الباري عز وجل ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ...

وأما عن آراء المعتزلة في العلم الالهي ، فإن ابن حزم يقرنها بآرائهم في القدرة الالهية ، ويرفضها كما رفض سابقتها . وهو يروي لنا — على سبيل المثال — أن علياً الاسواري البصريّ

(١) « التقريب لحد المنطق والمدخل اليه » ، تحقيق الدكتور احسان عباس ،

بيروت ، ص ١٩٠

(٢) « الفصل في الملل والاهواء والنحل » ، ج ٤ ، ص ١٩٣

أحد شيوخ المعتزلة كان يقول : « ان الله عز وجل لا يقدر على غير ما فعل ، وأن مَنْ عَلِمَ الله تعالى أنه يموت ابن ثمانين سنة ، فان الله لا يقدر على أن يميته قبل ذلك ، ولا أن يبقيه طرفة عين بعد ذلك ، وأن من علم الله تعالى من مرضه يوم الخميس مع الزوال مثلاً ، فان الله تعالى لا يقدر على أن يثبريه قبل ذلك لا بما قرب ولا بما بعد ، ولا على أن يزيد في مرضه طرفة عين فما فوقها ؛ وأن الناس يقدرون كل حين على اماتة من علم الله أن لا يموت الا وقت كذا ، وأن الله لا يقدر على ذلك . وهذا كفر ما سَمِعَ قط بأفطع منه ^١ » . واذا كان ابن حزم يرفض كل هذه الآراء ، فذلك لأنها تجعل علم الله أدنى من علم البشر ، أو تجعل قدرة الله دون قدرة البشر ؛ وكل هذا تعجيز للبارى تعالى ، وتحديد لقدرته سبحانه ، ونزول " بعلمه الى مستوى التناهى والاقضاء ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .



وأما المشكلة الكلامية الثانية التى استأثرت بجانب كبير من اهتمام ابن حزم فهى مشكلة الجبر والاختيار . وابن حزم يبدأ حديثه فى هذا الصدد بحصر الاجابات الممكنة على هذه المشكلة ، فيقول انها تنقسم الى رأيين أصليين : رأى يرى أهله أن الانسان متجبر على أفعاله ، وأنه لا استطاعة له أصلاً (وهذا هو قول جهم بن صفوان وطائفة من الأزارقة) ، ورأى آخر يرى

(١) المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ١٩٧

أصحابه أن الانسان ليس متجبراً ، بل هو يملك قوة أو استطاعة بها يفعل ما اختار فعله . وأصحاب هذا الرأي الأخير منقسمون الى فريقين : فريق يرى أن الاستطاعة التي يكون بها الفعل لا تكون الا مع الفعل ولا تتقدمه البتة (وهذا رأى النجار والأشعري وبعض طوائف المرجئة) ، وفريق آخر يرى أن الاستطاعة التي يكون بها الفعل موجودة في الانسان قبل الفعل (وهذا هو رأى المعتزلة) . وقد اقسام أصحاب هذا الرأي الأخير الى فرق ، فقال بعضهم ان الاستطاعة قبل الفعل ومع الفعل أيضا ، وان في وسع الانسان أن يتقبل على فعله أو أن يتركه (وهو قول بشر بن المعتمر وغيره من المعتزلة) ، بينما ذهب أبو الهذيل العلاف الى أن الاستطاعة لا تكون مع الفعل البتة ، ولا تكون الا قبله ، ثم تفنى مع أول وجود الفعل ، في حين ذهب آخرون (وعلى رأسهم النظام والأسوارى) الى أن الاستطاعة ليست شيئاً آخر غير نفس المستطيع^١ .

ثم يتعرض ابن حزم لدراسة رأى القائلين بالجبر ، فيقول ان أصحاب هذه الدعوى قد احتجوا بقولهم انه لما كان الله تعالى فعّالاً ، وكان لا يشبهه شيء من خلقه ، فقد وجب ألا يكون أحد "فعّالاً غيره" ، وتبعاً لذلك فان الانسان لا يوصف بأنه « فاعل » ، بل لا فاعل الا الله عز وجل . حقا اننا في حديثنا العادى قد نضيف الفعل الى الانسان ، ولكن معنى الاضافة

(١) « الفصل ... » ، الجزء الثالث ، ص ٢٢

هنا هو كمعناها في قولنا « مات زيد » وانما أماته الله ، و « قام البناء » ، وانما أقامه الله .

ورد ابن حزم على القائلين بالجبر أن الله عز وجل قد نص على أننا نعمل ، وتفعل ، ونصنع ، كما يظهر من قوله تعالى : « جزاء بما كنتم تعملون » ، وقوله : « لم تقولون ما لا تفعلون » ، وقوله : « وعملوا الصالحات » .. الخ . هذا الى أن شهادة الحس وضرورة العقل تؤيدان القول بالحرية ، فان من المعلوم لدينا أن ثمة farkا واضحا بين الفعل الاضطرارى والفعل الاختيارى ، وأن ثمة اختلافا كبيرا بين معتل الجوارح وصحيحها : « لأن الصحيح الجوارح يفعل القيام والقعود وسائر الحركات مختاراً لها دون مانع ، والذي لا صحة لجوارحه لو رام ذلك جهده لم يفعله أصلاً ؛ ولا بيان أيّن من هذا الفرق . والمجبر في اللغة هو الذى يقع الفعل منه بخلاف اختياره وقصده ؛ فأما من وقع فعله باختياره وقصده ، فلا يسمّى في اللغة متجبراً »^١ . وقد أثنى الله عز وجل على قوم دعوه فقالوا : « ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » ، وابن حزم يرى أن ألفاظ الطاقة والاستطاعة والقدرة والقوة في اللغة العربية ألفاظ مترادفة تدل جميعها على معنى واحد ، فهى تشير الى صفة من يصدر عنه الفعل باختياره ، أو من يمكنه تركه باختياره . « ولا شك في أن هؤلاء القوم الذين دعوا هذا

(١) المرجع السابق : ج ٢ ، ص ٢٣

الدعاء قد كلفوا شيئاً من الطاعات والأعمال واجتناب المعاصي .
فلولا أن ها هنا أشياء لهم بها طاقة ، لكان هذا الدعاء حقيقاً ،
لأنهم كانوا يصيرون داعين الله عز وجل في أن لا يكلفهم ما لا
طاقة لهم به ، وهم لا طاقة لهم بشيء من الأشياء ، فيصير دعاؤهم
في أن لا يكلفوا بما قد كلفوه ، وهذا محال من الكلام ، والله
تعالى لا يثنى على المحال ^١ . وأما قولهم بأنه لما كان الله فعلاً ،
وجب ألا يكون ثمة فعال غيره ، فانه في رأى ابن حزم خطأ
حسراً : لأن النص أولاً قد ورد بأن للانسان أفعالا وأعمالاً ،
بدليل قوله تعالى : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس
ما كانوا يفعلون » فأثبت الله لهم الفعل ؛ ولأن النص ثانياً قد
فرق بين الاختيار الذي هو فعل الله تعالى والذي هو منفى
عن سواه ، والاختيار الذي أضافه الى خلقه ووصفهم به ،
بدليل قوله تعالى : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم
الخيرة » وابن حزم يفرق بوضوح بين هذين النوعين من
« الاختيار » فيقول ان الاختيار الذي انفرد به الله هو أن يفعل
ما شاء ، كيف شاء ، واذا شاء ؛ وليست هذه صفة شيء من خلقه .
وأما الاختيار الذي أضافه الله الى خلقه ، فهو ما خلق فيهم
من الميل الى شيء ما ، والا يشار له على غيره فقط . ولئن كنا
تقول عن الانسان انه فاعل ، وتقول عن الله انه فاعل ، كما
تقول عن الانسان انه حي ، حلیم ، كريم ، عليم ، وتقول عن

(١) المرجع السابق : ج ٣ ، ص ٢٤

الله في الوقت نفسه أنه حتى ، حلیم ، كريم ، عليم ، الا أن
الفارق شاسع بين فعل الله وفعل الانسان . والحق أن الله يخترع
الفعل ، ويجعله جسماً ، أو عرضاً ، أو حركة ، أو سكونا ، أو
معرفة ، أو كراهية ، أو ارادة .. الخ ؛ وهو يفعل كل ذلك
فيينا ، بغير معاناة منه ، ولغير علة . وأما نحن فأنما كان فعلاً
لنا ، لأنه عز وجل خلقه فينا ، وخلق اختيارنا له ، وأظهره
عز وجل فينا محمولاً ، لاكتساب منفعة ، أو لدفع مضرة ، وام
نخترعه نحن^١ .

ثم ينتقل ابن حزم بعد ذلك الى دراسة « الاستطاعة » ،
وهل تكون قبل الفعل أم بعده ، فيقول انه لا بد لنا
— بادیء ذي بدء — من الاتفاق على معنى هذا اللفظ ، حتى
نفهم المقصود من نسبة الاستطاعة الى الانسان . فالاستطاعة
أولاً لا يمكن أن تكون هي المستطيع ، لأن الصفة غير
الموصوف ، كما أننا قد نجد المرء مستطيعاً ثم نراه غير مستطيع
لعلّة طرأت على أعضائه . وتبعاً لذلك فان الاستطاعة عرض
من الأعراض يقبل الأشد والأضعف ، وهي والعجز ضدان
يتقاسمان طرفي البعد كالعلم والجهل ، أو الذكر والنسيان .
ولو أننا عدنا الى تجربتنا العادية ، لوجدنا أن الفعل لا يقع
باختيار الا من صحيح الجوارح الذي يستطيع القيام بالفعل .
ولكن لا بد أيضاً من زوال كل الموانع التي تقف حجر عثرة في
سبيل تحقق الاستطاعة وظهور أثرها في الفعل . ولئن كانت

(١) « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ج ٣ ، ص ٢٥

الارادة هي التي تحرك الاستطاعة ، الا أنه لا يقال عن الارادة نفسها انها استطاعة ، لأن كل عاجز عن الحركة هو في الواقع مريد لها ولكنه غير مستطيع تحقيقها . وعلى ذلك فان الاستطاعة — فيما يرى ابن حزم — انما هي « صحة الجوارح مع ارتفاع الموانع » ، وهذان الوجهان قبل الفعل ^١ .

بيد أن هذين العنصرين لا يكفيان وحدهما لتحقيق الفعل ، وانما لا بد من أن تنضاف اليهما قوة أخرى من عند الله عز وجل هي ما نسميه باسم « التوفيق » . وابن حزم يدل على صحة رأيه هنا فيقول : « ان القوة التي تَرِدُ من الله تعالى على العبد فيفعل بها الخير تسمى بالاجماع توفيقا وعصمة وتأيدا ، والقوة التي تَرِدُ من الله تعالى على العبد فيفعل بها الشر تسمى بالاجماع خذلانا ، والقوة التي ترد من الله تعالى على العبد فيفعل بها ما ليس طاعة ولا معصية تسمى عوناً أو قوة أو حولا . وتبيّن من صحة هذا صحة قول المسلمين لا حول ولا قوة الا بالله . والقوة لا تكون لأحد البتة فيعمل الا بها ، فصح أنه لا حول ولا قوة لأحد الا بالله العلي العظيم ^٢ » .

وهنا تثار مشكلة الصلة بين ارادة العبد و ارادة الخالق فيقال : اذا كان الانسان رب أفعاله ، فكيف يقول الله في كتابه العزيز : « يضل الله من يشاء ، ويهدي من يشاء » ؟ ، أو كيف

(١) المرجع السابق : ج ٣ ، ص ٢٩ - ٣٠

(٢) المرجع السابق ، ج ٣ ، باب الاستطاعة ، ص ٣٠

يقول : « وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله » ؟ ، أو كيف يقول أيضا : « انْ تحرص على هداهم فان الله لا يهدي من يضل » ؟ .. أليست هذه كلها — وغيرها كثير — نصوصاً واضحة ظاهرة البيان ، تدلنا على أن الله تعالى لما أضل قوماً صاروا ضالين فاسقين ، ولما أراد لهم الهدى صاروا مؤمنين صالحين ؟ وماذا عسى أن يكون معنى قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » ، ان لم يكن معناه أنه تعالى قد منع عنهم التوفيق ، وسلط عليهم الخذلان ، وأضلهم ، وطبع على قلوبهم ، وجعل على سمعهم وأبصارهم غشاوة حائلة بينهم وبين قول الحق ؟ أليس في هذه النصوص دليل قاطع على أن الله يهدي من يشاء من عباده فيكون مهتديا ، ويضل من يشاء من عباده فيكون ضالا ؟ أما اذا قال المعتزلة اتنا لا نعرف على وجه التحقيق ما معنى الاضلال والختم على القلوب وتضييق الصدور وتحريجها واكثانها عن فهم الحق ، كان رد ابن حزم على ذلك أن « الله قد فسر كل هذا تفسيراً جلياً واضحاً ، فانها ألفاظ عربية معروفة لمعاني في اللغة التي نزل بها القرآن ، فلا يحل لأحد صرف لفظة معروفة المعنى في اللغة عن معناها الذي وضعت له في اللغة التي خاطبنا بها الله تعالى في القرآن الى معنى غير ما وضعت له ، الا أنه يأتي نص قرآن أو كلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو اجماع من علماء الأمة كلها على أنها مصروفة عن ذلك المعنى الى غيره ... وقد قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم : كل ميسر لِمَا خُلِقَ له . فبين عليه السلام أن الهدى والتوفيق هو تيسير الله تعالى المؤمن للخير الذى خلقه ، وأن الخذلان تيسيره للفاسق للشر الذى له خلقه ، وهذا موافق للغة والقرآن والبراهين الضرورية العقلية .. الخ ' » .

ولا يكتفى ابن حزم بتقرير هذا الرأى خضوعاً لنصوص القرآن الكريم واتباعاً للهدى النبوى الشريف ، بل هو يؤيده بأدلة طبيعية ضرورية وبيان عقلى أولى ، فيقول ان من له أدنى بصر بالنفس وأخلاقها ، يعلم أن الله عز وجل قد خلق نفس الانسان مميزة عاقلة عارفة بالأشياء على ما هى عليه مذكورة للأوامر والنواهي الالهية ، وأودع فيها قوتين متعاديتين متضادتين فى التأثير ، ألا وهما التمييز والهوى ؛ وكل قوة منهما تريد السيطرة على النفس ، والتحكم فى القوة الأخرى . « فالتمييز هو الذى خص به نفس الانسان والجن والملائكة دون الحيوان الذى لا يكلف والذى ليس ناطقاً . والهوى هو الذى يشاركها فيه نفوس الجن والحيوان الذى ليس ناطقاً من حب اللذات والغلبة ... فاذا عصم الله النفس غلب التمييز بقوة من عنده هى له مدد وعون ، فجرت أفعال النفس على ما رتب الله عز وجل فى تمييزها من فعل الطاعات ، وهذا هو الذى يسمى العقل . واذا خذل جل وعز النفس أمد الهوى بقوة هى

(١) « الفصل فى الملل والاهواء والنحل » ، ج ٣ ، ص ٥٠/٤٩

الاضلال ، فجرت أفعال النفس على ما رتب الله تعالى في هواها من الشهوات وحب الغلبة والحرص والبغى والحسد وسائر الأخلاق الرذلة والمعاصي .. الخ^(١) . وهكذا نرى أن ابن حزم يربط التوفيق والخذلان بقوتى التمييز والهوى ، مع اعترافه في الوقت نفسه بأن الله تعالى خالق الكل ، ومرتب كل ما في النفس من قوى ، فكل شيء في النفس جار على طبيعته المخلوقة ، لجرى كفياته بها على ما هي عليه .

بيد أننا لو أنعمنا النظر الى رأى ابن حزم في الاستطاعة ، لوجدنا أنه في الحقيقة أقرب الى القول بالجبر منه الى القول بالاختيار . والواقع أن ابن حزم لا يقتصر على معارضة المعتزلة في قولهم بأن « أفعال العباد غير مخلوقة لله تعالى » ، بل هو يمضى الى حد أبعد من ذلك فيقرر أن ثمة جبرية نفسانية تجعل من الفرد أسيراً لطبيعته . وآية ذلك أننا « نجد الحكيم لا يقدر على الطيش والبذاء ، وأن الطياش البذى لا يقدر على الحياء والصبر ، والسيىء الخلق لا يقدر على الحلم ، والحليم لا يقدر على النزق ، والسخى لا يقدر على المنع ، والشحيح لا يقدر على الجود ... والشجاع لا يقدر على الجبن ، والجبان لا يقدر على الشجاعة ، وهكذا في جميع الأخلاق التى عنها تكون الأفعال . فصح أن ذلك خَلَقَ الله تعالى ، لا يقدر المرء على إحالة شيء من ذلك أصلاً ... ولو كان (الانسان) هو خالق

(١) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٥٠ - ٥١ (وانظر أيضا محمد أبو زهرة :

« ابن حزم » ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٤ ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥) .

كل ذلك لصرفه كما يشاء . فاذا ليس فيه قوة على صرف شيء من ذلك عن هيئته ، (وبالتالي) فقد ثبت ضرورة أنه خلق الله تعالى ^١ . ومحصل هذا القول أن للانسان طبيعة مفروضة عليه ، فهو لا يملك من أمره شيئاً ، أو هو على الأصح لا يقدر على بلوغ الا ما هو ميسر له . ولا يقتصر ابن حزم على القول بأن الحسنات الواقعة منا فضل مجرد من الله ، واحسان منه اليها ، دون أن يكون لنا شيء فيه ، بل هو يضيف الى ذلك أن الله تعالى خالق الخير والشر ، بل خالق كل ما أصاب الانسان ^٢ . وما دام الخلق هو الابداع والاختراع ، وليس من شأن الانسان أن يكون خالقاً أصلاً ، فقد صح أن أفعالنا ليست خلقاً لنا ، بل هي خلق لله تعالى ، كسب لنا (على اعتبار أن الكسب استضافة الشيء الى جاعله أو جامعـه بمشيئة له) . وهكذا ينتهي ابن حزم الى الأخذ بنظرية الأشاعرة في الكسب ، على نحو ما عبّر عنها أبو الحسن الأشعري حين قال : « .. انه لا يفعل بقدرة قديمة الا خالق . ومعنى « الكسب » أن يكون الفعل بقدرة محدثة . فكل من وقع منه الفعل بقدرة قديمة فهو فاعل خالق ، ومن وقع بقدرة محدثة فهو مكتسب ، وهذا قول الحق ^٣ » .

ولا يتسع المقام للامام بسائر نظريات ابن حزم الأخرى في

(١) « الفصل في الملل والنحل » ج ٣ ، ص ٩٦ - ٩٧

(٢) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٨٢ ، ص ٩٢

(٣) أبو الحسن الأشعري : « مقالات الاسلاميين » ، ج ٢ ، ص ١٩٦

المسائل الكلامية ، وانما حسبنا أن نكون قد أعطينا القارىء صورة سريعة لأهم آراء ابن حزم فى التوحيد ، وعلاقة الذات بالصفات ، وأسماء الله ، والجبر والاختيار ، والخلق والكسب .. الخ . ولا بد من أن يكون القارىء قد لاحظ معنا أن ابن حزم لم يأخذ برأى المعتزلة على طول الخط ، كما أنه لم يعارض الأشاعرة فى كل ما ذهبوا اليه ، بل هو قد اتصر دائما لما رآه الحق ، سائرا على هدى الكتاب والسنة ، جاعلا لسان حاله قوله : « أنا أتبع الحق وأجتهد ، ولا أتقيد بمذهب » . وقد روى لنا ابن حزم مقالة لأحد الأئمة جاء فيها أن « من بلغ الحلم من رجل أو امرأة ، ولم يعلم الله فى أول بلوغه بجميع صفاته عليم استدلال ونظر وبحث ، فهو كافر حلال دمه » ! وليس يعنينا هنا رد ابن حزم على مقالة هذا الامام ، وانما الذى يعنينا تعليقه على صاحب هذا الرأى حين كتب يقول انه كلام قدّمه عظيم (من) أسلافنا نجبة لفضله ، ولكن الحق أحب إلينا منه وأفضل » ^١ . وحسب ابن حزم أن يكون قد فتح السبيل أمام متكلمي آخرين من أمثال ابن تيمية ، والغزالي ، وغيرهما ، فقد وجد هؤلاء عند امامنا العربى الكبير منهجا كلاميا مشروعا ، وفهما عربيا سليما ، فساروا على هديه أحيانا ، وافترقوا عنه أحيانا أخرى ، واعترفوا له بالفضل على كل حال .

(١) ابن حزم : « التريب لحد المنطق » ، ص ١٦٠

الفصل الرابع

ابن حزم الفقيه

ليس من السهل أن يحيط المرء — في مثل هذه العجالة القصيرة — بفقه ابن حزم ، فقد بذل المفكر الأندلسي الكبير جهداً هائلاً في تنقيح مذهب أبي داود بن خلف امام أهل الظاهر ، وجادل عن هذا المذهب جدالاً عنيفاً ، ووضع الكثير من الكتب والرسائل في بسنطه وتفسيره ، لعل من أهمها كتابه الضخم : « الاحكام في أصول الأحكام » ، وكتاب : « ابطال القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل » (الذي تشرّحه له ملخص صغير بقلم ابن حزم نفسه) ، وكتاب « مسائل أصول الفقه » ، وكتاب « الاجماع ومسائله على أبواب الفقه » ، وكتاب « كشف الالتباس ما بين الظاهرية وأصحاب القياس » ، وكتاب « المحلّى بالآثار في شرح المجلّى باختصار » ، وكتاب « النبذ » .. الخ . ونحن نعرف أن ظهور المذهب الظاهري في المشرق قد كان رد فعل لنشاط أصحاب القياس في القرن الثالث الهجري ، حتى لقد صار القياس في بعض المذاهب رابع الأصول الثلاثة المعروفة ، ألا وهي الكتاب والسنة والاجماع . فلما ظهر داود بن علي بن خلف البغدادي

(٢٠٢ هـ - ٢٧٠ هـ) أنكر القياس جملة ، وتشدد في الأخذ بحرفية النصوص ، ومنع التقليد منعا باتاً ، وأجاز لكل فاهم للعربية أن يتكلم في الدين بظاهر القرآن والسنة ^١ . ولسنا نريد أن تتبع تاريخ انتقال المذهب الظاهري الى بلاد الأندلس ، وإنما حسبنا أن نقول ان ابن حزم قد وجد في آراء بقى بن مخلد ، وأبى عبد الله محمد بن وضاح ، وقاسم بن أصبغ ، ومنذر بن سعيد البلوطي خير تعبير عن « المذهب الظاهري » ، فأخذ على عاتقه مواصلة الجهد الذي بذله هؤلاء ، ونصب نفسه مدافعاً عن الفقه الظاهري وجدله وأصوله في بلاد الأندلس . دون الاختصار على ترديد آراء أبى داود بن خلف البغدادي . ولكن ابن حزم لم يأخذ بالفقه الظاهري منذ حداثة سنه ، بل هو قد بدأ حياته العلمية بالتفقه على المذهب الشافعي ؛ في حين أن المذهب الشائع في الأندلس وقتئذ إنما كان هو المذهب المالكي ، ممّا جر على ابن حزم الكثير من الخصومات ، « فلما قال بالظاهر ألّب عليه الفقهاء والعامة والأمراء ، واستأنف بذلك حياة كلها عنت وأذى ومضايقات ^٢ » .

ولا بد من أن يكون القارىء قد لاحظ معنا أن ابن حزم قد حاول تطبيق أصول مذهبه الظاهري على العقائد والمسائل الكلامية ، فقد رأيناه يحكم المبادئ الظاهرية في مناقشته

(١) محمد أبو زهرة : « ابن حزم : حياته وعصره - آراؤه وفقهه » ،

١٩٥٤ ، ص ٢٦٢ - ٢٧٤

(٢) سعيد الأفغاني : مقدمة « ملخص ابطال القياس والرأى والاستحسان

والتقليد والتعليل » ، ص ٨

الجدلية لعقائد اليهود والنصارى وغيرهم من فرق المسلمين ،
خصوصا في رفضه لمبدأ تأويل النصوص ، اقتناعا منه بأن كلام
الله تعالى واجب " أن يَحْمَلَ على ظاهره ، ولا يحال عن ظاهره
البتة ، اللهم الا أن يأتى نص أو اجماع أو ضرورة حس على أن
شيئا منه ليس على ظاهره وأنه قد قل عن ظاهره الى معنى
آخر ، فالإقياد عندئذ واجب لما يوحيه ذلك النص والاجماع
والضرورة ^١ » . ولعل هذا ما حدا ببعض الباحثين الى القول
بأن تطبيق ابن حزم للمبادئ الظاهرية على العقائد والمسائل
الكلامية ابتكار انفرد به ابن حزم ، دون غيره من فقهاء
الظاهرية . ولكن الذى يعيننا هنا أن ابن حزم قد
خالف في فقه مناهج الأئمة الأربعة : فقد اعتمد هؤلاء على منهج
الاستنباط ، واستندوا في استنباطهم الى الكتاب والسنة
والاجماع والرأى (وان اختلفوا فى الرأى ما بين مضيق فيه
وموسع) ، بينما رأى ابن حزم الاعتماد على الكتاب والسنة
والاجماع فقط ، وخالف مدرسة الرأى فى رفضه للقياس أصلا ،
واستنكاره لمبدأ التقليد ، حتى ولو كان المقلد صحابيا . وعلى
حين أن كتلا من أبى حنيفة ، ومالك ، والشافعى ، وأحمد بن
حنبل ، قد اتفقوا على القول برأى الصحابى ، نجد ابن حزم

(١) ابن حزم : « الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل » ، الجزء الثانى ،

ص ١٢٢ ، ص ١٢٣

يصرح بأنه لا يصح لأحد أن يقلّد أحداً ، ولو كان صحابياً ١ .

والواقع أن القائلين بالتقليد — في نظر ابن حزم — يعترفون على أنفسهم بالقول الباطل : « لأن كل طائفة من هؤلاء مقرة بأن التقليد لا يحل ، ثم يقرون أنهم مقلدون لأئمتهم كمالك وغيره ، لأنهم لا يفارقون قول ذلك المتبوع ، وهذا هو محض التقليد . أفنديون ببطلان التقليد وتلتزمونه ؟ فقد اعترفتم بأنكم تدينون بالباطل ، وهذا هو العجب » ٢ . وقد سبق لنا أن أشرنا الى قول ابن حزم بتحريم التقليد ، بحجة أنه لا يحل لأحد أن يأخذ بقول أحد من غير برهان . وابن حزم يستدل على ذلك من قوله تعالى : « اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون » ، ومن قوله تعالى : « واذا قيل اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل تتبع ما آلفينا عليه آباءنا » .. الخ . ثم هو يقرر أنه لم يكن بين الصحابة والتابعين أحد " يقلد آخر في كل ما قال ، فصح أن من قلده أبا حنيفة أو مالكا أو الشافعي ، دون أن يخالفه في شيء أبداً ، فقد خالف الاجماع . » وقد صح اجماع جميع الصحابة رضي الله عنهم أولهم عن آخرهم ، واجماع جميع التابعين أولهم عن آخرهم ، على الامتناع والمنع من أن يقصد منهم أحد الى قول

(١) محمد أبو زهرة : « ابن حزم : حياته وعصره — آراؤه وفقهه » ، دار

« الفكر العربي » ، ١٩٥٤ ، ص ٢٦١

(٢) ابن حزم : « ملخص ابطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد

والتعليل » ، دمشق ، ص ٥٢

انسان منهم ، أو ممن قبلهم ، فيأخذه كله ١ » . ولم يحدث التقليد — فيما يقول ابن حزم — إلا في القرن الرابع الهجري ، وأما قبل ذلك الحين فقد كان « أهل هذه القرون الفاضلة المحسودة يطلبون حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، والفقه في القرآن ... ولا يقلد أحد منهم أحداً البتة ، فلما جاء العصر الرابع تركوا ذلك وعوّّلوا على التقليد الذي ابتدعوه ٢ » .

وقد احتج بعضهم بقول الله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر » ؛ ورد ابن حزم على هذه الحجة أن الذكر هو السنن ، بدليل قوله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزلنا ، إليهم » . واذن فنحن قد أمّرنا بأن نسأل أهل الذكر عن الذكر الذي عندهم لا عن رأيهم . وابن حزم لا يفرق في هذا الصدد بين العامي والعالم ، فانه ليس للعامي أيضاً أن يقلد أحداً ، مثله في ذلك كمثل العالم سواء بسواء . « فان قالوا : ولا تقدر على الاجتهاد ، كذبوا . وما يعجز أحد عن أن يسأل عن حكم الله وحكم رسوله ، والبحث عن السند والناسخ والمنسوخ ، فان عجز عن ذلك لزمه الاتقياد لما بلغه من القرآن وعن النبي صلى الله عليه وسلم » ٣ . فليس للعامي أن يقلد اماماً بعينه ، وليس له أيضاً أن يقبل فتوى من غيره ، دون أن

(١) ابن حزم : « النبد » ص ٥٤/٥٥

(٢) ابن حزم : « الاحكام في اصول الاحكام » ج ٦ ، ص ١٤٢

(٣) « ملخص ابطال القياس والرأى ... الخ » ، ص ٥٢ (وانظر ايضاً :

« المحلى » ج ١ ، ص ٦٦ - ٦٧) .

يسند هذه الفتوى الى كتاب الله تعالى أو الى سُنَّة رسوله ،
أو الى اقرار من المفتى بأن ذلك هو حكم الله . ولهذا يقرر
ابن حزم أنه لا بد للعامي من أن يقول للمفتي اذا أفتاه : أكذا
أمر الله تعالى أو رسوله ، فان أجابه بالاجاب « لزمه القبول ،
وان قال له : لا أو سكت أو اتهره ، أو ذكر له قول انسان
غير النبي صلى الله عليه وسلم سأل غيره ، ومن زاد فهمه ، فقد
زاد اجتهاده ، وعليه أن يسأل أصح هذا عن النبي صلى الله
عليه وسلم أم لا ، فان زاد فهمه ، سأل عن السند والمرسل
والثقة وغير الثقة ، فان زاد سأل عن الأقاويل وحجة كل قائل ،
ويقضى ذلك الى التدرج في مراتب العلم ^١ . وواضح من هذا
النص أن ابن حزم يقسم العامة الى مراتب ، ولكنه يحرم
عليهم جميعا تقليد أى واحد من الأئمة الأعلام .

وأما الدعامة الثانية لمذهب ابن حزم الظاهري فهي ابطال
الرأى ، على العكس تماما مما فعل (مثلا) الامام أبو حنيفة
الذى كان يقول : « اذا لم يكن فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله
(حكم ظاهر) ، نظرت فى أقاويل الصحابة ، فاذا انتهى الأمر
الى غيرهم فأجتهد كما اجتهدوا ^٢ » . وليس بدعا أن يبطل

(١) محمد بنو زهرة : « ابن حزم - حياته وعصره - آراؤه وفقهه »

ص ٣٧٩ - ٣٨٠

(٢) محمد سلام مذكور : « المدارس الفقهية فى التشريع الاسلامى » ، بحث
منشور بكتاب « المحاضرات العامة » التى ألقى فى الموسم الثقافى بفرع الخرطوم
لجامعة القاهرة ، ١٩٥٦ - ١٩٥٧ ، ص ١١٠/١١١

ابن حزم الرأى ، فانه يأخذ ألفاظ القرآن بظاهرها اللغوى «
ولا يحاول تعليل الأحكام ، ولا يمضى الى المبررات العقلية التى
تكمّن وراءها ، بل هو يقتصر فى استدلاله على النصوص ،
مستخرجاً الفقه من ينايحه الثلاثة الأصلية ، مخالفاً بذلك منهاج
غيره من العلماء المجتهدين . ومحصل مذهب ابن حزم فى ابطال
الرأى : « أن من أفتى بالرأى ، فقد أفتى بغير علم ولا علم فى
الدين الا القرآن والحديث » . وهو يسوق الأدلة على ذلك
من القرآن والسنة وأقوال الصحابة ، فمن أقوال الكتاب مثلاً
قوله تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » ، وقوله تعالى
أيضاً : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى
الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول
ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » . والآية الأولى منهما
تنص صراحة على أن فى القرآن بيان الشريعة كلها ، بينما تحصر
الآية الثانية مصادر الشريعة فى ثلاثة أصول هى الكتاب والسنة
والاجماع . وأما الدليل من السنة فقوله صلى الله عليه وسلم :
« ان الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاكموه اتزاعاً ، ولكن ينزعه
منكم مع قبض العلماء بعلمهم ، فيبقى ناس جهّال يستفتون
فيفتون برأيهم فيضلون ويضلّون » ، وقوله أيضاً : « تعمل
هذه الأمة برهة بكتاب الله ، وبرهة بسنة رسول الله ، ثم يعملون
بالرأى ، فاذا فعلوا ذلك فقد ضلّوا » . وقوله كذلك : « من
قال فى القرآن برأية فليتبوأ مقعده من النار » . وكل هذه
الأحاديث واضحة صريحة فى ربط الرأى بالضلال والاضلال

وأما أقوال الصحابة فإن ابن حزم يسوق منها الكثير
للتدليل على استنكار الصحابة للرأى فمن ذلك مثلاً قول
أبى بكر الصديق : « أى أرض تقلنى وأى سماء تظلىنى إن
قلت فى آية برأى أو بما لا أعلم » ، وقول عمر بن الخطاب وهو
على المنبر : « يا أيها الناس . إن الرأى إنما كان من رسول الله
الله مصيباً لأن الله كان يريه ، وإنما هو منا الظن والتكلف » ،
وقوله أيضاً : « اياكم وأصحاب الرأى ، فانهم أعداء السنن ،
أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها فقالوا بالرأى ، فضلوا وأضلوا » ،
وقول على بن أبى طالب : « لو كان الدين بالرأى ، لكان أسفل
الخف أولى بالمسح من أعلاه » ... الى آخر تلك النصوص التى
تقطع بأن الصحابة قد أجمعوا على رفض منهج الرأى رفضاً
باتاً^١ .

وهنا يرد أنصار الرأى على ابن حزم فيقولون إن الله
تعالى يقول فى كتابه العزيز : « وشاورهم فى الأمر » ،
و « أمرهم شورى بينهم » ، وهناك حديث مأثور عن معاذ بن
جبل جاء فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأله اذ بعثه
الى اليمن : « بماذا تقضى ؟ » ، قال : « أقضى بما فى كتاب الله » ،
قال : « فإن لم تجد فى كتاب الله ؟ » ، قال : « فبسنة رسول
الله » ، قال : « فإن لم تجد فى سنة رسول الله ؟ » قال :
« أجتهد رأى ولا آلو » . قال « الحمد لله الذى وفق رسول

(١) ابن حزم : « الأحكام فى أصول الأحكام » ج ٦ ، ص ٤١ - ٤٢ ،

وكتاب « النبذ » ص ٤١

رسول الله لما يرضى رسول الله . ورد ابن حزم على هاتين
الحجتين أن النصوص القرآنية أولا ليست صريحة في اثبات
جواز الاجتهاد بالرأى ، فان المقصود بالمشاورة تعرف السنة
لا الاجتهاد بالرأى .. : « اذ لا تشاورهم : كيف تتوضأ ؟
وكم تصلى ؟ وأى شهر يثصام ؟ وكم الزكاة ؟ وما المناسك ؟
وما يحرم ؟ وما يحل ؟ » . ويعرض ابن حزم ثانيا لحديث معاذ
فيقول انه غير صحيح « لأنه عن الحارث بن عسرو الهذلي
الثقفى ابن أخى المغيرة بن شعبة ، ولا يدرى أحد من هو ؟
ولا نعرف له غير هذا الحديث .. الخ »^١ . وحتى لو صح هذا
الحديث ، لكان معناه فى رأى ابن حزم « اجتهد فى رأى أى
استنفد جهدى ، حتى أرى الحق فى القرآن والسنة ، ولا أزال
أطلب ذلك » . وقد لاحظ كثير من الفقهاء ما فى تخريج ابن
حزم من تعسف : لأنه يفسر الحديث بما لا يتفق مع سياق الكلام ،
فضلا عن طعنه فى صحة حديث مشهور قد تلقاه الناس
بالقبول ، ورواه عن الحارث شعبة بن الحجاج ، وهو فى ذاته
ثقة^٢ .

وأما احتجاج بعض أنصار الرأى بقوله تعالى : « ولو ردوه
الى الرسول وإلى أولى الأمر منهم ، لعلمه الذين يستنبطونه
منهم » ، فهذا فى نظر ابن حزم حجة عليهم فى ابطال الاستنباط

(١) ابن حزم : « ملخص كتاب ابطال القياس والرأى ... » ، ص ١٢ -

١٤ ، وكتاب « الأحكام » ج ٦ ، ص ٣٥

(٢) محمد أبو زهرة : « ابن حزم » ، ص ٣٨٤ - ٣٨٧

بالرأى » لأنه تعالى أخبر أنهم لو ردوه الى الرسول والى
الاجماع ... فصح أنهم لم يعلموه ، فبطل الاستنباط يقينا بلا
شك ، ولم يَبْنَقْ الا الرد الى القرآن والسنة والاجماع من
أولى الأمر لقوله : « فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله
والرسول » ، فلم يوجب الله ولا أباح الرد عند التنازع الا الى
القرآن والسنة ان كنا مؤمنين بالله واليوم الآخر^١ . والواقع
أنا نجد لدى ابن حزم صرامة فكرية فى التشدد بحرفية
النصوص والتمسك بمنطوق الآيات والأحاديث ، بحجة أنه
لا يحل لنا أن نشرع فى الدين ما لم يأذن به الله ، وأن أى رأى
قد تنتهى اليه بالاستنباط أو القياس لا يمكن أن يكون هو حكم
الله ... وهو يتساءل فى موضع آخر فيقول : « الرأى من
صاحب أو تابع أو فقيه : أيكون حجة بنفسه ، فلا يجوز خلافه
أم لا ، حتى يقوم على صحته برهان من نص أو قياس أو دليل
ما من غير الرأى المجرد ؟ فان قالوا : « بل هو حجة بنفسه » ،
أتوا بالبطل ، وبما لا يقوله عاقل . وان قالوا : « ليس هو
بمجرد حجة ، بل الحجة فى الدليل الذى يوافقه بعض الآراء » ،
فهذا حق لا نخالفهم فيه^٢ . وواضح من هذه المناقشة أن
ابن حزم يرفض الرأى ، لا لأنه مظهر من مظاهر الاجتهاد ، بل
خشية ما قد ينطوى عليه الرأى من تعبد على حرمة النصوص
الشرعية ، أو استهانة بأصول الكتاب والسنة ، واذا كان

(١) ابن حزم : « ملخص كتاب ابطال القياس والرأى ... الخ » ، ص ١٨

(٢) المرجع السابق : ص ١٨

واحد من أصحاب أبي حنيفة قد روى عن الامام الكبير قوله : « علمنا هذا رأى » ، وهو أحسن ما قدرنا عليه ، ومن جاء بأحسن منه قبلناه منه » ، فان ابن حزم يرد على قول أبي حنيفة بقوله : « فقد جئنا بأحسن منه وخير منه ، وهو أحكام لله ورسوله الثابتة ، فواجب قبول ذلك ^١ » . وقد روى معن بن عيسى أنه سمع مالكا يقول : « إنما أنا بشر ، أخطئ وأصيب ، فانظروا في رأيي ، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به ، وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه » . وابن حزم يعقب على هذه الرواية بقوله : « هذه من أفضل وصايا مالك لو قبلوها » . ويروى لنا الفقيه الأندلسي الكبير أن مالكا قال وهو يحتضر : « والله لو ددت أني ضربت بكل مسألة أفيت فيها برأيي بسوط وسوط ، وقد كانت لي السعة فيما قد سبقت اليه ، وليتنى لم أفتر بالرأي » . ثم يعلق على هذا القول فيقرر أن « هذا رجوع منه (أي من مالك) عن كل ما أفتى فيه برأي ، وهذا ثبت عنه ^٢ » .

ولا يقتصر ابن حزم على ابطال الرأي ، بل هو يذهب أيضا الى ابطال القياس . واذا كان الرأي هو الحكم في الدين بغير نص ، أو على الأصح بما يراه المفتي أحوط وأعدل في التحريم أو التحليل ، فان القياس هو الحكم فيما لا نص فيه بمثل الحكم

(١) المرجع السابق : ص ٦٦

(٢) ابن حزم : « ملخص ابطال القياس والرأي ... الخ » ، تحقيق سعيد

الافغانى ، ص ٦٦ - ٦٧

بما فيه نص أو اجماع . وقد اختلف الفقهاء في تعليل القياس فقال قوم منهم : « لاتفاقهما في علة الحكم » بينما قال آخرون « لا اتفاقهما على وجه من الشبهة » ؛ ولكن هؤلاء وأولئك استندوا في قولهم بالقياس الى وجوب اشتراك الأصل والفرع في الوصف الذي اعتبر علة للحكم . ولئن كان ابن حزم قد ذهب الى أن القياس بدعة حدثت في القرن الثاني الهجري ، الا أن الكثير من الفقهاء مجمعون على القول بأن القياس قد عثرَ ف منذ عهد الصحابة . ومهما يكن من شيء ، فقد أخذ ابن حزم على عاتقه ابطال القياس ، حتى أنه — كما رأينا فيما سبق — لم يتردد في استعمال لفظ جديد للدلالة على القياس الأرسطائي ، خشية أن يقع في ظن البعض أن لقياس الفقهاء أصلاً (أو نظيراً) في المنطق اليوناني .

ولا بن حزم أدلة عديدة على ابطال القياس أفاض في الحديث عنها خصوصاً في كتابه المسمى بـ « الاحكام في أصول الأحكام » ، وعاد اليها في كتاب « النبد » وفي غيره من مؤلفاته الفقهية العديدة . وأول هذه الأدلة أنه لا محل للقول بأن القياس هو الحكم فيما لا نص فيه ، فإن هذا معدوم ، والدين كله منصوص عليه . والحق أن ما أمر الله به فهو واجب ، وما نهى عنه فهو حرام ، وأما كل ما عدا ذلك (أي ما لم يأمر به ولم يَنْه عنه) فهو مباح مطلق حلال . ولما كانت النصوص قد جاءت بكل ما هو محرم ، كما نصت في الوقت نفسه على كل ما هو مأمور به ، فمن أوجب بعد ذلك شيئاً بقياس أو بغيره ،

فقد أتى بما لم يأذن به الله تعالى ، ومن حرم من غير النص ، فقد نهى عما لم يَنْتَهَ عنه الله تعالى ^١ . وكيف يزعم القياسيون أنهم يحكمون فيما لا نص فيه ، في حين أن الله تعالى يقول في كتابه العزيز : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام دينا » ، كما يقول أيضا : « لنبين للناس ما نزل إليهم » ؟ أليس في هذه الآيات دليل على أن النصوص قد اشتملت على كل شيء ، فلا حاجة الى قياس بعدها ؟

وأما الدليل الثاني على ابطال القياس فهو أنه حتى لو افترضنا انعدام النص في بعض الأحيان ، فكيف لنا أن نَقْدِّمَ دعوى بلا برهان ؟ ان قلنا ان الحكم في الفرع غير المنصوص عليه قد أُخِذَ مباشرة من النص ، فنحن هنا أبعد ما نكون عن القياس ، وأما اذا قلنا انه لم يؤخذ من نص ولا اجماع ، فنحن هنا انما نحكم بدون معرفة ، وبالتالي فان حكمنا لا بد من أن يجيء منطوياً على اشكال وتلبيس . وأما اذا زعم أصحاب القياس أن العقل يوجب أن يكون حكم الشئين المتشابهين في صفة ما حكماً واحداً فيما اشتبها فيه ، كان رد ابن حزم على هذا الزعم « نعم ، لا شك في هذا ولا في أنها غير مشتبهين فيما لم يشتبها فيه ، فبطل أن يحكم لهما بحكم واحد ، ولم يرد نص بتساويهما من أجل اشتباههما في صفة

(٣) ابن حزم : « الاحكام في أصول الاحكام » ، تحقيق الشيخ أحمد شاكر : ١٢٤٨ هـ ، الجزء الثامن ص ٢ (وانظر أيضا كتاب الشيخ محمد أبي زهرة المشار اليه آنفاً ، ص ٤١٣ - ٤١٤) .

«استويا فيها ١» . ويضرب لنا ابن حزم مثلاً فيقول إذا كان النص قد ورد بتحريم شيء ما ، فهل يكون من حقنا أن نحرّم شيئاً آخر ، لمجرد أنه يشبهه في بعض صفاته ؟.. « لقد لعن الله تعالى أناساً عصاة معتدين ، أفتراه يلعن كل أناس لأنهم مثل أولئك الملعونين في أنهم ناس وأنهم عصاة معتدون ؟ وأحرق قوماً لأنهم خانوا المكيال ، وأحرق معهم أطفالهم ونساءهم ، أفترى كل خائن للمكيال والميزان يَحْرَق هو وولده وامراته ؟ ان هذا لهو الضلال البعيد » ٢ .

وهنا قد يقول أنصار القياس ان أحداً لم يزعم بأن أى نوع من أنواع الشبه كاف للحكم فيما لا نص فيه بمثل الحكم بما فيه نص ، وإنما لا بد من وجود اشتراك بين الأصل والفرع في الوصف الذى اعتبر علة للحكم . ولكن ابن حزم يرفض أصلاً مبدأ قياس الفرع على الأصل ، لأنه يلاحظ أن هذا المبدأ يفتح السبيل أمام الكثير من ضروب التلاعب ، خصوصاً وقد أصبحنا نرى بعض الفقهاء يخرجون أشياء من جملة المشتبهات عن حكم وجد في بعضها ، بحجة أن هذا خرج عن أصله وشذ والشاذ لا يقاس عليه . « ونحن نقول : لو كان هذا الحكم المشذوذ أصلاً للشاذ ، لما شذ عنه ما شذ ، ولا يجوز أن ينبعث فرع من غير أصله . ولو كان ذلك ، لما كان

(١) ابن حزم : « ملخص ابطال الراى والقياس .. » ، ص ٢٩

(٢) التقريب لحد المنطق » ، ص ١٦٨

الأصل أصلاً للمتأصل به ، ولا كان المتأصل من الأصل متأصلاً منه ^١ .

ويعود أصحاب القياس الى الاعتراض فيقولون ان الله نفسه تعالى يقول : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » ، وماذا عسى أن يكون الاعتبار ان لم يكن هو القياس ؟ وابن حزم يرد على هذا الاعتراض فيقول ان أحداً لم يفهم قط أن معنى « اعتبروا » « قيسوا » ، خصوصاً وأن الآية قد جاءت بعقب قوله : « يخربون بيوتهم » ... « فلو كان معناه : « قيسوا » ، لكان أمراً لنا بأن نخرب بيوتنا كما أخربوا بيوتهم ! ومعنى الاعتبار في اللغة والقرآن التعجب . قال الله تعالى : « لقد كان في قصصهم عبرة » (أى عجب) ، « وان لكم في الأنعام لعبرة » (أى لعجبة) ، لا قياساً ^٢ . هذا الى أنه من المحال — فيما يرى ابن حزم — أن يقول لنا الله تعالى : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » وهو يريد « القياس » ، ثم لا يبين لنا ، لا في القرآن ولا في الحديث ، أى شيء تقيس ، ولا متى تقيس ، ولا على أى شيء تقيس ! « ولو وجدنا ذلك لوجب أن تقيس ما أمرنا بقياسه حيث أمرنا ، وحُرم علينا أن تقيس ما لا نص فيه جملة ولا تتعدى حدوده » ^٣ .

والحق أن ابن حزم لم يرفض القياس الا لايمانه الضمنى.

(١) التقريب لحد المنطق ، ص ١٦٨

(٢) « ابطال الراى والقياس ... » ، ص ٢٧ — ٢٨

(٣) « ابطال الراى والقياس » ص ٢٠

بأنه لا يمكن تصور نوازل غير منصوص عليها مطلقا في القرآن^١. وأقسام الاسلام في رأيه ثلاثة : الفرض ، والحرام ، والمباح . فإذا لم يكن نص "آمر" أو "ناه" ، فإن النص المبيح موجود ، وبالتالي فإن كل نازلة داخلية في عموم الاباحة . وأما إذا سألنا دعاء القياس : « ماذا تصنعون في الحوادث التي لا نص فيها » ، كان علينا أن نعكس عليهم سؤالهم « فنقول لهم : إذا جوزتم وجود نوازل لا حكم لها في قرآن ولا سنة فقولوا لنا ماذا تصنعون فيها ، فهو لازم لكم ، ونيس بلازم لنا ، لأن هذا عندنا باطل معدوم ، لا سبيل الى وجوده أبداً »^٢ . ويشرح لنا ابن حزم هذا المعنى في موضع آخر فيقرر أن كل ما حرمه الله فقد فصله وبينه باسمه ، وأن كل ما نهانا عنه رسوله فواجب تركه ، وأن كل ما أمرنا به الله ورسوله فواجب علينا بحسب الاستطاعة ، وأما ما لم يأت نص "بتحريمه ولا بإيجابه فهو مباح أو معفو عنه . « فاجتمع بهذا جميع أحكام الدين ، فمن ادعى في شيء أنه حرام ، سألناه أن بوجدنا تفصيله في النص والاجماع ، فإن أوجدنا والا فهو مباح بنص ما تلونا ، ومن ادعى إيجاب شيء سألناه أن يوجدنا الأمر به ، فإن أوجدنا لزمننا ، والا فهو مباح ساقط عنا ، وتبين أن كل حكم في الدين فهو منصوص عليه^٣ » .

(١) المرجع السابق : ص ٤٥

(٢) « الاحكام في أصول الاحكام » ، ص ٨ ، ص ١٦

(٣) « ملخص ابطال الراى والقياس » ص ٤٥/٤٦

ولما كان ابن حزم قد رفض الرأى ، وأبطل القياس ، فليس بدعاً أن نجد يرفض أيضاً مبدأ التعليل . وهو يشرح لنا السبب الذى من أجله يرفض الظاهريون مبدأ « السببية » فى الشرائع فيقول فى كتابه « التقريب لحد المنطق » : « .. ليس فى الشرائع علة أصلاً بوجه من الوجوه ، ولا شئ يوجبها إلا الأوامر الواردة من الله عز وجل فقط ، اذ ليس فى العقل ما يوجب تحريم شئ مما فى العالم وتحليل آخر ، ولا ايجاب عمل وترك ايجاب آخر ، فالأوامر أسباب موجبة لما وردت به . فاذا لم ترد فلا سبب يوجب شيئاً أصلاً ولا يمنعهُ ١ » . وليس معنى هذا أن ابن حزم ينكر أصلاً مبدأ « السببية » فى العالم الطبيعى ، فاننا نراه يقرر فى موضع آخر أن الله قد رتب الطبيعة بحيث تسير على نظام مطرد ولا تستحيل أبداً ، ولكنه يفرق بين عالم الطبيعيات وعالم الغيبيات ، فيقول ان العلة التى لا تتخلف أبداً انما تكون فى الطبيعيات فقط ، وأما فى مجال الشرائع فقد استأثر الله بحكمة الأوامر والنواهى ، دون أن يكون للبشر الحق فى أن يعللوا حراماً أو حلالاً لم يخبرنا الله ولا رسوله بعلته . ويشرح لنا ابن حزم هذا المعنى بالتفصيل فى كتابه الضخم « الاحكام فى أصول الأحكام » ، فيقول : « لسنا نقول ان الشرائع كلها لأسباب ، بل نقول : ليس منها شئ لسبب الا ما نص عليه منها أنه لسبب ، وما عدا ذلك فانما

(١) « التقريب لحد المنطق والمدخل اليه » ، ص ١٦٩

هو شيء أرادَه الله تعالى الذى يفعل ما يشاء ، ولا نحرم ولا نحلل ولا نزيد ولا ننقص ، ولا نقول الا ما قال ربنا عز وجل ، ونبينا صلى الله عليه وسلم ، ولا تتعدى ما قالوا ، ولا تترك شيئا منه . وهذا هو الدين المحض الذى لا يحل لأحد خلافه ، ولا اعتقاد سواه ... قال تعالى : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » ، فأخبر تعالى بالفرق بيننا وبينه ، وأن أفعاله لا تجرى فيها « لِمَ » . واذا لم يحل لنا أن نسأله عن شيء من أحكامه تعالى وأفعاله : « لِمَ كان هذا ؟ » ، فقد بطلت الأسبابُ جملةً ، وسقطت العلل البتة ، الا ما نص الله تعالى عليه أنه فعل أمر كذا لأجل كذا ، وهذا أيضا مما لا يسأل عنه . فلا يحل لأحد من العباد أن يقول : « لم كان هذا السبب ، ولم يكن لغيره » ، ولا أن يقول : « لم جعل هذا الشيء سببا دون أن يكون غيره سببا أيضا ؟ » ، لأن من قال هذا السؤال فقد عصى الله عز وجل وألحد في الدين ^١ . وصفوة القول أنه لما كان التعليل هو أن يستخرج المفتى علة للحكم الذى جاء به النص ، فإن التعليل باطل لأنه اخبار عن الله أنه حكم بكذا من أجل تلك العلة ، وبالتالي فإنه اخبار عن الله بما لم يخبر عن نفسه ، وهذا كذب وبطلان ^٢ . ولكن ، هل يكون معنى هذا أن ابن حزم يحرم علينا

(١) « الاحكام فى اصول الاحكام » ج ٨ ، ص ١٠٢ .

(٢) « ملخص ابطال الراى والقياس والاستحسان والتقليد والتعليل » ،

فلبحث عن مقاصد الله ، أو أنه ينهانا عن استقصاء أغراض الشارع ؟ ألسنا نلاحظ أن الله تعالى قد حكم بأشياء من أجل أشياء ، كقوله تعالى : « ولكم في القصاص حياة » ، فجعل الحياة وبقائها علة للقصاص ؟ بل ألسنا نجد في بعض الأحاديث النبوية تعليلا للأحكام ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الاستئذان من أجل البصر » ، أو كقوله عليه السلام في الرطب : « أينقص إذا يبس » ؟ قالوا : « نعم » ، قال : « فلا اذن » ... الخ ؟ وما قول ابن حزم أيضا في اجماع الأئمة على أن الحدود إنما هي للزجر والردع ؟ هذا ما يرد عليه ابن حزم بقوله : « اتنا لم نكر ما نص الله ورسوله ، بل نكر ما أخرجتموه بعقوباتكم وادعيتموه بلا برهان ولا نص ، وذلك اخبار عن الله بما لم يخبر ، وتقويل لرسوله بما لم يقل ^١ » . ومعنى هذا أن ابن حزم يوافق على أن مقاصد الشارع وأغراضه تطلب ، ولكنها لا تطلب إلا من النص . وهم لا ينكر وجود النص حاكما بأحكام ما لأسباب منصوصة ، وإنما هو ينكر تعدى تلك الحدود الى غيرها ، أو نقل تلك الأحكام الى غير ما وضعت له ، واختراع أسباب لم يأذن بها الله تعالى . — صحيح أن من واجبا الاعتقاد بأن في نصوص الشرع مصلحة المعاش والمعاد ، ولكن ليس من حقنا أن ننقل النص من موضعه ، لكي تفكر في علة مستنبطة منه . ولهذا يقرر ابن حزم

(١) ابن حزم : « ملخص ابطال القياس والراى والاستحسان والتقليد

والتعليل » ، ص ٤٧ - ٤٨

بصراحة : « أن الشيء اذا جعله الله سببا لحكم ما في مكان ما ، فلا يكون سببا الا فيه وحده ، على الملزوم وحده لا في غيره ^١ » .

وابن حزم يضيف الى ما تقدم أننا نعلم علم اليقين أنه لم يقل بالعلل أحد من الصحابة بوجه من الوجوه ، ولا أحد من التابعين ، ولا أحد من تابعي التابعين ، وإنما هو أمر حدث على يد أصحاب الشافعي ، واتبعهم عليه أصحاب أبي حنيفة ، ثم تلاهم فيه أصحاب مالك ^٢ . ولكن على الرغم من تعللهم بالآية الكريمة التي تقول : « ولكم في القصاص حياة » ، إلا أننا نجدهم أول تاركين لهذا التعليل ، لأنهم يقولون : « لا يتقص من العبد للعبد في النفس ، ولا من الوالد للولد في النفس » ، وبالتالي فإنهم يثبتون علتهم ويخالفونها . والحنفيون يسقطون القصاص عن متعمد قتل ، شرکه فيه مجنون أو والد . والمالكيون والشافعيون يقولون : « لا يتقص لعبد من حر ولا لدمي من مسلم » ، فهم بذلك يبطلون العلة ، وبذلك يبطل ادعائهم الاجماع على أذ الحدود إنما هي للزجر والردع . ويرد ابن حزم أيضا على كل آية استدلوها منها على جواز التعليل رداً خاصاً فيتوقف طويلاً عند الآية الكريمة التي تنص على تحريم الخمر

(١) « الاحكام في اصول الاحكام » ، ج ٨ ، ص ٩٠

(٢) المرجع السابق ج ٧ ، ص ١٧٧

والميسر^١ محاولا ابطال الاستشهاد بالتعليل في تلك الآية ، بحجة :
 أن العداوة والبغضاء لا تصلحان سببا للتحريم ، والا لوجب
 تحريم الكسب والاتجار وكثرة المال وغير ذلك مما قد تتولد
 عنه العداوة والبغضاء ، دون أن يكون حراما . ولا يتسع
 المقام — بطبيعة الحال — لمناقشة وجهة نظر ابن حزم في ابطال
 التعليل ، وانما حسبنا أن نقول انه يستدل على ذلك بأن الله
 لا يسأل عما يفعل ، وأنه لو كان للتعليل مقام في الشرع لكان
 ابليس محقا في تفضيله لنفسه على آدم ، ما دام هو قد خُلِقَ
 من نار ، وآدم قد خُلِقَ من طين ، والنار خير من الطين ،
 ولكان آدم معذورا في أكله من الشجرة ، لأنه لم يعرف علة
 النهي ! « واذن فأول ذنب عصي الله به ، التعليل لأوامر الله
 بلا نص ، وترك اتباع ظاهرها . وذلك قول ابليس : « ما نهاكما
 ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين .. » ، فاستنبط علة
 لنهي الله لهما عن أكل الشجرة !

ولم يجد أنصار التعليل أدنى صعوبة في الرد على حجج ابن
 حزم ، فقد قال قائلهم ان الآية الكريمة التي تنص على أن
 الله « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » لا تعنى حَظَرَ البحث
 عن علة النصوص في الشريعة ، بل هي تعنى أنه ليس لأحد أن
 يتناول على الله فيسأله عن علة أفعاله . وفرق كبير بين أن

(١) « انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ،
 ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » . (انظر رأى ابن حزم في
 تعليل هذا النص بالمصدر السابق ج ٨ ، ص ٨٩) .

يحاول الباحث تعليل النصوص لمعرفة قصد الشارع ، وبين أن يجعل مسئولية على الله في أفعاله أو في أقواله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وأما زعم ابن حزم بأن خطأ إبليس راجع إلى تعليله فهو زعم فاسد : لأن التعليل في حد ذاته ليس خطأ ، بل الخطأ هو ذلك التعليل الفاسد الذي تصوره إبليس حينما جعل التفضيل هو العنصر الذي كان منه التكوين ، متناسياً أن التفضيل من الله سبحانه ، وهو قد فضل آدم ، فلا محل بعد ذلك للنظر إلى أصل التكوين . ولهذا يقرر خصوم ابن حزم أن في إبطال التعليل حَجْراً على العقل البشري الذي يهدف دائماً إلى معرفة مقاصد الشارع والوقوف على أغراضه . « ولا شك أن الفقه الاسلامي ما كان ليتسع أفقه ، وليعالج مشاكل الناس ، ويخرج بتلك القواعد الفقهية التي تجمع متفرق المسائل ، لولا تعليل النصوص والربط بين الفروع المختلفة بروابط جامعة من علل مستنبطة من النصوص عامة ، أو بعلة خاصة من نص خاص ، فإن التعليل هو الذي فتح عين الفقه ، بل إن التعليل هو الفقه ، أو هو لباب الفقه ، فالذين يغلطون باب التعليل يغلطون باب الفقه نفسه ^١ » .

ومما يتصل بإبطال التعليل رفض ابن حزم أيضاً لمبدأ الاستحسان . وهو يلخص رأيه في الاستحسان فيقول : « حدث الاستحسان في القرن الثالث وهو فتوى المفتي بما يراه حسنة

(١) محمد بن زهرة : « ابن حزم - حياته وعصره - آراؤه وفقهه »

دار الفكر العربي ، ص ٤٠٩

فقط ، وذلك باطل لأنه اتباع الهوى وقول بلا برهان ،
والأهواء تختلف في الاستحسان ^١ . والله يقول : « ما كان
لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم
الخيرة من أمرهم » ، وهو يقول أيضاً : « وعسى أن تحبثوا
شيئاً وهو شر لكم » . وقال عليه السلام : « حَفَّتْ الجَنَّةُ
بالمكاره » ولو صار أمر الدين الى الاستحسان ، لكان لكل
أحد أن يشرع ما شاء ! ولكن « من المحال أن يكون الحق فيما
استحسننا دون برهان ، لأنه لو كان ذلك لكان الله تعالى يكلفنا
ما لا نطيق ، ولبطلت الحقائق ، ولتضادت الدلائل ، وتعارضت.
البراهين ، ولكان الله تعالى يأمرنا بالاختلاف الذي قد نهانا
عنه وهذا محال . لأنه لا يجوز أصلاً أن يتفق استحسان العلماء
كلهم على قول واحد على اختلاف هممهم وطبائعهم
وأغراضهم ... فبطل أن يكون الحق في دين الله عز وجل مردوداً
الى استحسان بعض الناس ، وإنما يكون هذا — والعياذ بالله —
لو كان الدين ناقصاً ، فأما وهو تامٌّ لا مزيد فيه ، مُبَيَّنٌّ
كله منصوص عليه أو مجمع عليه ، فلا معنى لمن استحسَن شيئاً
منه أو من غيره ، ولا لمن استقبح أيضاً شيئاً منه أو من غيره .
والحق حق وان استقبحه الناس ، والباطل باطل وان استحسَنه
الناس . فصح أن الاستحسان شهوة واتباع للهوى وضلال ^٢ .

(١) ابن حزم : « ملخص ابطال القياس والرأى والاستحسان والتقليد
والتعليل » ص ٥ .

(٢) ابن حزم « الاحكام في أصول الاحكام » ، الجزء السادس ، ص ١٧

وواضح من هذه العبارة أن ابن حزم لا يرى في الاستحسان سوى صورة تعسفية أو اعتباطية من صور الرأي ، فضلا عن أنه يلاحظ أن الاستحسان قد يفتح باب الخلاف على مصراعيه بين الفقهاء : لأنه يؤدي إلى أن يستحسن فقيه " ما لا يستحسنه آخر . ولم يكن غريباً على فقيه يرى في النصوص كل شيء ، أن يرفض منزع الاستحسان الذي يؤدي إلى اضطراب الأحكام واختلاف الآراء في الدين .

... تلك اذن هي الأصول العامة لمذهب ابن حزم الظاهري الذي يمنع التقليد ، ويرفض مبدأ الاجتهاد بالرأي ، ويثبطل القياس ، ولا يحاول تعليل الأحكام ، ويستنكر مبدأ الاستحسان . ولا يتسع المجال هنا لبيان تطبيقات ابن حزم للمنهاج الظاهري على بعض المسائل الفقهية ، ولكن القارىء المعننى بدراسة الفقه الظاهري يستطيع أن يجد في كتاب « المحلى » الكثير من الأمثلة لأسلوب ابن حزم في استنباط الأحكام وتفريع الفروع . وحسبنا أن نكون قد قدمنا للقارىء صورة تخطيطية عامة لمنهج ابن حزم الظاهري في الاعتماد على ظاهر الكتاب والسنة دون تأويل أو تعليل . وأغلب الظن أن يكون ابن حزم قد تعصب لهذا المنهج للوقوف في وجه حركة المستهينين بالنصوص من أنصار القياس والتعليل ، وللقضاء على شتى الأحكام الخارجة على أصول الكتاب والسنة . وهكذا نصب ابن حزم نفسه مدافعا عن الفقه الظاهري في بلاد الأندلس ، وألّب عليه الفقهاء والعامة والأمراء بسبب تعصبه

لهذا الفقه وتحمسه في الذود عنه . والظاهر أن البعض قد لأمه
على هذا التعصب للمذهب الظاهري ، فراح يقول :

قالوا تحفظ فان الناس قد كثرت

أقوالهم ، وأقاويل العدي محن

فقلت : هل عيهم لي غير أني لا

أقول بالرأي ؟ اذ في رأيهم أفن

وأني مولع بالنص ، لست الى

سواه أنحو ، ولا في نصره أهين

لا أثني نحو آراء يقال بها

في الدين بل حسبى القرآن والسنن^١

ومهما كان من صرامة المذهب الظاهري الذي تحمّل ابن
حزم في سبيل الدفاع عنه الكثير من العنت والاضطهاد
والتشريد ، فان من المؤكد أن فقيهما كان مخلصا في تمسكه به ،
وتحمسه له ، وذوده عنه . وقد بذل ابن حزم جهدا كبيرا في
سبيل نقد فقهاء القياس ، والحملة على فقهاء الاستحسان ،
فراح يحشد الكثير من النصوص والآثار في سبيل التدليل على
بطلان التقليد والرأي والقياس والتعليل والاستحسان ، وكانت
حجته في ذلك أن العبرة بظواهر النصوص ، وهي بيّنة
واضحة ، ودلالاتها ظاهرة سافرة ، فلا موضع لقياس أو تعليل .
ولهذا فراه يختم واحدا من كتبه بقوله : « من المحال الباطل

(١) ابن حزم : « حجة الوداع » ، تحقيق مدوح حقي ، دمشق ، تذييل

عن « الظاهرية » ، ص ١٤٦

أن يكون الله يأمرنا بالقياس أو بالتعليل أو بالرأى أو بالتقليد ،
ثم لا يبين لنا : ما القياس ؟ وما التعليل ؟ وما الرأى ؟ وكيف ،
يكون كل ذلك ؟ وعلى أى شىء تقيس ؟ وبأى شىء نعلل ؟
وبرأى من قبل ؟ ومن تقلد ؟ .. لأن هذا تكليف ما ليس فى
الوسع ^١ . ولكن على الرغم من تفانى ابن حزم فى الدفاع
عن الفقه الظاهرى ، فإن دعوته لم تكتف نجاحا كبيرا فى بلاد
الأندلس ، حتى أننا لنجد أبا بكر بن العربى (المتوفى سنة
٥٤٦ هـ) بعد وفاة ابن حزم بمائة سنة يتولى الرد عليه فى كتابين
مشهورين : « العواصم من القواصم » و « الدواهي والنواهي » ،
كما نجد واحداً من أسباطه وهو أحمد بن محمد بن حزم يؤلف
كتاباً فى الرد عليه سماه « الزوائغ والدوامغ » . ومع ذلك فقد
انتشر تلاميذ ابن حزم فى المشرق والمغرب ، وكان من بين
العلماء البارزين الذين تأثروا بمذهبه الظاهرى فى العبادة
المتصوف العربى الكبير محبى الدين بن عربى (٥٦٠ -
٦٣٨ هـ) . ثم قامت دولة الموحدين فى أواخر القرن السادس
وأوائل القرن السابع فنشرت المذهب الظاهرى فى الأندلس
والمغرب ، وعمم العمل بهذا المذهب فى شمال افريقية والأندلس
يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الذى أخذ على عاتقه نشر
الفقه الظاهرى وحمل الناس عليه بقوة السلطان .

(١) ابن حزم : « ملخص ابطال القياس والرأى ... الخ » ، دمشق ،

تحقيق سعيد الافغانى ، ص ٧٣

البفصل الخامس

ابن حزم المؤرخ

لم يكن من قبيل الصدفة أن يكون ابن حزم مؤرخاً ممتازاً : فقد اجتمعت له من صفات الصدق والضبط والدقة وقوة الملاحظة وحسن الاستدلال ما كان كافياً لأن يجعل منه راوية أميناً ، ومحققاً نزيهاً ، ومؤرخاً واسع الأفق ، والحق أننا لو تصفحنا أى كتاب من كتب ابن حزم ، لوجدنا أنه قلما يخلو من اشارات تاريخية ، فان مفكرنا الأندلسى الكبير كان يشعر شعوراً واضحاً بأن الحاضر ثمرة الماضى ، وأن المستقبل لن يكون الا صدى للحاضر والماضى . فنحن نجدده - مثلاً - فى كتاب « طوق الحمامة » يشير فى تضاعيف حديثه الى الكثير من الأحداث التاريخية التى مرت ببلاده ، دون أن يقتصر على سرد وقائع حياته الخاصة ، فنعرف من خلال أحاديثه ما مر بالأندلس من فكبات ، وما اعتور قرطبة - بصفة خاصة - من أزمات ، وقف على أسماء الكثير من الأمراء المتنازعين والخلفاء المتصارعين .. الخ . ونحن نقرأ فى مصنفه الضخم : « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » تاريخاً مقارناً للأديان ، واشارات تاريخية عديدة الى العصور الأولى

لليهودية والمسيحية ، فضلا عن أننا نجد ابن حزم يهاجم الملل الأخرى ، ويرنها أضعف من أن تثبت للنقد الصحيح ، بسبب النقص في النقل ، وضعف الثقة في الناقلين . ولما كان « النقل » أساسا من أسس المذهب الظاهري ، بل ميزة انفردت بها الملة الإسلامية على غيرها من الملل في نظر ابن حزم ، فليس بدعا أن نجده يتناول السيرة النبوية بالنظر الجديد ، والتحديد والتقيد ، خصوصا وأن السيرة جزء هام من هذا النقل ^١ . ومن هنا فقد قدم لنا ابن حزم في كتابه « جوامع السيرة » عرضا طريفا للسيرة النبوية كشف لنا به عن سعة اطلاعه ، ودقة ضبطه في تقيد، التواريخ ، ووضوح منهجه في معالجة المسائل التاريخية من حيث موضوعها وزمنها . وقد تمشت مع هذه الدقة الجازمة ، والضبط الواثق — كما لاحظ متحققا جوامع السيرة — « صفة أخرى استملاها أبو محمد من قوله بالظاهر . ولا شك أن طبيعة السيرة — من حيث هي ، ومن حيث بناؤها على الإيجاز — لم تتح لأبي محمد أن ينطلق في انتزاع الأحكام من النصوص تأييدا لمذهبه ، ولذلك لم تستعلن الظاهرية في تفسيره للأحداث ، ولكنها حين تنفست في هذا المجال الضيق ، جاءت طريفة تحمل الطابع الحازم الذي اشتهر به ابن حزم ، حين يطمئن الى النص في مواجهة خصومه ^٢ .

(١) د. احسان عباس و د. ناصر الدين الأسد : مقدمة « جوامع السيرة »

لابن حزم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٥ - ٦

(٢) المرجع السابق : ص ١١ (المقدمة) .

على أن لابن حزم كتاباً آخر يضعه في مصاف كبار المؤرخين ، ألا وهو كتاب « جمهرة أنساب العرب » . وعلى الرغم مما اتسم به هذا الكتاب من إيجاز واضح ، فإنه مع ذلك يعدّ من أوسع كتب النسب وأحفظها وأدقها وأكثرها استيعاباً . ولا بد من أن يكون ابن حزم قد توسّع في الاطلاع على الكثير من المصنفات السابقة في الأنساب والتراجم وتواريخ الأعلام والممالك ، فأننا نجده يقدم لنا في « جمهرة أنساب العرب » صورة متكاملة مترابطة استوعب فيها تواريخ الرجال والصحابة ، والأشراف من آل الرسول وذريتهم ، والخلفاء وأبناء الخلفاء والوجوه من أصحاب السلطان والولايات وأنسالهم ^١ . والواقع أن ابن حزم كان يعدّ علم النسب جزءاً لا يتجزأ من علم الخبر — أو علم التاريخ — فليس بدعاً أن نراه يهتم بدراسة أنساب العرب ، والبربر ، والفرس ، وبسبب إسرائيل وغيرهم . وقد كان حديث ابن حزم عن جمهرة نسب البربر بمثابة وثيقة هامة اعتمد عليها الكثير من المؤرخين في دراساتهم لهؤلاء القوم ، كما فعل مثلاً الامام المؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون (٧٣٢ — ٨٠٨) الذي اعترف بذلك صراحة في كتابه المشهور : « العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ^٢ » .

(١) عبد السلام هارون : تقديم لكتاب « جمهرة أنساب العرب » ، دار

المعارف ، ١٩٦٢ ، ص ١٣

(٢) المرجع السابق ، التقديم ، ص ١٤

ولم يقتصر ابن حزم في كتابه المشار اليه على دراسة أنساب العرب وغيرهم من الأمم ، بل هو قد قدّم لنا أيضا فصلا هاما في ديانات العرب وأصنامها ، فضلا عن أنه قد اهتم أيضا بالتعرض للمفاخرة المشهورة بين عدنان وقحطان .. الخ .

ومن الدراسات القيمة التي قدمها لنا ابن حزم في التاريخ الاسلامي كتاب « نقط العروس في تواريخ الخلفاء » ، وهو نص نفيس لا تقتصر أهميته على ما ورد فيه من نظائر تاريخية مذهشة ، وأخبار شخصية وسياسية هامة ، بل تمتد أيضا الى ما تضمنته من شرح موجز للخطوط العامة للخلافة الاسلامية والخلفاء حتى عصر ابن حزم ، سواء ما اتصل باقامة هذا النظام وانتقاله من عصر الى عصر ، ومن خليفة الى خليفة بعهد أو مغالبة ، أو ما أصاب هذا النظام من تدهور وفساد ، شهد ابن حزم بعينه جوانب منه في بلده ^١ . وقد جمع ابن حزم في هذه الرسالة الصغيرة الكثير من الطرائف عن الخلفاء الاسلاميين ، فهو يحدثنا مثلا عن أكثر الخلفاء عمرا ، وأقصرهم عمرا ، وعن ولي الخلافة وأخوه أسنث منه حي ، وعن كان له اسمان من الخلفاء ، وعن ولي الخلافة منهم صبي ، ومن وليها مسنا قد تجاوز الستين ، كما يحدثنا أيضا عن خلع من الخلفاء وسلم ، وعن خلع وسلم وبقي معتقلا ، وعن خلع وسُملت عيناه ، وعن خلع وقتل اثر خلعه ، وعن ذوى الفتوح منهم ، والأدباء

(١) دكتور شوقي ضيف : مقدمة : « نقط العروس في تواريخ الخلفاء » مجلة

كلية الآداب ، ١٩٥١ ، ص ٤٤

والشعراء من بينهم ، والمجاهرين بالانفهامك في المعاصي من
جملتهم ... الخ . ولا يقتصر ابن حزم على ذكر هذه الطرائف ،
بل هو ينقل إلينا أيضا الكثير من الأخبار الهامة عن الخلفاء ،
فيحدثنا عمن لم يكن بيده من الخلافة الا الرسم ، وعمن غاب
عن موضع خلافته ، وعمن ولّى مرتين ، وعمن ولّى منهم بعد
عمه ، وعن أكثر الخلفاء ولداً ، وعمن قام بدعوة خلفاء بنى أمية
بالأندلس في المشرق ، وعمن تسمى بالخلافة من غير قریش وهو
غير خارجي ، وعمن أراد أن يتسمى بها من هؤلاء ثم منعه
مانع ، وعمن قتل أباه أو ابنه أو عمه أو أخاه أو ابن أخيه من
الخلفاء المتغلبين ... الخ . ولابن حزم طريقة ساخرة في التعليق
على بعض أحداث الخلافة الإسلامية فهو يقول مثلاً : « خليفتان
تصالحا : وهذا أمر لم يَسْمَعْ في الدنيا بأشنع منه ، ولا بأدل
على ادبار الأمور : يحيى بقرطبة ، والقاسم باشبيلية ^١ » . وهو
يقول أيضا تحت عنوان : « أخلوقة لم يقع في الدهر مثلها » :
« ظهر رجل حصري بعد اثنتين وعشرين سنة من موت هشام بن
الحكم المؤيد ، وادعى أنه هو ، فبويع له ، وخطب له على
جميع منابر الأندلس في أوقات شتى ، وسفِكت الدماء ،
وتصادمت الجيوش في أمره ^٢ » . وابن حزم يحدثنا كذلك عن
واقعة قيام أربع خلافات بالأندلس في وقت واحد ، فيقول انها
فضيحة لم يقع في العالم الى يومنا مثلها : « أربعة رجال في

(١) المرجع السابق : ص ٨٠

(٢) المرجع السابق : ص ٨٣

مسافة ثلاثة أيام في مثلها كلهم يتسمى بامرة أمير المؤمنين ،
ويُخطب لهم بها في زمن واحد ، وهم : خلف الحصرى
باشبيلية على أنه هشام بن الحكم ، ومحمد بن القاسم بن حمود
بالجزيرة ، ومحمد بن ادريس بن على بن حمودة بمالقة ، وادريس
ابن يحيى بن على بن حمود ببشتر^١ . وواضح من هذا
النص أن ابن حزم يسخر من مجتمع الطوائف سخرية لاذعة ،
فانه لا يمكن تصور قيام أربع خلافت بالأندلس في وقت واحد ،
اللهم الا اذا كانت الدولة الاسلامية نفسها قد استحالت الى
مجموعة من الوحدات الاقطاعية التي لا وازع لها من دين أو
أخلاق^٢ ! ومهما يكن من شيء فان لرسالة ابن حزم في تاريخ
الخلافة الاسلامية قيمة تاريخية كبرى لأنها تعين الباحث على
دراسة هذا النظام ، والاحاطة بحسناته وعيوبه ، خصوصا وأن
ابن حزم لم يترك من ذلك شيئا الا أحصاه عدداً ، مستخدماً في
تدوين رسالته عقلية تاريخية متنازة كانت بارعة في الجمع
والاحصاء الى أبعد الحدود^٣ .

وربما كان في استطاعتنا أيضاً أن نضيف الى قائمة مصنفات
ابن حزم التاريخية رسالته الصغيرة في ذكر فضائل علماء
الأندلس وكتّابها ، وهي الرسالة التي قلنا فيما سبق ان المقرئ

(١) «نقط العروس» ، ص ٨٣ - ٨٤

(٢) محمد عبد الله عنان : ابن حزم الفيلسوف الأندلسي الذي أرح لمجتمع

الطوائف « بحث منشور بمجلة « العربي » ، العدد ٦٨ ، يولييه سنة ١٩٦٤ ،

ص ٨٠ - ٨٥

(٣) د. شوقي ضيف : مقدمة «نقط العروس» ، ص ٤٥

قد أدرجها بتمامها في كتابه « تفح الطيب » . وعلى الرغم مما اتسمت به هذه الرسالة من إيجاز ، فإنها قد انطوت على تاريخ شامل للفكر الأندلسي والآداب الأندلسية حتى أوائل القرن الخامس الهجري . ولئن كان ابن حزم قد كتب هذه الرسالة ليغادر بها المشرق كله — وهو منبع العلوم والعلماء — بعلم الأندلس وعلمائها ، إلا أننا نجد فيها موسوعة مختصرة لأهم معارف الأندلسيين وعلمائهم ومصنفاتهم . وقد اتبع ابن حزم في كتابة هذه الرسالة طريقة المفاضلة ، فكان يذكر مؤلفا لمشرقي في فن من الفنون ثم يذكر ما يقابله الأندلسي في هذا الفن نفسه ، مفضلا الثاني على الأول . ومهما كان من طابع التحجير الذي اتسمت به هذه الرسالة ، فإنها تعد بلا شك فهرسا تاريخيا شاملا لأسماء علماء الأندلس وأسماء مؤلفاتهم حتى زمن كتابتها^١ .

على أن أهمية ابن حزم كمؤرخ لا تنحصر فيما خلف لنا من مصنفات تاريخية ، وإنما هي تتجلى بصفة خاصة في المنهج الذي اصطنعه لدراسة أحداث التاريخ والحكم على وقائع عصره . وإن ابن حزم ليحدثنا في رسالته « مراتب العلوم » عن مكانة التاريخ بين غيره من العلوم ، فيبين لنا أهمية علم الأخبار ، ويحدثنا عن التواريخ الصحيحة والمعتلة ، ويبين لنا كيف أن تاريخ الأمة الإسلامية هو أصحّ التواريخ ، ويظهرنا على أن علم النسب هو جزء من علم الخبر ... الخ . ولكن ابن حزم

(١) سعيد الأفغاني : « ابن حزم الأندلسي » ، ص ٤٤

لا يبالغ فيجعل من « علم الخبر » علم العلوم ، لأنه يرفض مقالة القائلين بآفته لا يتعلم شيء الا بالخبر ، ومن ثم فانه لا يعد الحقيقة التاريخية معياراً لكل حقيقة ، بل هو يحاول البحث عن دعامة عقلية يستند اليها في تمييز صحيح الخبر من فاسده . ولهذا نراه يقول في موضع آخر : « .. يقال لمن قال لا يتذكر شيء الا من طريق الخبر : أخبرنا الخبر كله حق ، أم كله باطل ؟ أم منه حق وباطل ؟ فان قال هو باطل كله ، كان قد أبطل ما ذكر أنه لا يتعلم شيء الا به ، وفي هذا ابطال قوله وابطال جميع العلم . وان قال حق كله ، عورض بأخبار مبطله لمذهبه ، فلزمه ترك مذهبه لذلك ، أو اعتقاد الشيء وضده في وقت واحد ، وذلك ما لا سبيل اليه ، وكل مذهب أدى الى المحال والى الباطل فهو باطل ضرورة . فلم ينبق الا أن من الخبر حقاً وباطلاً . فاذا كان كذلك ، بطل أن يعلم صحة الخبر بنفسه ، اذ لا فرق بين صورة الحق منه وصورة الباطل . فلا بد من دليل يفرق بينهما ، وليس ذلك الا لحجة العقل المفرقة بين الحق والباطل ^١ » . ومعنى هذا أن ابن حزم يرى في العقل وحده المعيار الصحيح للتمييز بين الحق والباطل ، وبالتالي فان المؤرخ في حاجة الى الاستعانة بالأداة العقلية من أجل التفرقة بين الصحيح والفاسد من الأخبار . وقد سبق لنا أن رأينا كيف استند ابن حزم الى بديهية من بديهيات العقل ، ألا وهي البديهية القائلة بأن أحداً لا يعلم

(١) « الاحكام في أصول الاحكام » ج ١ ، ص ١٨

الغيب ، من أجل الاستدلال على أنه إذا روى لنا شاهدان مفترقان يجهل أحدهما الآخر تماماً ، خبراً واحداً بعينه ، دون أن يكون الواحد منهما قد نقل الخبر عن الآخر ، فإن مثل هذا الخبر لا بد بالضرورة من أن يكون حقاً مقطوعاً به ، « والا لكان الحاكى لمثل هذا الخبر عالماً بالغيب ، لأن هذا هو علم الغيب نفسه ، وهو الاخبار عما لا يعلم المخبر عنه بما هو عليه ١ » ... والمتأمل في نقد ابن حزم للكثير من القصص الدينية الذي ورد في التوراة والانجيل ، يلاحظ أن ابن حزم كان يحكم عقله في كل رواية من الروايات الواردة في هذين الكتابين قبل الحكم بقبولها أو رفضها . ولعل هذا هو السبب في أننا نجد يقرر أحياناً أن بعض روايات التوراة هي أقرب الى الخرافات منها الى أى شيء آخر ٢ ! والأمثلة كثيرة على عناية ابن حزم بتحري الصدق وتوخي الدقة في اختيار ما يقبله العقل من روايات ، واستبعاد ما يبدو منها ضرباً من المحال . فهو — مثلاً — حينما يناقش ما ورد في سفر الخروج عن عدد بنى اسرائيل وقت خروجهم من مصر ، يحصى أسباط اسرائيل سبطاً سبطاً ، ويقوم بتعداد دقيق لأولاد اسرائيل المذكورين في التوراة ، لكي يخلص الى القول بأن العدد المذكور لا يتناسب مطلقاً مع الحقيقة ، خصوصاً وأنه لا يتعقل مطلقاً أن تكون كل امرأة يهودية قد أنجبت أكثر من عشرين أو ثلاثين ولداً ! وهو

(١) « الفصل في الملل والاهواء والنحل » ، ج ١ ، ص ٧

(٢) « الفصل في الملل والاهواء والنحل » ، ج ١ ، ص ١٣٧

يدل على صحة رأيه بقوله : « وقد علم كل من يميز من الرجال والنساء أن الكثرة الخارجة من الأولاد لم توجد في العالم ، لصعوبة تربية أطفال الناس ، ولكون الاسقاط في الحوامل ، ولا بطاء حمل المرأة بين بطن وبطن ، ولكثرة الموت في الأطفال . فهذه أربع عوارض قواطع دون الكثرة الخارجية في الأولاد للناس ، ثم كون الاناث في الولادات أيضا . ولو طلبنا أن نعد من عاش له عشرون ولداً فصاعداً من الذكور وبلغوا الحلم ، فما وجدناهم الا في الندرة ، ثم في القليل من الملوك وذوى اليسار المفترط الذين تنطلق أيديهم عن الكثير من النساء والاماء ... وقد شاهدنا الناس ، وبلغتنا أخبار أهل البلاد البعيدة ، وكثر بحثنا عما غاب عنا منا ، ووصلت اليها التواريخ الكثيرة المجموعة في أخبار من سلف من عرب وعجم في كثير من الأمم ، فما وجدنا في ذلك المعهود من عدد أولاد الذكور في المكثرين الذين يتحدث بهم عند كثرة الولد الا من أربعة عشر ذكراً فأقل ^١ » ... وابن حزم يضيف الى هذه الملاحظات جميعا ، ما كان عليه بنو اسرائيل من فاقة عظيمة ، ونصب ، وذل ، وسخرة متصلة ، فيقطع بأن الاتساع في العيال الى الحد المذكور في التوراة ضرب " من المستحيل ، أو بالأحرى « كذبة عظيمة مطبقة فاضحة » ! والذي يعنينا من هذه المناقشة — وأمثالها — أن ابن حزم يستخدم في مناقشة الروايات التاريخية عقلية علمية موضوعية ، فيقيس كل خبر بمقياس

(١) المرجع السابق : ج ١ ، ص ١٧٤ - ١٧٥

العقل ، ويرجع الى أوليات الحس والعقل من أجل التمييز بين الممكن والممتنع ، والتفرقة بين الصحيح والفاسد من الأخبار .
وان ابن حزم ليؤمن ايمانا قاطعا بأن في الطبيعة نظاما مطردة لا تحيد عنه ، وستننا ضرورة لا تشذ عنها . وهو يشرح لنا رأيه في ثبات الطبائع واطراد العادات فيقول ان الله عز وجل « رتب الطبيعة على أنها لا تستحيل أبداً ، ولا يمكن تبديلها عند كل ذى عقل ، كطبيعة الانسان بأن يكون ممكنا له التصرف في العلوم والصناعات ان لم يعترضه آفة ، وطبيعة الحمير والبغال بأنه غير ممكن منها ذلك ، وكطبيعة البر أن لا يثبت شعيراً ولا جوزاً ، وهكذا كل ما في العالم والقوم مقرون بالصفات وهي الطبيعة نفسها ... وهكذا كل شيء له صفة ذاتية فهذه هي الطبيعة ^١ » . ولا بد للمؤرخ حين يكون بازاء حدث أو رواية ، أن يعمل عقله في الحكم على مدى احتمال هذه الرواية أو امكان ذلك الحدث ، حتى لا يقبل من الروايات ما هو متحالف يناقض طبيعة الأشياء ، ولا يروى من الأحداث ما هو خيال لا يمت الى الواقع بأدنى صلة . وقد أخذ ابن حزم على عاتقه تطبيق هذا المنهج في دراساته التاريخية ، فكان يرفض من الأحداث ما يتناقض مع سنن الكون وطبائع الأشياء ، وكان يستبعد من الروايات ما يشتم فيه رائحة الكذب أو التلفيق أو الاختلاق . ولعل من هذا القبيل مثلاً ما جاء في التوراة عن سحرة مصر الذين تحداهم موسى عليه السلام : فقد قيل عنهم

(١) « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ج ٥ ، ص ١٦ .

أنهم استطاعوا الاتيان بالكثير من المعجزات وخوارق الأفعال .
وابن حزم يعلّق على هذه الرواية بقوله : « ان الذى عمل
السحرة إنما هو افك وتخيل وكيد ، وهذا هو الحق الذى
تشهد به العقول ... فصح أن فعل السحرة حيلة مموهة
لا حقيقة لها ، وهذا الذى يصححه البرهان . اذ لا يتحيل
الطبايع الا خالقها شهادة لرسله وأنبيائه ، وفرقا بين الصدق
والكذب ، لا قولهم عمل السحرة مثل ما عمل موسى ... وانهم
الى الآن يزعمون أن احالة الطبايع ، وقلب الأجناس عن صفاتها
الذاتية الى أجناس أخرى ، واختراع الأمور المعجزات فى البنية
يتقدّر على ذلك بالرقى والصناعات . واعلموا أن من صدق
ذلك فهو مشبّط للنبوة بلا مرية : اذ لا فرق بين النبى وغيره
الا فى هذا الباب ^١ » . وهكذا نرى أن إيمان ابن حزم بوجود
حقائق ثابتة للأشياء ، وكفره بالسحر والخرافة والأسطورة
وشتى ضروب الزيف والتضليل ، قد عملا على صبّغ أحكامه
التاريخية بصبغة عقلية موضوعية ، فكان المعيار عنده للتمييز
بين الصحيح من الروايات وفاسدها إنما هو دائما أوليات الحس
والعقل .

والحق أننا نجد لدى ابن حزم روحاً استقرائية دقيقة ،
تلاحظ ما بين الأشياء من علاقات ، وتميّز ما يجمع بينها من
صفات ، فتحاول استخلاص القاعدة المشتركة التى تنطوى
تحتها سائر الجزئيات ، وتعتم أحكامها على ما صح فى نظرها

(١) المرجع السابق : ج ١ ، ص ١٥٥

اتفاقته في الجوهرى من الخصائص والمميزات . ولئن كان ابن حزم قد حمل على « الاستقراء الناقص » — كما مر بنا من قبل — الا أنه قد قدم لنا في دراساته التاريخية الكثير من الاستقراءات العلمية الدقيقة ، فأثبت لنا بذلك طول باعه في استقصاء الوقائع ، وقدرته الهائلة على تتبع الأحداث ، وشغفه الكبير بالتعداد والاحصاء . ولعل من هذا القبيل — مثلا — ما فعله المؤرخ الأندلسى الممتاز في رسالته « نقط العروس لتواريخ الخلفاء » حيث نراه يستقرى من ولى بولاية عهد من الخلفاء ، ومن تلقب بألقاب منهم ، ثم يمضى في استقراء من ولى الخلافة من خلفاء الاسلام في حياة أبيه ، مستقريا أسماء الخلفاء في الشرق والغرب ، كمن أضاف اسمه أو لقبه الى الدولة أو الملة أو الأمة (مثل ولى الدولة ، وركن الدولة ، وصمصام الدولة ، وبهاء الدولة ، وغيث الأمة ، وسيف الملة ، وشمس المعالى ، وزين الأيام والليالى ... الخ .) ! ويعقب ابن حزم على هذه القائمة الطويلة من الأسماء فيقول : « ... ثم انصرف الأمر واتسع ، ثم رذل الأمر بالشرق والمغرب جدا ، حتى تسمى هذه الأسماء السمامرة ورجال الناس ، ليثرى الله عز وجل عباده هو أن ما تنافسوا عليه ، وغالوا به . وصح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ... حقيقا على الله أن لا يرفع الناس شيئا الا وضعه الله أو كلاما هذا معناه . واستبان أن الحقيقة هي العمل لله عز وجل ، والعدل في البلاد ، والعمل بمكارم الأخلاق ، وحمل الناس على الكتاب والسنة . فذلك الذى

لا يقدر عليه سخيـف ، ولا يطيقه ضعيف . وبهذا يتبين فضل القوى على الساقط المهين ، لا بأسماء يقدر على التسمى بها كل خسيس واهن ، والله الأمر من قبل ومن بعد ^١ ... » . وهكذا يستعرض ابن حزم أمام أنظارنا شتى الألقاب الفخمة التي طالما تعلق بها الخلفاء والولاة ، لكي يبين لنا كيف انحدرت تلك الألقاب بانحدار منتحليها ، وكيف استحالـت في النهاية الى مجرد ألفاظ رنانة تخفى وراءها ضعفا ومهانة ^٢ !

وقد سبق لنا أن رأينا كيف أخذ ابن حزم على ملوك الطوائف استهتارهم وضعفهم وقلة اكترائهم بأمور الدين ، خصوصا وقد أصبح شغلهم الشاغل هو جمع الأموال ، وبناء القصور ، وفرض الجزية والمكوس على رقاب المسلمين . وزاد الطين بلة — في نظر ابن حزم — أن قام بعض خصوم الاسلام بالطعن في القرآن ، فلم يحرك هؤلاء الحكام ساكنا ، كما فعل مثلا اسماعيل بن نغالة اليهودي الذي ألف رسالة في الاسلام طعن فيها في بعض آيات القرآن ، فلم يتصد أمير غرناطة باديس ابن حبوس للرد عليه أو ردعه ، بل ظل محتفظا بوزيره اليهودي وكأنه لم يتهجم على الدين الحنيف ! ولم يقف ابن حزم عند

(١) « نـقـط العروس في تواريخ الخلفاء » ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، مجلة كلية الآداب ، ١٩٥١ ، ص ٨٦

(٢) محمد أبو زهرة : « ابن حزم — حياته وعصره — آراؤه وفقهه » ١٩٥٤ ، ص ١٥٥

هذا الحمد ، بل هو قد نص أيضا على الفوضى الاجتماعية والاقتصادية التي استشرت في البلاد ، نتيجة لسوء سياسة أمراء الطوائف في الداخل والخارج معا ، مما أدى الى انتشار الظلم والفساد والاستبداد . ولا شك أن حاكم أية مدينة حينما يسمح بالغارة على الرعية ، ويبيح للجند قطع الطريق ، ويضرب المكوس والجزية على رقاب المسلمين ، ويسلّط اليهود ليجمعوها منهم ، فإنه بذلك إنما ينزل بشعبه أقصى ضروب العنف والظلم ، خصوصا وأنه يمكن للذميين من المسلمين . وقد وصف لنا ابن حزم هذا الوضع الشائن في رسالته المعروفة : « التلخيص لوجود التخليص » (المسألة السادسة) فقال : « وأما ما سألتكم عنه من أمر هذه الفتنة وملابسة الناس بها ، مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض ، فهذا أمر " امتحنا به ، نسأل الله السلامة ؛ وهي فتنة سوء أهلكت الأديان الا من وفى الله تعالى من وجود كثيرة يطول فيها الخطاب . وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن فى شىء من أندلسنا هذه ، أولها عن آخرها ، محارب " لله تعالى ورسوله ، وساع فى الأرض بفساد ؛ والذي تروونه عيانا من شنيع الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون فى ملكك من ضارهم ، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون على أهلها ، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين ، ومسلّطون لليهود على قوارع طرق المسلمين فى أخذ الجزية والضريبة من أهل الاسلام ، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله ، غرضهم فيها استدام نفاذ أمرهم

ونهيهم^١ . وواضح من هذا النص أن ابن حزم قد وجد في مجتمع الطوائف مجتمعا فاسداً اختلط فيه الحق بالباطل ، والحلال بالحرام ، وأصبحت الحياة الاجتماعية فيه ضرباً من الفساد والانحلال ، ومسرحاً للفساد والاستغلال .

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لكان الخطب ، ولكن المشكلة أن الناس لم يعودوا يعرفون الحلال والحرام في الكسب ، فضلاً عن أن رجال الدين أنفسهم قد أصبحوا عوناً على الفساد والطغيان ، فصاروا يأكلون على جميع الموائد ، ويتنافسون في مضمار الشر والفسق والعصيان ! ولهذا يقرر ابن حزم بصراحة أن الوضع قد أصبح مشيناً ، « وبرهان ذلك أني لا أعلم ، لا أنا ولا غيري ، بالأندلس درهماً حلالاً ، ولا ديناراً طيباً يقطع على أنه حلال^٢ » . حقا إن الفلاحين والتجار يكسبون قوتهم حلالاً ، طيباً ، ولكن « ما هو إلا أن يقع الدرهم في أيديهم ، فما يستقر حتى يؤدوه بالعنف ظلماً وعدواناً بقطع مضروب على جماجمهم كجزية اليهود والنصارى ، فيحصل ذلك المال المأخوذ منهم بغير حق عند المتغلب عليهم ، وقد صار ناراً ، فيعطيه لمن اختصه لنفسه من الجند الذين استظهر بهم على تقوية أمره وتمشية دولته ، والقمع لمن خالفه ، والغارة على

(١) ابن حزم : « رسالة التلخيص لوجوه التلخيص » ، متضمنة في مجموعة « الرد على ابن النفريلة ورسائل أخرى » ، تحقيق الدكتور احسان عباس ،

١٩٦٠ ، ص - ١٧٤

(٢) المرجع السابق : ص ١٧٥

رعية من خرج من طاعته أو رعية من دعاه الى طاعته ، فيتضاعف ،
حر النار ، فيعامل بها الجند والتجار والصناع ، فحصلت بأيدي
التجار عقارب وحيئات وأفاعى ، ويتاع بها التجار من الرعية ،
فهكذا الدنانير والدرهم ، كما ترون عياناً ، دواليب تستدير
في نار جهنم ، هذا ما لا مدفع فيه لأحد ، ومن أنكر ما قلنا
بلسانه فحسبه قلبه يعرفه معرفة ضرورية ^١ . واذن فان ابن
حزم يشدد النكير على جزية « القطيع » التى كانت تؤدي في
الأندلس ظلماً وعدواناً المدفع رواتب الجند ، كما يؤكد انعدام
الكسب الحلال ، ما دام الجند انما يعاملون التجار والصناع بتلك
الدراهم والدنانير التى هى مال حرام لا يحق للمسلم
استحلاله .

ويمضى ابن حزم في وصف هذا المجتمع الأندلسى الفاسد .
فيحدثنا بالتفصيل عن جزية القطيع التى كانت تؤدي مشاهرة
وضريبة على أموال المسلمين من الغنم والبقر والدواب والنحل ،
وعلى كل ما يباع في الأسواق ، كما يحدثنا عن إباحة بيع الخمر
من المسلمين في بعض البلاد ، الى أن يقول : « هذا كل ما يقبض
المتغلبون اليوم . وهذا هو هتك الأستار وقص شرائع الاسلام
وحل عراه عروة عروة ، وإحداث دين جديد ، والتخلي عن الله
عز وجل . والله لو علموا أن في عبادة الصليبان تمشية أمورهم
لبادروا اليها ، فنحن نراهم يستمدون (لعلها يستعندون)

النصارى ، فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم ،
يحملونهم أسارى الى بلادهم ، وربما يحمونهم عن حریم الأرض
وحسبهم معهم آمنين ، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً
فأخلوها من الاسلام وعمروها بالنواقيس ، لعن الله جميعهم
وسلط عليهم سيفاً من سيوفه ^١ . ومن هذه العبارات يتضح
لنا أن مجتمع الطوائف قد بدا لابن حزم مجتمعاً نفعياً تتحكم فيه
سيطرة الاقطاع ، وتغلب عليه روح الاستهتار بالدين ،
ويسوده الانحلال والظلم والطغيان . وليس ما يوجب الظن
بأن يكون ابن حزم قد بالغ في وصف شناعة هذا المجتمع ،
فعهدنا بابن حزم مؤرخاً دقيقاً لا يعرف الاغراق أو المبالغة ،
فضلا عن أننا نلمس من وراء عباراته روح الصدق والأمانة
والتزاهة ...

صحيح" أن ابن حزم كان يكره ملوك الطوائف ، بسبب
قلة تمسكهم بعثرى الدين ، فضلا عن استعانتهم بوزراء من
النصارى واليهود ، ولكن من المؤكد مع ذلك أنه لم يكن
متحاملاً على مجتمع الطوائف حينما وصفه بالفساد ودمغه
بالانحلال . ولعل هذا ما اعترف به واحد من خيرة الباحثين
حينما كتب يقول : « لقد كان ابن حزم يشير بأسلوبه القوي
اللاذع الى وقائع وظروف تؤيدها كل الروايات والوثائق
المعاصرة ، وكان بحكم مركزه الاجتماعى الممتاز ، ورفيع مكانته

(١) المرجع السابق : ص ١٧٧

العلمية والدينية يستطيع أن يرى من أوضاع الأمور ما لا يستطيع أن يراء غيره . وقد أصدر ابن حزم أحكامه على دول الطوائف وأمرائها ، بأسلوبه القوي الصارم ، الذى لا تعتوره هوادة ولا تردد ، وبطريقته الحاسمة التى تطبع سائر آرائه ونظرياته ^١ . ومهما كان من عنف ابن حزم فى الحكم على مجتمع الطوائف ، فقد جاء التاريخ متحققاً للكثير من تنبؤاته ، اذ دب الفساد فى أوصال هذا المجتمع فى الفترة التالية لوفاته ابن حزم ، ولهم تلبث ممالك الطوائف أن وقعت جميعاً تحت رحمة ملك قشتالة . وهكذا أثبت ابن حزم أنه المؤرخ المتحقق المثبت الذى يصدر فى أحكامه عن نظرة ثابتة الى أحداث عصره ، ويستند فى تنبؤاته التاريخية الى فهم صحيح لأحوال مجتمعه .

وقد يختلف الباحثون فى الحكم على قيمة ابن حزم الفقيه ، أو ابن حزم المتكلم ، ولكنهم لن ينكروا على ابن حزم صفة المؤرخ القدير . ولئن كان المفكر الأندلسى الكبير قد دأب على استعمال لهجة تقريرية حاسمة فى سائر كتاباته التاريخية (كما كان الحال به دائماً فى شتى مؤلفاته الأخرى) ، الا أن هذا الأسلوب القطعى الجازم لم يكن سوى نتيجة لثقته فى مصادره ، واطمئنانه الى مظانه . ولا شك أن هذا التيقن القائم على

(١) محمد عبد الله عنان : « ابن حزم الفيلسوف الأندلسى الذى أرخ لمجتمع

الطوائف » ، بحث منشور بمجلة « العربى » ، العدد ٦٨ ، يولييه سنة ١٩٦٤ ،

التحرى الدقيق ، والنقل الثابت انما هو الذى كان على ابن حزم استخدام ألفاظ قوية حاسمة (مثل قوله : دائما ، ولا شك ، ولا بد .. الخ .) ومن هنا فقد ذهب بعض الباحثين الى أن ابن حزم كان يتمتع بدقة بالغة فى تحليل النص المنقول ، واختيار الرواية الصائبة بعد الفحص والنظر والمقارنة ، وتصحيح الأوهام التى تنجم عن السرعة أو عن قلة التدقيق . وأصحاب هذا رأى يؤكدون أن ابن حزم كان يتمتع بصفات المؤرخ النزيه المنصف ، على الرغم مما كان فيه من حدة وعنف . ولم تظهر نزاهة ابن حزم فى كتابته للسيرة النبوية فحسب ، بل هى قد ظهرت أيضا فى سائر ما كتبه من مادة تاريخية ، فكانت بذلك ميزة عامة عنده ^١ . وقد اتهم البعض ابن حزم بأنه كان متعصبا لبنى أمية ، ولكنه فى الحقيقة لم يكن من المتشيعين للأمويين بالشرق كما تدلنا على ذلك رسالته فى تواريخ الخلفاء ، وانما كان من أكبر المتحمسين لدولة بنى أمية فى الأندلس ، خصوصا وقد استوزره (وأباه من قبل) طائفة من الخلفاء الأمويين . واذن فلا موضع للطعن فى نزاهة ابن حزم ، بحجة أنه كان « ناصبيا » ^٢ .

وأما طريقة ابن حزم فى تدوين التواريخ ، فقد كانت تقوم فى الغالب على الإيجاز والتلخيص ، مع العناية بالتعداد

(١) احسان عباس وناصر الدين الاسد : مقدمة « جوامع السيرة » ،

١٩٥٦ ، ص ١٠ - ١٢

(٢) المرجع السابق : ص ١٢ - ١٣

والاحصاء . ولعل هذا هو السبب في أننا نجد مجرد السيرة النبوية (مثلاً) من الأشعار والقصص ، كما نراه يروى لنا تواريخ الخلفاء دون التوسع في شرح فتوحاتهم وأعمالهم . ولكننا نجد لدى ابن حزم عقلية تركيية (أو تأليفية) تعرف كيف توحد بين الأشياء المتفرقة المتباعدة ، فتجعلها تحت موضوع واحد ، وتدخل المتشابه منها تحت باب واحد . فهو — مثلاً — في كتابه « نطق العروس » يحدثنا عن « أكثر ما اجتمع في عصر واحد ممن سبق لهم في علم الله عز وجل أن يلوا الخلافة » ، فنراه يجمع تحت هذا العنوان أحداثاً متفرقة من تاريخ الاسلام ، فيشير الى آخر حياة رسول الله حين اجتمع أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن ومعاوية وعبدالله بن الزبير ومروان بن الحكم ؛ ثم يشير الى أيام الوليد بن عبد الملك : فانه اجتمع فيها أحياء موجودين الوليد وسليمان ويزيد وهشام وعمر بن عبد العزيز والوليد بن يزيد وابراهيم بن الوليد ومروان بن محمد وأبو جعفر المنصور ، وكل هؤلاء ولوا الخلافة ، ويشير أخيراً الى أيام هشام المؤيد بن الحكم ، فانه اجتمع فيها أحياء موجودين : هشام والمهدي والمستظهر وسليمان والمستكفي والمعتد وعلي ويحيى والقاسم وادريس ومحمد بن القاسم والمرتضى ، وكل هؤلاء ولوا الخلافة ^١ . وهو في كتابه « جوامع السيرة » لا يكتفى بعرض سيرة الرسول

(١) ابن حزم : « نطق العروس في تواريخ الخلفاء » ، الطبعة المشار اليها ،

والحديث عن مولده ومبعثه وسنه ووفاته وغزواته وما الى ذلك ، بل نراه يخصص فصلا مستقلا للحديث عن نساء الرسول ، وفصلا آخر للحديث عن أبنائه ، وهلمَّ جرَّاء ... وهذه الدراسات التاريخية الموجزة التي لا تخلو من نظائر تاريخية طريفة ، تدلنا على أن ابن حزم كان « دائم التقييد أثناء مطالعته »^١ وأنه كان يحسن التصنيف والتبويب عند تجميعه لأمثال هذه المقيّدات ، فكان من الطبيعي أن تجيء مصنفاته التاريخية حسنة العرض ، طريفة الأسلوب ، حافلة بالنوادير والنظائر والمقارنات التاريخية المدهشة .

وقد لاحظ بعض الباحثين أن لابن حزم — الى جانب هذا كله — نظرات تاريخية صائبة يرسلها بين الحين والآخر ، في عبارات قصيرة مركزة مكنتزة ، فتجمع في كلمات قصار صورة حية صادقة لتاريخ طويل^٢ . وهم يضربون لذلك مثلاً بما أورده ابن حزم في رسالته « أسساء الخلفاء والولاة وذكر مددهم » حين وصف لنا كلا من الدولتين الأموية والعباسية ، فقال : « واتقطعت دولة بنى أمية ، وكانت دولة عربية : لم يتخذوا قاعدة ، إنما كان سكّنى كل امرئ منهم في داره وضيعته التي كانت له قبل الخلافة ، ولا أكثروا احتجان الأموال ، ولا بناء القصور ، ولا استعملوا مع المسلمين أن يخاطبواهم بالتمويل

(١) « جوامع السيرة » تحقيق الدكتورين احسان عباس وناصر الدين الأسد ، ص ١٣ . (من المقدمة) .

(٢) المرجع السابق ص ١٤

ولا التسويد (أى : يا مولاي ، ويا سيدى) ، ويكاتبهم بالعبودية والمثلث ، ولا تقبيل الأرض ولا رجل ولا يد ، وإنما كان غرضهم الطاعة الصحيحة من التولية والعزل فى أقاصى البلاد ، فكانوا يعزلون العتال ، ويولثون الآخر ، فى الأندلس وفى السند ، وفى خراسان ، وفى ارمينية ، وفى اليمن ، فيما بين هذه البلاد » ... الى أن يقول فى الدولة العباسية : « وانتقل الأمر الى بنى «عباس بن عبد المطلب رضوان الله عليه . وكانت دولتهم أعجمية ، سقطت فيها دواوين العرب ، وغلب عجم خراسان على الأمر ، وعاد الأمر ملكاً عضوضاً محققاً كسروياً ، الا أنهم لم يعلنوا بسب أحد من الصحابة رضوان الله عليهم ، بخلاف ما كان بنو أمية يستعملون من لعن على بن أبى طالب رضوان الله عليه ، ولعن بنيه الطاهرين بنى الزهراء ، وكلهم كان على هذا حاشا عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد رحمهما الله تعالى ، فانهما لم يستجيزا ذلك » ^١ . ففى هذه العبارات القلائل استطاع ابن حزم المؤرخ أن يقدم لنا صورة دقيقة وافية للروح العامة التى كانت سائدة فى كل من الدولتين الأموية والعباسية . « ومهما حاولنا التحليل والبسط للحقائق التاريخية ، فان كل ما نذكره لن يتجاوز هذه الحقائق الكبرى التى أجملها ابن حزم فى عبارات قصيرة . » ^٢

(١) المرجع السابق : ص ٣٦٥ ، ٣٦٦

(٢) د. احسان عباس ، و د. ناصر الدين الأسد : مقدمة « جوامع السيرة »

على أن أهمية ابن حزم — في رأينا — كمؤرخ ، لا تقف
عندما قدمه لنا من مصنفات تاريخية تتسم بروح الدقة ،
والنزاهة ، والأمانة ، والانصاف ، وقوة الملاحظة ، والقدرة على
التركيز ، وانما هي تمتد أيضاً الى ملاحظاته المنهجية في مضمار
فلسفة التاريخ ، خصوصاً في بحثه لقيمة « الشهادة » :
Temoignage كمصدر من مصادر المعرفة التاريخية .
وقد سبق لنا أن لاحظنا كيف اهتم ابن حزم بدراسة « علم
التاريخ » (أو « علم الخبر » كما يسميه هو) ، وتحديد
موضوعه ، وتعيين منهجه ، كما عني أيضاً برد المنهج التاريخي
الى أوليات الحس والعقل . ولا بأس من أن نشير في خاتمة هذا
الفصل الى الجهد المنهجي الذي بذله المؤرخ الأندلسي الكبير
في سبيل تحديد القواعد الدقيقة لتمييز الشهادة الصادقة من
الشهادة الكاذبة . فابن حزم — مثلاً — ينبهنا الى أنه ليس ما
يمنع من أن تجيء جماعة كبيرة فتتواطأ على الكذب ، بشرط أن
يتم اجتماع بين أفرادها ، أو أن يكون لهم من وراء هذا
التواطؤ رغبة ، أو أن يكون تواطؤهم عن رهبة . وليس من
العسير على المؤرخ — في مثل هذه الحالة — أن يقف على
الأسباب التي حملتهم على الكذب ، حتى ولو كانوا متفرقين
لا تظللهم سماء واحدة . « ولكننا نقول انه اذا جاء اثنان فأكثر
من ذلك ، وقد تيقنا أنهما لم يلتقيا ، ولا كانت لهما رغبة فيما
أخبرا به ، ولا رهبة منه ، ولم يعلم أحدهما بالآخر ، فحدث
واحد منهما مفترقا عن صاحبه بحديث طويل لا يمكن أن يتفق

خاطر اثنين على توليد مثله ، وذكر كل واحد منهما مشاهدة أو
تقاء لجماعة شاهدت أو أخبرت عن مثلها بأنها شاهدت فهو
خبر صدق يضطر بلا شك من سعه الى تصديقه ... »^١ ، وأما
إذا قيل انه قد يكون الأصل في اتفاق اثنين على رواية كاذبة
واحدة بعينها هو توارد الخواطر ، كان رد ابن حزم على هذا
الزعم أن « اتفاق الخواطر على الكلمات اليسيرة والكلمات
نحو ذلك ... وأما الذى أشك فيه وهو ممتنع فى العقل ، فاتفاق
شاعرين فى قصيدة بل فى بيتين فصاعداً ، والشعر نوع من
أنواع الكلام ، ولكل كلام تأليف ما . والذى ذكره المتكلمون
فى الأشعار من الفصل الذى سمّوه الموارد وذكروا أن
خواطر شعراء اتفقت فى عدة أبيات ، فأحاديث مفتعلة لا تصح
أصلاً ولا تتصل ، وما هى الا سرقات وغارات من بعض
الشعراء على بعض »^٢ .

ولا يتسع المقام للافاضة فى شرح منهج ابن حزم العقلى فى
التثبت من صحة الروايات التاريخية ، والتحقق من صدق
الأحاديث النبوية ، وانما حسبنا أن نكون قد أعطينا القارئ
فكرة عامة عن استناد ابن حزم أولاً وآخراً الى معيار العقل
من أجل معرفة كل خبر ، والتفرقة بين صورة الحق منه وصورة

(١) ابن حزم : « الاحكام فى أصول الاحكام » ، الجزء الاول ، ١٣٤٦ هـ ،

ص ١٠٧ - ١٠٨

(٢) ابن حزم : « الاحكام فى أصول الاحكام » ، الجزء الاول ، ١٣٤٦ هـ ،

ص ١٠٧ - ١٠٨

الباطل (على حد تعبيره هو) . وهكذا نرى أن ابن حزم الذي
رفض شطحات الصوفية ، وندد بمزاعم القائلين بالكرامات
وخوارق الأفعال ، وحمل بشدة على كافة الروايات الدينية
الحافلة بالخرافات والأباطيل والأساطير في الكتب المتداولة بين
اليهود والنصارى ، هو بعينه ابن حزم المؤرخ الواقعي الذي
لم يكن يعتد إلا بشهادة الحس والعقل ، وهو بعينه أيضاً ابن
حزم فيلسوف التاريخ الذي أراد أن يقيم دراسة الوقائع
التاريخية على أسس موضوعية ، دون تجاوز لأوليات الحس
والعقل ، ودون إهابة بأي مبدأ من مبادئ الصدفة أو الاتفاق
أو توارد الخواطر !

الفصل السادس

ابن حزم عالم النفس

قد يعجب القارئ حين يرانا ندخل ابن حزم في عداد علماء النفس ، ولكنه لو قرأ بعين الاعتبار رسالة ابن حزم في الألفة والألاف ، لما تردد في ادراج تلك الرسالة ضمن المحاولات المبكرة في علم النفس . ولئن كان ابن حزم قد تناول موضوع الحب من وجهة نظر الأديب ، والشاعر ، والمؤرخ ، أكثر مما تناوله من وجهة نظر الفيلسوف ، والمحلل ، والباحث النفساني ، إلا أن من المؤكد مع ذلك أننا نلتقي في تضاعيف دراسته للحب بالكثير من الملاحظات النفسية الدقيقة ، والآراء الفلسفية العميقة . ولسنا نريد — في هذه العجالة القصيرة — أن نضع بين يدي القارئ خلاصة وافية لرسالة ابن حزم في الحب ، وإنما حسبنا أن تبرز الجوانب الطريفة والأفكار الأصلية فيما كتبه هذا المفكر العربي الكبير عن تلك العاطفة الانسانية النبيلة . وربما كانت أول ملاحظة تعن للباحث عند مطالعته لرسالة ابن حزم في الحب ، هي هذا التسلسل المنطقي في العرض ، وذلك الترتيب المنهجي في تناول الموضوع ، بعكس ما درج عليه الكتاب العرب من استطراد واسترسال واطناب .

فابن حزم يبدأ حديثه بالكلام في ماهية الحب ، ثم ينتقل بعد ذلك الى الحديث عن نشأة الحب ، فيستقصى علاماته ومظاهره ، ويستعرض أنواعه ونماذجه ، ثم يتتبع أحوال المحبين وعوارض حبه ، فيحدثنا عن الوصل والهجر ، والوفاء والغدر ، واللين والضنى ، والسلو والموت .. الخ . وأخيراً يحدثنا ابن حزم عن صلة الحب بالشهوة ، ويعرج على موضوع الطهر والتعفف ، لكي ينتهى الى القول بأنه لم يحدثنا عن الحب بلغة الشعراء الخالمين ، بل هو قد اقتصر في رسالته على الحقائق الواقعية التي لا يمكن وجود سواها أصلاً .

والظاهر أن الكثيرين من معاصري ابن حزم قد عابوا عليه — وهو الامام الفقيه المتكلم — التعرض لدراسة موضوع كالحب ، فلم يجد ابن حزم بداً من الاعتذار عن ذلك في مقدمة رسالته ، ولسان حاله يقول : انه حتى لو كان الحديث عن الحب أدخل في باب الباطل منه في باب الحق ، فقد قال أبو الدرداء : « أجمثوا النفوس بشيء من الباطل ، ليكون عوناً لها على الحق » ، كما ورد في بعض الأثر : « أريحوا النفوس فانها تصدأ كما يصدأ الحديد ٢ » . واذا كان أول الحب هزلاً ، فان آخره جد . وابن حزم يسجل في صدر كتابه جلال الحب وقداسته ، فيقول : « .. دقت معانيه لجلالته عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها

(١) ابن حزم : « طوق الحمامة في الالف والالاف » ، تحقيق حسن كامل

الصيرفي ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١٥٣

(٢) المرجع السابق : ص ٢

ألا بالمعاناة . وليس بمنكر في الديانة ولا بمحذور في الشريعة ،
ذ القلوب بيد الله عز وجل ^١ . وواضح " من هذا النص أن
ابن حزم كان يخشى أن يقع في ظن البعض أن الحديث عن الحب
هو حديث عن الجنس والشهوة والفاحشة ، فهو أحرص ما يكون
على إبراز قدسية تلك العاطفة ، خصوصا وقد أحب من الخلفاء
المهدين والأئمة الراشدين كثيرون ! ولكن ابن حزم حريص
في الوقت نفسه على تنبيهنا الى أن الحب خبرة متعاشة ، فلا
يُدرِك حقيقته إلا من كابده وعاناه ، وبالتالي فإن ابن حزم
يستند في حديثه عن الحب الى تجربته الخاصة .

والحق أن مفكرنا الأندلسي الكبير لم يكن يجد أدنى حرج
في الإشارة — بين الحين والآخر — الى بعض ما مر به من خبرات
في هذا الصدد ، فهو لا يستند في أحكامه الى آراء نظرية
خالصة ، أو نظريات فلسفية معروفة ، بل هو يستمد أحكامه
من تجاربه وتجارب الآخرين ، دون التعرض لذكر أساء
أصحابها ، اللهم إلا من لم يكن هناك ضرر من تسميته . وهو
يصرف النظر عن أخبار الأعراب والمتقدمين ، لاعتقاده بأن
أساليبهم في الحياة والحب قد كانت مختلفة تماما عن أساليب أهل
عصره ، ولاقتناعه في الوقت نفسه بأنه لا بد له من أن يأتي
بجديد ، بدلا من أن يقتصر على ترديد أحاديث السابقين ^٢ .

بيد أننا نلاحظ أن تعريف ابن حزم للحب لا يخلو من تأثير

(١) المرجع السابق : ص ٥

(٢) ابن حزم : « طوق الحمامة في الالف والالف » ، ١٩٦٤ ، ص ٣

بالنظرية الأفلاطونية المعروفة في الحب ، فأننا نراه يقول :
« وقد اختلف الناس في ماهيته وقالوا وأطالوا ، والذي أذهب
إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في
أصل عنصرها الرفيع » . ولا شك أن هذا التعريف يذكرنا
بحديث أفلاطون المشهور عن « الايروس » في محاورة
« المأدبة »^١ ، خصوصا وأن ابن حزم يستطرد بعد ذلك فيقول
ان المحبة « استحسن روحاني وامتزاج نفساني » . ولكن
ابن حزم لا ينص على الأصل اليوناني لهذه النظرية ، بل هو
يحاول ردها الى الآية الكريمة التي تقول : « هو الذي خلقكم
من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ليسكن اليها » . وحجة
ابن حزم هنا أنه لو كانت علة الحب هي جمال المحبوب ، أو
حسن الصورة الجسدية ، لما كان المحرومون من الجمال أو
ناقصو الصورة موضعاً لحب ، في حين أن التجربة شاهدة على
أن كثيراً من المحبين قد يتعلقون بالأدنى ، وهم يعلمون فضل
غيره ، دون أن يجد الواحد منهم محبداً لقلبه عنه . « ولو كان
للموافقة في الأخلاق ، لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه » .
فلا بد إذن من أن يكون الحب شيئاً في النفس ، وأن يكون
سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والاتصال.
حقاً ان المحبة على أنواع : فهناك محبة القرابة ، ومحبة الألفة
والاشتراك في المطالب ، ومحبة التصاحب والمعرفة ، ومحبة البر

(١) زكريا إبراهيم : « مشكلة الحب » ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٣ ،

يضعه المرء عند أخيه ، ومحبة الطمع في جاه المحبوب ، ومحبة المتحايين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره ، ومحبة بلوغ اللذة وقضاء الوطر ، ومحبة المتحايين في الله عز وجل (اما لاجتهاد في العمل ، واما لاتفاق في أصل النحلة والمذهب ، واما تفضل علم يمنحه الانسان) ، وأخيراً محبة العشق التي لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس . ولكن من المؤكد أنه اذا كانت المحبة لسبب من الأسباب ، فانها لا بد من أن تقضى بفناء هذا السبب : «فمن ودك لأمر ولي مع اتقضائه» . وأما محبة العشق فانها محبة خالصة ، تنفذ الى أعماق النفس فتسكن منها ، ومن هنا فانه لا فناء لهذه المحبة الا بالموت ! وكما أنك قد ترى شخصين يتباغضان بدون سبب ، ويكره أحدهما الآخر دون علة ، ويستثقل الواحد منهما الآخر بلا مبرر ، فكذلك قد ترى شخصين يتحابان دون علة ظاهرة ، ويكئلف الواحد منهما بالآخر لغير ما سبب ، ويأنس الواحد منهما بالآخر دون أدنى مسوغ ! ولكن لا غرابة في ذلك : فان الحب يزين للمرء ما كان يأنف منه ، ويسهل عليه ما كان يصعب عنده ، حتى أنك لتجد المرء حين يمسه الحب وكأئما هو قد استحال الى مخلوق آخر ، أو كأن طبيعته قد تغيرت تغيراً كلياً شاملاً^١ .

بيد أن القول بأن الحب استحسان روحاني أو امتزاج نفساني لا يستلزم بالضرورة أن يكون قوامه التبادل ، فان ابن

(١) ابن حزم : « طوق الحمامة » ، ص ١٠ - ١١

حزم يقيم تفرقة واضحة بين المحب والمحبوب ، كما أنه يقرر في الوقت نفسه أن الحب اضطرار لا اختيار . وهو يعبر عن هذا المعنى في مواضع متفرقة من كتابه فيقول مثلاً : « وأما استحسان الحسن وتمكن الحب ، فطبع لا يؤمر به ولا يَنْهَى عنه ، إذ القلوب بيد مقلبيها ... وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة ... وأما المحبة فخلقة ^١ » . ومن ذلك أيضاً قوله : « .. انى انما أحببته لنفسي ، ولالتذاذها بصورته ، فأنا أتبع قياسى وأقود أصلى وأقفو طريقتى فى الرغبة فى سرورها ... (وأنت) ان بذلت نفسك لم يكن اختياراً ، بل كان اضطراراً ، ولو أمكنك ألا تبذلها لما بذلتها ... » ^٢ . وكما قال أفلاطون من قبل ان اىروس هو المحب لا المحبوب ، نجد ابن حزم أيضاً يلحق الحب بالمحب ، ويتكلم عن معانى الحب وأعراضه وظواهره وشتى آفاته من وجهة نظر المحب ، لا المحبوب . وحتى حين يتحدث ابن حزم عن الوفاء ، فإننا نجده يقيد به المحب لا المحبوب ، لأن الوفاء أوجب على المحب الذى بدأ بالمودعة ، فى حين أن المحبوب مخير فى القبول أو الرفض ! والواقع أن الفارق بين المحب والمحبوب هو كالفارق بين الطالب والمطلوب أو بين الراغب والمرغوب فيه ، أو بين المغنطيس وقطعة الحديد التى تنجذب اليه . فنفس المحب قاصدة الى نفس المحبوب ، باحثة عنه ، مشتية لملاقاته ، جاذبة له لو

(١) ابن حزم : « طوق الحمامة » ص ٣٦

(٢) المرجع السابق : ص ٤٦

أمكنها كالمغناطيس والحديد ، والحركة انما تكون دائما من الأقوى . وابن حزم هنا يتلاقى مع الكاتب الفرنسى ستندال الذى سيقول من بعد ان الرجل فى الحب مهاجم ، والمرأة مدافعة ، والرجل يطلب ، والمرأة ترفض ، والرجل مخاطر جسور ، بينما المرأة متوجسة متخوفة^١ .

ولكن ابن حزم يقرر مع ذلك أن المحبة لا تقوم مطلقا بين متنافرين أو متضادين : لأن الشكل يستدعى دائما شكله ، والمثل الى مثله ساكن . فأنت لا تجد اثنين يتحابان الا وبينهما مشاكلة واتفاق فى الصفات الطبيعية بدرجة تختلف شدة وضعفا . وكلما كثرت عناصر المشاكلة بينهما ، زادت المجانسة ، وتأكدت المودة . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » . ولهذا ما اغتم بقراط حين وُصِفَ له رجل " من أهل التقصان يحبّه ، فقليل له فى ذلك ، فقال : « ما أحبنى الا وقد وافقته فى بعض أخلاقه »^٢ . وابن حزم يضيف الى ذلك أن النفس بطبيعتها جميلة تولع بالجمال ، حسنة تكتلف بكل شىء حسن ، فهى تنجذب بالضرورة نحو الأشكال المنسجمة والصور المتوافقة . وهى حين تميز فى المواضيع الجميلة شيئا من أشكالها ، فانها سرعان ما تتعلّق بها وتنجذب اليها « وان لم تميز وراءها شيئا

(1) Cf. André Maurois : " Cinq Visages de l'Amour ", Didier, New-York, 1942, Ch. III. Les Héroïnes de Stendhal, p. 100.

(٢) ابن حزم : « طوق الحمامة » ، ص ٨

من أشكالها ، لم يتجاوز حبثها الصورة ، وذلك هو الشهوة^١ .

وابن حزم يفيض في الحديث عن علامات الحب ، فيبين لنا كيف أن العين هي باب النفس ، « وهي المنقبة عن سرائرها ، والمعبّرة عن كوامنها ، والمنعربة عن بواطنها » ، فليس بدعاً أن تكون « النظرة » هي نقطة انطلاق الحب . والحق أنه كثيراً ما يكون لصّوق الحب بالقلب من نظرة واحدة ، فترى المرء يعشق صورة لا يعلم من هي ، ولا يدري لها اسماً ولا مستقراً . وابن حزم يحدثنا هنا عن الكثيرين ممن أحبوا من نظرة واحدة ، وكيف نشأت العلاقة في نفوس هؤلاء المحبين من لمحة خاطرة ! بل قد تقع المحبة — في رأيه — بالوصف دون المعاينة ، فيعشق المرء شخصاً لم يره ، أما لأنه سمع عنه من الأخبار ما حبه الى نفسه ، وأما لأن خياله قد صور له ذلك الشخص بصورة المعشوق الأسمى الذي لا يدانيه مخلوق كمالاته وجمالاً ! وابن حزم يعلم أن للخيال دوراً كبيراً في نشأة الحب ، فهو يحدثنا عن محبين شغلوا أنفسهم بغير حقيقة ، وتعلقت أوهامهم بمعدوم أو شبه معدوم ، متعجباً كيف يحب المرء « من لم يره قط ولا خلق ولا هو في الدنيا » ! ولكنه يعود فيفسر لنا هذا النوع من الحب بقوله : « ان الذي أفرغ ذهنه في هوى من لم ير ، لا بد له اذ يخلو بفكره أن يمثل لنفسه صورة يتوهمها ، وعيناً

(١) المرجع السابق : ص ٩

يقيمها تُصنّب ضميمه ، لا يتمثل في هاجسه غيرها ، قد ماث
بوهسه نحوها ^١ . وابن حزم هنا يتلاقى مرة أخرى مع الكاتب
الفرنسي الكبير ستندال الذي سيقول من بعد بفكرة «التبلور»
فيروى لنا كيف أن خيال المحب يخلع على المحبوب كل ما يهواه
هو من ضروب الكمال ، وكيف أن أوهام المحب هي التي تجيء
فنضفى على شخصية المحبوب من المزايا ما يجعل منها جوهرة
ثمينة نادرة ^٢ . وابن حزم يتفق أيضا مع ستندال في أن عليه
التبلور أسرع وأسهل لدى المرأة منها لدى الرجل ، لأن « حب
النساء في هذا أثبت من حب الرجال ، لضعفهن وسرعة اجابة
طبائعهن الى هذا الشأن ، وتمكنه منهن ^٣ » . ولكن الكاتب
العربي الكبير يلاحظ أن « المعاينة » قد تجيء بعد ذلك فتؤكد
هذا النوع من الحب ، وتزيد من قوته ، أو تبطله تماما ، وتقضى
عليه بالكلية ! وهو يروى لنا — في هذا الصدد — الكثير من
الأخبار التي سمع عنها ، ويسرد علينا بعضا مما شاهده بعيني
رأسه ، لكي لا يلبث أن يثند على هذا النوع من الحب حكم
الفيلسوف العاقل المتبصر فيقول : « ان من أحب من نظرة
واحدة ، وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة ، فهو دليل " على قلة

(١) ابن حزم : « طوق الحمامة » ، ص ٢٠ - ٢١

(2) Cf. A. Maurois : "Cinq Visages de l'Amour.",
1942, p. 98.

() وانظر أيضا مقال الدكتور طه حسين المنشور بمجلة « الكاتب المصري » ،
المجلد الثاني ، العدد الخامس ، فبراير سنة ١٩٤٦) .

(٣) « طوق الحمامة » : ص ٢١

الصبر ، ونخبر بسرعة السلو ... وهكذا في جميع الأشياء أسرعها نمواً ، أسرعها فناء ، وأبطؤها حدوثاً ، أبطؤها نقاداً ١ » .

وكما حدثنا ابن حزم عن الحب الذي ينشأ عن الخيال والوصف ، والحب الذي ينشأ من نظرة واحدة ، نجده يحدثنا أيضاً عن الحب الذي يتكون ببطء ، تحت عنوان : « باب من لا يحب إلا مع المطاولة » . وابن حزم هنا يكشف عن عقلية سيكولوجية ممتازة : لأنه يربط الحب بالزمان ، ويقيم العاطفة على تعدد التجارب وارتباطها بموضوع واحد ، فيبين لنا كيف أن للاستقرار النفسي دوراً هاماً في تأصل عاطفة الحب ودوامها ، وكيف أن « ما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً ٢ » . والظاهر أن خبرة ابن حزم الخاصة قد دلته على أن العشق السريع هو أقرب إلى الشهوة منه إلى الحب ، في حين أن العاطفة البطيئة التي تتكون على مر الأيام والليالي لا بد من أن تدوم وتثبت على العكس من الشهوة العابرة أو المغامرة الغرامية الخاطفة . وهو يقول في ذلك بصريح العبارة : « واني لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ، ولا أكاد أصدق ، ولا أجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة . وأما أن يكون في ظني متمكناً من صميم الفؤاد ، نافذاً في حجاب القلب ، فما أقدر ذلك ، وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل ، وبعد ملازمة

(١) المرجع السابق : ص ٢٣ - ٢٤

(٢) المرجع السابق : ص ٢٤

الشخص لى دهرأ ، وأخذى معه فى كل جد وهزل ، وكذلك
أنا فى السلو والتوقى ، فما نسيت ودأ لى قط ١ » .

ولما كان ابن حزم قد ربط الحب بالاستقرار النفسى ، كما
أقام تفرقة حاسمة بين الحب والشهوة ، فاننا نجده يرفض فكرة
التعلق بشخصين فى وقت واحد ، مؤكداً « وحدانية الحب » .
والواقع أن التعدد حليف الشهوة ، فى حين أن الوجدانية قرينة
المحبة . ولهذا يقرر ابن حزم بصراحة أن كل من يزعم أنه يحب
اثنين ، ويعشق شخصين متغايرين ، فقد اختلطت عليه المحبة
بالشهوة ، والشهوة لا تسمى حباً على التحقيق ، بل على المجاز
فقط . ولا بن حزم فى ذلك أبيات جميلة يقول فيها :

كذب المدعى هوى اثنين حتما

مثل ما فى الأصول أكذب مانى

ليس فى القلب موضع "لحيبيـنـ"

ن ولا أحدث الأمور بشانى

فكما العقل واحد "ليس يدرى

خالقاً غير واحد وحرمانـ"

فكذا القلب واحد "ليس يهوى

غير فرد متباعداً أو متداًنـ"

(١) ابن حزم : « طوق الحمامة » ، ص ٢٥

وكذا الدين واحد "مستقيم"

وكتفور "مَنْ عِنْدَهُ دِينَانٌ ١

وواضح "من هذه الآيات أن ابن حزم يؤمن بالوحدانية في الحب ، كما يؤمن تماما بآله واحد ودين واحد . وهو لهذا يستنكر التقلب في الحب ، ويستهن الملل في العاطفة ، ويحمل بشدة على القائلين بإمكان الجمع بين حب اثنين في وقت واحد ! وابن حزم يشير في هذا الموضع الى قصة رجل سريع التقلب كان يشتري الجارية وهي كارهة له ، فلا يلبث كرهها له أن يستحيل الى حب مفرط وكلف زائد به ، بينما لا يشعر هو نحوها بأية عاطفة صادقة أو أى حب صحيح ! وتعليل ابن حزم لهذا الشعور أن « الأعضاء الحساسة مسالك الى النفوس ومؤديات نحوها » ، فلا بد من أن يستند الحب الى دعامة من التوافق الجنسي أو الاشباع الغريزي ... ويروى لنا ابن حزم في موضع آخر أن رجلا يدعى أبا عمر محمد بن عامر « كان يرى الجارية فلا يصبر عنها ، ويحقيق به من الاغتمام والهم ما يكاد أن يأتى عليه حتى يملكها ، ولو حال دون ذلك شوك القتاد ، فاذا أيقن بتصيرها اليه ، عادت المحبة تفاراً ، وذلك الأنس شروداً ، والقلق اليها قلقاً منها ، ونزاعه نحوها نزاعاً عنها ، فيبيعها بأوكس الأثمان ٢ » . ! والشخصية التي

(٢) المرجع السابق : ص ٢٦ - ٢٧

(٢) المرجع السابق : ص ٧٣ - ٧٤ (وانظر أيضا عرض الاستاذ يوسف ،

الشاروني لهذا الكتاب في مجلة « المجلة » ، العدد ١٠٢ - يونية سنة ١٩٦٥ ،

ص ٧٦ - ٨٥) .

يصفها لنا هنا ابن حزم هي أشبه ما تكون بشخصية دون چوان (الذى كان يرى في النساء أعداء له ، فلم يكن الحب في نظره سوى معركة ، ولم يكن يتحدث عندئذ الا عن انتصاراته أو مكاسبه !) . وابن حزم يعلل هذا التقلب في الحب بالملل ، فيقول ان المثلث لا يثبت على حب النساء ، ولا يعرف الاستقرار حتى في مودته مع الأصدقاء ! ولهذا نراه يقرر في موضع آخر « أن من كان سلوه عن ملل ، فليس حبه حقيقة ، والمتسم به صاحب دعوى زائفة ، وانما هو طالب لذة ومبادر شهوة ، والسالى من هذا الوجه ناس مذموم ^١ » وليس من شك في أن من فهم الحب بمعنى التملك أو الحيازة ، فانه سرعان ما ينصرف عن المرأة التى تملكها وأيقن أنها قد صارت اليه ، لكى لا يلبث أن يبحث عن فريسة جديدة يوجه اليها كل سهامه ، حتى يتمكن يوما من الظفر بها ! ومثل هذا النوع من الحب — فى رأى ابن حزم — انما هو مبادرة الى اللذة ، وسعى وراء اشباع الشهوة ، فهو أقرب الى المكلل وحب الاستبدال ، منه الى المحبة أو الاستقرار العاطفى .

ولكن ، لنفرض أن ظروف الانسان قد اضطرتة الى تكرار تجربة الحب ، فما القول فى حبه الثانى ؟ وهل يفيد المرء من خبراته التى اكتسبها فى حبه الأول ، فلا يكرر فى حبه الثانى أخطاءه السابقة ، ولا يقع فى نفس المهاوى التى تردى فيها

(١) المرجع السابق : ص ١٠٧

آتفا ؟ ويبدو لنا هنا أن ابن حزم أميل الى القول بأن لكل فرد منا أسلوبا خاصا في سلوكه ، أو نمطا شخصيا في أخلاقه وتصرفاته ، فهو لا يملك عنه محيدا ، ولا يكاد يقوى على تغييره ، حتى انه ليحب مرة بعد أخرى ، فلا يكاد حبه في كل مرة يختلف عما مر به فيما سلف من تجارب عاطفية . وابن حزم يحدثنا عن هذه الظاهرة في فصل من كتابه سماه باسم « باب من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها » ، فيكاد ينص على ما اصطلح علماء التحليل النفسى اليوم على تسميته باسم « التثبيت » (وهو عبارة عن ارتباط المرء في صباه بشخص أو شيء ارتباطا وثيقا ، بحيث يدوم هذا الارتباط حتى بعد انتقاله الى مرحلة النضج النفسى أو البلوغ العاطفى ^١) . ومما يقوله ابن حزم فى هذا الباب قوله : « .. وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة الى القصر ، فما أحب طويلة بعد هذا . وأعرف أيضا من هوى جارية فى فمها قوّه لطيف ، فلقد كان يتقذر كل فم صغير ويذمه ويكرهه الكراهية الصحيحة ... وعنّى أخبرك أنى أحببت فى صباى جارية لى شقراء الشعر ، فما استحسننت من ذلك الوقت سوداء الشعر ولو (كانت) على صورة الحسن نفسه . وانى لأجد هذا فى أصل تركيبى من ذلك الوقت ، لا تواتينى نفسى على سواه ، ولا تحب غيره البتة » ^٢ .

(1) Cf. A. B. English : "A Student's Dictionary of Psychological Terms.", Harper, New-York, 1934 , Art. "Fixation" p. 52.

(٢) « طوق الحمامة » (ص ٢٨) .

والواقع أن ابن حزم حين يتحدث عن الحب ، فإنه لا يتحدث عن فعل يملك المرء أسباب تصريفه ، بل هو يتحدث عن « داء عياء » لا مدخل للإرادة فيه ، وإن كان الحب بطبيعته « علة مشتهاة لا يود سلبها البرء ^١ » . وهو لا يكتفى بنفى « الاختيار » عن المحب ، بل هو يقرر أيضا أنه ليس ثمة آفة أعظم من الحب ^٢ ! وإن ابن حزم ليس منزه في وصف سلطان الحب على نفوس العاشقين ، فيقول : « اعلم أعزك الله أن للحب حكماً على النفوس ماضياً ، وسلطاناً قاضياً ، وأمرأ لا يخالف ، وحداً لا يعصى ، وملكا لا يتعدى ، وطاعة لا تتسرف ، ونفاذاً لا يتردد ... (وهو) يحل المبرم ، ويحل الجامد ، ويحل الثابت ، ويحل الشغاف ، ويحل المنوع ... الخ ^٣ » وربما كان أعجب ما في الحب أنه يثمن ويصم ، فهو قد يصيب شخصاً عاقلاً رزينا حسن التمييز ، فاذا به يخطئ الخدس ، ويستحسن القبيح ، وينحرف عن جادة الصواب ، حتى ليكاد الهوى يصبح له بمثابة طبع ثان ، فلا يعود يتقبل إلا على الرديء والفساد والمعوج ! ومعنى هذا أن آفة الحب قد تميل بالشخص الى تفضيل الأدنى ، أو هي قد تصرفه عن رؤية الأشخاص والأشياء بعين الحقيقة ، فاذا بالعاشق المؤوف (أى المصاب بآفة الحب) يستحيل الى مخلوق ناقص قد غلب عليه

(١) المرجع السابق : ص ١١

(٢) المرجع السابق : ص ٤٦

(٣) المرجع السابق : ص ٢٧ - ٢٨

هوى عارض « فذهب طبعه الأول ، وهو يعرف فضل ما كان عليه أولاً ^١ » . وقد لا نبالغ اذا قلنا ان ابن حزم هنا يصور لنا الحب بصورة المرض الذى يشل الارادة ، أو الداء الذى يعمى البصيرة ، وكأن أهل الحب عبيد " مغلوبون على أمرهم ، أو ضحايا بريئة لسلطان الهوى الغاشم المستبد !

على أن ابن حزم يشير — فى موضع آخر — الى أن للحب خمسة أدوار أو خمس درجات ، فهو يبدأ عادة بالاستحسان ، والاستحسان أن يتثل الناظر صورة المنظور اليه فيستحسنها ، أو يستحسن أخلاقه ، وهذه الدرجة أدخل فى باب التصادق منها فى باب المحبة ، ثم يجرى بعد ذلك الإعجاب ، فيرغب الناظر فى المنظور اليه ، ويحن الى القرب منه . وتلى ذلك مرحلة الألفة ، وهى الوحشة الى المحبوب اذا غاب ، ثم الكلف : وهو غلبة شغل البال به ، أو هو ما يسمى فى الغزل باسم « العشق » . وأما المرحلة الأخيرة فهى الشغف : وهو امتناع النوم والأكل والشرب ، الا اليسير من ذلك ، وربما أدى الشغف الى المرض ، أو الى التوسوس ، أو الى الموت ^٢ . وابن حزم يحدثنا بالتفصيل عن نشأة الحب ، فيعقد فصلاً يسميه باسم : « باب التعريض بالقول » يحدثنا فيه عن أساليب المحبين المختلفة فى الاعراب عن حبيبهم ، ثم يتتبعه بفصل آخر يسميه باسم « باب

(١) المرجع السابق : ص ٢٩

(٢) ابن حزم : « رسالة الاخلاق » ، سلسلة الثقافة الاسلامية ، مارس

سنة ١٩٦٢ ، القاهرة ، ص ٤٧

الإشارة بالعين « يحدثنا فيه عن لغة العيون وإشارات الألفاظ !
ومما ورد على لسانه في هذا الباب قوله : « واعلم أن العين
تنوب عن الرسل ، ويثدرك بها المراد . والحواس الأربع أبواب
إلى القلب ، ومنافذ نحو النفس ، والعين أبلغها وأصحها دلالة
وأوعاها عملا . وهي رائد النفس الصادق ، ودليلها الهادي ،
ومراتبها المجلوة التي بها تقف على الحقائق ، وتميز الصفات ،
وتفهم المحسوسات . وقد قيل ليس المتخبر كالمعاين ^١ » . ثم
يعرض ابن حزم بعد ذلك لدراسة أساليب المحبين في التراسل
والتواصل ، فيحدثنا عن رسائل العشاق وأشكالها ،
وخصائصها ، وأعاجيبها ، ثم يشير إلى رسائل المحبين أو
سفراتهم ، فيسهب في الحديث عن صفاتهم ، وأنواعهم ،
ومهمتهم .. الخ

وينتقل ابن حزم بعد ذلك إلى الحديث عن أعراض الحب
وصفات المحبين ، فيعقد فصلا تحت عنوان « باب طي السر » ،
ينص فيه على أن من بعض صفات الحب الكتمان باللسان
وجحود المحب أن سئل ، والتصنع باظهار الصبر ... الخ .
ولكن المحب لا يقوى طويلا على كتمان سره ، فإن حركاته
ونظراته سرعان ما تفضح حبه ، وتفصح عن مكنون وده ،
فاذا بالناس جميعا يلحظون اضطرابه عند رؤيته لمحجوبه ،
ويدركون من إشارات وحركاته ما طوى عليه ضلوعه ! . ومن
أعراض الحب أيضا طاعة المحب لمحجوبه وإقياد طبعه لطباع

(١) « طوق الحمامة » ، ص ٣٢ (باب الإشارة بالعين) .

محبوبه ، حتى اننا لنرى الرجل « شرس الخلق ، صعب الشكيسة ، جموح القيادة ، ماضى العزيمة ، حسى الأنف ، أبى الخسف ، فما هو الا أن يتنسّم نسيم الحب ، ويتورط غسره ، ويعوم فى بحرهِ ، فتعود الشراسة لياناً ، والصعوبة سهولة ، والمضاء كلاله ، والحمية استسلاماً .. »^١ . وقد يقع فى ضن البعض أن تذلل المحب لمحبوبه أو صبره على دلاله انما هو دناءة فى النفس ، ولكن ابن حزم لا يرى فى ذلك أية غضاضة ، خصوصاً وأن المحبوب — فى نظره — ليس كفواً للمحب ولا نظيراً له ، فليس فى التذلل له أو الصبر عليه أدنى مذلة أو اهانة ! وابن حزم هنا يروى لنا الكثير من أخبار المحبين الذين اتقادوا وراء محبوبيهم ، دون أن يفكر الواحد منهم فى مصلحته الخاصة ، بل دون أن يحرص على سمعته أو يفكر فى لذته . « ومن عجيب طاعة المحب لمحبوبه أنى أعرف من كان سهر الليالى الكثيرة ولقى الجهد الجاهد ، فقطعت ضروب الوجد ، ثم ظفر بمن يحب ، وليس به امتناع ، ولا عنده دفع ، فحين رأى منه بعض الكراهة لما نواه ، تركه وانصرف عنه ، لا تعفناً ولا تخوفاً ، ولكن توقفاً عند موافقة رضاه .. »^٢ . وأما اذا تعمد المحب مخالفة محبوبه ، واقتصر على بلوغ مرغوبه ، دون الاهتمام بارضاء محبوبه ، فانه عندئذ انما يجعل من الحب مجرد أداة لاشباع أهوائه ، وكأن حبه مجرد متعة شخصية أو عاطفة

(١) المرجع السابق : ص ٣٢ (باب الطاعة) .

(٢) « طوق الحمامة » ، ص ٤٥

أنانية ! (وهذا — مع الأسف — هو ما استحال اليه الحب لدى
الكثير من المحبين) !

وأما آفات الحب — في رأى ابن حزم — فهي عديدة : لأن
منها العاذل ، والرقيب ، والواشى ؛ وهؤلاء جميعاً يعملون على
تكدير صفو العلاقة القائمة بين المحب ومحجوبه ، اما بتشديد
الملامة عليهما ، أو بإفساد جو الوحدة الذى يحرصان عليه ،
أو بالايقاع بينهما عن طريق النسيمة والوشاية . والواقع أنه اذا
كان من عادة المحبين أن يلتسوا الوحدة ، وينشدوا الخلوة ،
فذلك لأنهم يريدون أن يناؤا بأنفسهم عن أعين الغرباء ، وكأنما
هم يشعرون بأنه ظهور « العذول » أو « الرقيب » أو
« الواشى » هو الكفيل بالقضاء على الحب ^١ ! وابن حزم يسهب
في الحديث عن هذه الآفات ، لكى ينبّه العشاق الى الأخطاء
التي تتهدد حبهم ، وكأنما هو يشفق عليهم أن تتحطم أعز
أحلامهم بسبب عذول أو رقيب أو نكّام ! فاذا نجح المحبون في
القضاء على أسباب الكدر ومبررات الاغتمام ، تحققت لهم
أسمى مرتبة من مراتب الحب ، ألا وهى مرتبة الوصل . « ولولا
أن الدنيا دار ممر ومحنة وكدر ، واللجنة دار جزاء وأمان من
المكاره ، لقلنا ان وصل المحبوب هو الصفاء الذى لا كدر
فيه ، والفرح الذى لا شائبة ولا حزن معه ، وكمال الأمانى ،
ومنتهى الأراجى » ^٢ ! وهنا يعطى ابن حزم الفيلسوف الكلمة

(١) زكريا ابراهيم : « مشكلة الحب » ، دار الاداب ، ١٩٦٣ ، ص ٢١٤

(٢) « طوق الحمامة » (باب الوصل) ، ص ٥٩

لأبن حزم الشاعر ، فترى أدينا العربى الكبير يكتب عن الوصل
كلمات رقيقة تنبع من صميم خبرته ، فيقول : « .. لقد جربت
اللذات على تصرفها ، وأدركت الحظوظ على اختلافها ، فها
للدنو من السلطان ، ولا للمال المستفاد ، ولا الوجود بعد
العدم ، ولا الأوبة بعد طول الغيبة ، ولا الأمن بعد الخوف ،
ولا التروح على المال ، من الموقع فى النفس ما للوصل ؛ لاسيَّما
بعد طول الامتناع ، وحلول الهجر حتى يتأجج عليه الجوى ،
ويتوقد لهيب الشوق ، وتنصرم نار الرجاء ... الخ »^١ ولا شك
أن ابن حزم حين يخلع على « الوصل » كل هذه الأهمية ، فانه
انما يعبر عن إيمانه العميق بقيمة تلك « التجربة الميتافيزيقية »
التي يحققها الحب حين يخرج بالذات من قوقعتها المظلمة ، لكي
يقذف بها الى عالم « الآخر » ، أو بالأحرى الى عالم « الأنت »
(ان صح هذا التعبير) ! وابن حزم هنا يناصر « فلسفه
الاتصال » ، ويشدد النكير على القائلين بالانفصال ، لأنه
يشعر بأن الناس قد خَلِقُوا للتجاذب والتواصل ، لا للتنافر
والتباعد . ولهذا نراه يقول : « ان من الناس من يقول ان دوام
الوصل يودى بالحب ، وهذا هجين من القول ، انما ذلك لأهل
الملل ، بل كلما زاد وصلا زاد اتصالا »^١ . صحيح أن الأضداد
أنداد (أو كما يقال عادة : الأضداد فى تماس) ، وصحيح
أيضاً أن الأشياء اذا أفرطت فى غايات تضادها ، ووقفت فى

(١) المرجع السابق : ص ٦٠

(٢) المرجع السابق (باب الوصل) ، ص ٦٢

اتتهاء حدود اختلافها تشابهت (على حد تعبير ابن حزم نفسه) ،
ولكن دوام الوصل مع ذلك لا يؤدي الى الرغبة في الهجر !
وان ابن حزم ليعود مرة أخرى الى تجربته الخاصة ، فيخبرنا
انه ما ارتوى قط من ماء الوصل ، بل كلما زاد ارتواءه ، زاد
ظمؤه ! « ولقد بلغت من التمكن بمن أحبُّ أبعد الغايات التي
لا يجد الانسان وراءها مرمى ، فما وجدتني الا مستزيدا ،
ولقد طال بي ذلك فما أحسست بسآمة ... ولقد ضمنى مجلس
مع بعض من كنت أحب ، فلم أجل خاطري في فن من فنون
الوصل الا وجدته مقصرا عن مرادى وغير شاف وجدى ،
ولا قاض أقل لبانة من لباناتي ، ووجدتني كلما ازددت دنوا
ازددت ولوعا ، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين
ضلوعى .. »^١

وكما حدثنا ابن حزم عن نعمة الوصل ، نجده يحدثنا أيضا
عن آفة الهجر ، فهناك هجر يوجب تحفظ من رقيب حاضر ، وهجر
يوجب التذلل ، وهجر يمتحن به المحبوب صبر محبه ، وهجر
يوجب العتاب لذنب يقع من المحب « وهذا فيه بعض الشدة ،
لكن فرحة الرجعة وسرور الرضى يعدل ما مضى ، فان لرضى
المحبيب بعد سخطه لذة في القلب لا تعدلها لذة ، وموقفا من
الروح لا يفوقه شيء من أسباب الدنيا ... »^٢ وأما أقسى

(١) « طوق الحمامة » : ص ٦٢

(٢) المرجع السابق : باب الهجر : ص ٦٧ - ٧٠ ، (وانظر أيضا مقال

الاستاذ يوسف الشارونى المشار اليه بمجلة « المجلة » ، يونية سنة ١٩٦٥ ، ص ٨٤)

ضروب الهجر فهي الهجر الذي يوجهه الوشاة ، ثم هجر الملل ، وأخيراً هجر القلبي ، وهو الذي تنفذ فيه الحيل ويعظم معه البلاء ! وإذا كان الغدر من آفات الحب فإن الوفاء هو الفضيلة الكبرى في الحب . وأول مراتب الوفاء أن يفى الإنسان لمن يفى له ، وتليها مرتبة ثانية هي الوفاء لمن غدر ، وهي للمحب دون المحبوب ، ثم مرتبة ثالثة وهي الوفاء مع اليأس البات ، وبعد حلول المنايا وفجاءات المنون . ولما كان ابن حزم قد فرق في الحب بين المحب والمحبوب ، فإتينا نجده يجعل الوفاء ألزم على المحب منه على المحبوب ، بحجة « أن المحب هو البادى باللصوق ، والتعرض لعقد الأذمة ، والقاصد لتأكيد المودة ، والمستدعى صحة العشرة ... (في حين أن) المحبوب إنما هو مجلوب إليه ، ومقصود نحوه ، ومخير في القبول أو الترك . فإن قبل فغاية الرجاء ، وإن أبى فغير مستحق للذم ... »^١ . وابن حزم يحدثنا في هذا الصدد عن نفسه فيقول إنه ليس أثقل على نفسه من الغدر ، وليس أحب إلى قلبه من الوفاء ؛ وهو يحمد الله على ما منحه من قدرة على الوفاء ، والمحافظة على العهد ، والعرفان بالجميل ... الخ .

ثم ينتقل ابن حزم إلى الحديث عن البين ، فيقول إن سُنَّة الحياة أنه لا بد لكل مجتمع من افتراق ، ولكل دان من تناء ؛ وقد قال أحد الحكماء : إن الفراق أخو الموت ، فقل له :

(١) المرجع السابق : ص ٨١

« بل الموت أخو الفراق » ! والبين على أنواع : فهناك بين مدة محدودة من الزمن ، وبين هو بمثابة منع من اللقاء ، أو حظر على المحبوب من أن يراه المحب ، وبين يعتمد عليه المحب تجنباً لأقوال الوشاة ، ثم بين الموت ، وهو القوت أو الهول الأكبر ، لأنه غياب لا يرجى منه إياب . « وقد اختلف الناس في أى الأمرين أشد : البين أم الهجر ؟ وكلاهما مرتقى صعب ، وموت أحمر ، وبلية سوداء ، وسنة شهباء ، وكل يستبشع من هذين ما ضاد طبعه . فأما ذو النفس الأبية ، الألوف الحنّانة ، الثابتة على العهد ، فلا شيء يعدل عنده مصيبة البين ، لأنه أتى قصداً ، وتعمدته النوائب عمداً ... وأما ذو النفس التوافة الكثيرة النزوع والتطلع ، القلوق العزوف ، فالهجر داؤه وجالب حتفه ، والبين له مسلاة ومنساة . وأما أنا فالموت عندي أسهل من الفراق ، وما الهجر إلا جالب للكمد ، ويوشك أن دام أن يحدث أضراراً^١ . ثم يحدثنا ابن حزم عن القنوع ، فيقول أن المحب إذا حرم الوصول ، وجد نفسه مضطراً إلى القنوع بما يذكره بالمحبوب ، سواء أكان ذلك بتقيل بعض آثاره ، أو بالاحتفاظ بأشياء كانت ملكاً له ، أو بالاستسلام للخيال والرضا بمزار الطيف ... الخ . ومن العشاق من قنع بأن السماء نظلته هو ومحبوبة ، والأرض تقلهما ، ومنهم من قنع باستوائهما في احاطة

(١) المرجع السابق : ص ٩٢

الليل والنهار بهما ؛ وأما ابن حزم فانه « قانع » بالاجتماع مع مَنْ يحب في علم الله ! »^١ .

ثم يحدثنا ابن حزم في « باب الضنى » عن الأمراض النفسية والجسمية التي قد تترتب على قمع الحب أو كتمانها ، فيقول ان « الأعراض الواقعة من المحبة غير العلل الواقعة من هجمات العلل ، ويميزها الطبيب الحاذق والمتفرد الناقد^٢ » وهو يروى لنا في هذا الصدد بعض حالات الحب التي سبب عنها ، مما أدى بصاحبه الى الخبل أو الجنون (أى المرض العقلى) . ولما كان الحب في نظر ابن حزم ظاهرة بشرية تخضع لما تخضع له سائر الظواهر البشرية الأخرى ، فليس بدعاً أن نراه يختم حديثه عن الحب بالتعرض لباب السلو ، وباب الموت ، اعتقاداً منه بأن « كل ما له أول فلا بد له من آخر » . ومن أسباب السلو ثلاثة أصلها من المحب ، ألا وهى الملل ، والاستبدال ، والحياء ، وأربعة أصلها من المحبوب ، ألا وهى الهجر ، والمفارقة ، والجفاء ، والغدر . وقد يكون السلو خارجاً تماماً عن ارادة الانسان : اما لموت ، واما لبعد لا يرجى بعده عود^٣ ، واما لعلة مزمنة طرأت على المحب ، وهذه جميعاً تدخل تحت باب « اليأس » . وأخيراً يحدثنا ابن حزم عن الموت فيقول انه « ربما تزايد الأمر ورق الطبع وعظم الاشفاق ، فكان سبباً للموت ومفارقة الدنيا ، وقد جاء في الآثار : من عشق فعنف

(١) المرجع السابق : ص ١

(٢) « طوق الحمامة » ، ص ١٠٢

فهو شهيد^١ . وقد تشتد غيرة المرأة على الرجل الذى تحبه . حتى لتجد فى موته عزاء لها عن خوفها من خيائته ، كتلك التى كانت تقول بعد وفاة زوجها : « ما يقوى صبرى ويمسك رمقى فى الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته الا سرورى وتيقنى أنه لا يضسه وامرأة مضجع أبداً ، فقد أمنت هذا الذى ما كنت أتخوف غيره ، وأعظم آمالى اليوم اللحاق به^٢ . ! ولا يتسع المقام للإفاضة فى شرح رأى ابن حزم فى العفاف ، ولكن حسبنا أن نقول انه فى رأيه ممكن بشرط أن يحكم الانسان عقله (وقائده العدل) فى نفسه (وقائدها الشهوة) . والرجال والنساء سواء فى المقدرة على قمع الشهوة — بعكس ما وقع فى ظن الكثيرين — فقد وثجت صالحات من النساء كما وثجت صالحون من الرجال . والمهم فى التعفف هو ضبط الارادة ، وحسن توجيه الانتباه ، فقد جعلت النظرة الأولى لك والأخرى عليك ! وابن حزم يذكرنا بأن بنية الانسان مدخولة ضعيفة ، فلا بد من تجنب أسباب الخطر ، والتحامى بالذات عن مواطن الغواية ، اذا أريد ضبط النفس وامتلاك زمام الذات . وكم أدى طول الاختلاط وكثرة التنافس على النساء الى سفك دماء وازهاق أرواح ! وكم كانت الغيرة سببا فى تعادى المتواصلين ، وتباغضهم بعد المحبة ! وابن حزم يؤكد لنا هنا « أن المودة اذا استحالت الى عداوة ، صارت أفظع من الموت ، وأقذ من السهم ، وأمر

(١) المرجع السابق : ص ١١٥

(٢) المرجع السابق : ص ١١٧

من السقم ، وأوحش من زوال النعم ، وأقبح من حلول
النقم ^١ ... ويختم ابن حزم حديثه عن الحب بالاشادة
بالتعفف ، فيقول ان الرسول قد خص بمدحه « رجلا دعت امرأة
ذات حسب وجمال ، فقال انى أخاف الله » ، وليس عند الله
معصية أقبح من الزنا .

ولا يسعنا في ختام هذا العرض السريع لرسالة ابن حزم في
الحب سوى الاشارة بهذا التحليل النفساني الدقيق لأسباب
الحب وأعراضه وآفاته ، وذلك العرض الفلسفي العميق لصلات
المحبين بالمحبوبين مع ما يكتنفها من علاقات متشابكة متعارضة
متداخلة ... الخ . ولئن كان ابن حزم ليس أول من كتب في
الحب من أدباء العرب (فقد سبقه الى ذلك اخوان الصفا في
بعض رسائلهم ، وابن المقفع في « الأدب الكبير والأدب
الصغير » ، والجاحظ في الرسالة السابعة — من مجموعة
رسائله — في العشق والنساء) ، الا أن ابن حزم قد فاق كل
هؤلاء في دقة منهجه ، وتسلسل أفكاره ، وترايط بحثه ، ورقة
حسّه ، وبعده غوصه . وقد اتبع ابن حزم في دراسته للحب
منهجى الاستبطان والاستقراء ، فجاءت رسالته حافلة
بالملاحظات النفسية الدقيقة ، والخبرات الحية المعاشة ، والأمثلة
التاريخية الصادقة ، والنماذج البشرية المتنوعة ، وهذا ما جعل
منها دراسة فذة في تاريخ الأدب العربى ...

(١) المرجع السابق : ص ١٢٤

خاتمة

أما بعد ، فقد قدمنا للقارئ العربي صورة سريعة لأهم المعالم البارزة في تفكير ابن حزم الأندلسي . ولئن كنا قد ضربنا صفحاً عن جانب غير قليل من اقتاج ابن حزم الأدبي ، فلم نتعرض بالبحث لتثرة ، وشعره ، وبعض جوانب من فلسفته الخلقية ، إلا أننا قد حاولنا بالسمات الرئيسية لمذهبه الفكري ، بوصفه منطقياً ، وجدلياً ، ومتكلماً ، وفقهياً ، ومؤرخاً ، وعالم نفس . ولقد لاحظنا من خلال عرضنا المقتضب لهذا المذهب أن المفكر الأندلسي الكبير كان صاحب منهج عقلي ، وأنه لم يكن على استعداد قط للتنازل عن حجة العقل في سبيل الأخذ بأي مبدأ آخر ، سواء أكان هو الإلهام ، أم هو قول الإمام ، أم هو التقليد ، أم هو الخبر ، أم غير ذلك من المبادئ . ولعل هذا ما عبّر عنه ابن حزم — على طريقته الخاصة — حينما كتب يقول : « ان المرجوع اليه حجج العقول وموجباتها ، (فان) العقل انما هو مميز بين صفات الأشياء الموجودات ، وموقف للمستدل به على حقائق كفيات الأمور الكائنات ، وتميز المحال منها »^١ . فلا طريق الى العلم — في نظر

(١) ابن حزم : « الاحكام في اصول الاحكام » ، ج ١ ، ص ٢٧ - ٢٨

ابن حزم — الا من وجهين : أحدهما ما أوجبه بديهية العقل وأوائل الحس ؛ والثاني مقدمات راجعة الى بديهية العقل وأوائل الحس. ولولا العيان والعقل لما كان في وسعنا أن نعرف الله ، لأن « من أبطل العقل فقد أبطل لتوحيد ... اذ لولا العقل لم يعرف الله عز وجل أحد »^١ وكما أننا نعرف بالعقل أن الله واحد ، فاننا نعرف بالعقل أيضا أن الله قد أرسل إلينا أنبياء ورسلا ، وأن القرآن الذي أتى به رسوله هو عهد الله تعالى إلينا ، وأن ما ورد في كتابه عز وجل حق لا يتعارض مع مدارك العقل والحواس ... الخ . ومعنى هذا أنه لولا تلك المقدمات الصحاح التي يشهد لها العقل والحس ، لما علمنا صحة التوحيد ، وصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وصحة القرآن ، وصدق الرسول في كل ما قال ... الخ .

بيد أن ابن حزم حريص " في الوقت نفسه على وضع العقل في موضعه الصحيح ، فهو لا ينسب إليه القدرة على التحليل أو التحريم ، كما أنه يأبى أن يجعل منه أداة للتحسين أو التقبيح . وهو يقول في ذلك بصريح العبارة : « وأما من ادعى أن العقل يحلل أو يحرم ، أو أن العقل يوجد عللا موجبة لكون ما أظهر الله الخالق تعالى في هذا العالم من جميع أفاعيله الموجودة فيه من الشرائع وغير الشرائع ، فهو بمنزلة من أبطل موجب العقل جملة . وهما طرفان : أحدهما أفرط فخرج من حكم العقل ، والثاني قصر فخرج عن حكم العقل ، ومن ادعى في

(١) « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، ج ١ ، ص ٨٢

العقل ما ليس فيه ، كمن أخرج منه ما فيه ، ولا فرق ^١ .
ومعنى هذا أن ابن حزم لا يبطل حجج العقل جملة ، ولكنه
يأبى في الوقت نفسه أن يحكم بالعقل على الله نفسه ، وهو
خالق العقل ^٢ ! وليس أمعن في الكفر — عند ابن حزم — من
أن تجيء العقول فتستدرك على خالقها عز وجل أشياء لم يحكم
فيها الله بزعمها ، وكأن في وسعها أن ترتب العالم على هواها ،
وأن توجب على الله تعالى قوانين تزعم أنه لا يحيد عنها ، وأن
تحكم على أفعال الله بأنها لا بد من أن تجيء على غرار أفعالها
هى ! وإن ابن حزم ليعرف للعقل البشرى قيمته ، ولكنه يعرف
أيضا أن له حدوده التى هى فى الوقت نفسه شروطه . وحقيقة
العقل عنده انما هى تمييز الأشياء المدركة بالحواس والفهم ،
ومعرفة صفات هذه الأشياء على ما هى عليه ، والبرهنة على
حدوث العالم ، ووحدانية الخالق ، وصحة النبوة ، ووجوب
طاعة الرسل ، والعمل بما صححه العقل من ذلك كله ... الخ .
« فامّا أن يكون العقل يوجب أن يكون التحذير حراما أو
حلالا ، أو يكون التيسر حراما أو حلالا ، أو أن تكون صلاة
الظهر أربعاً وصلاة المغرب ثلاثاً ... أو أن يتزوج (المرء) أربعاً
ولا يتزوج خمساً ، أو يقتل من زنا وهو محصن وإن عفى عنه
زوج المرأة وأبوها ، ولا يقتل قاتل النفس المحرمة عمداً إذا عفا
عنه أولياء المقتول ، أو أن يكون الإنسان ذا عينين دون أن

(١) « الاحكام فى اصول الاحكام » ، ج ١ ، ص ٢٨

(٢) « الفصل فى الملل والاهواء والنحل » ج ٢ ، ص ١٠٧

يكون ذا ثلاث أعين أو أربع ، أو أن تشخص صورة الانسان بالتمييز دون صورة الفرس ... فهذا ما لا مجال للعقل فيه ، لا في ايجابه ولا في المنع منه . وانما في العقل الفهم عن الله تعالى لأوامره ، ووجوب ترك التعدي الى ما يخاف العذاب على تعديه ، والاقرار بأن الله تعالى يفعل ما يشاء ، ولو شاء أن يحرم ما أحل ، أو يحل ما حرم لكان ذلك له تعالى ، ولو فعله ، لكان فرضا علينا الاقياد لكل ذلك ولا مزيد ^١ .

بيد أن بعضا من الفقهاء المعارضين لموقف ابن حزم قد وجدوا في هذا الرأي شذوذاً فكرياً غريباً ، لأنه يؤدي الى القول بأن الشريعة غير معقولة الأحكام ، وأن نصوصها ليست مبنية على علل مطردة ، خصوصاً وأن ابن حزم يرفض الاستنباط بالرأي ، وينكر مبدأ القياس ، فينفى الأسباب كلها عن الله ، ويحرم البحث عن علل النصوص الشرعية ، بدعوى أن الله لا يسأل عما يفعل ^١ وقد سبق لنا أن ناقشنا هذه القضية عند الحديث عن مشكلة تعليل النصوص ، فحسبنا هنا أن نشير الى أن ابن حزم قد ظل متمسكاً حتى النهاية بنزعة الظاهرية المتطرفة في ابطال الرأي والقياس والتقليد والتعليل والاستحسان . واذا كان ابن حزم قد أصر على رفض مبدأ الاجتهاد بالرأي ، فذلك لأنه قد وجد فيه تزايداً على الدين ، وتجاوزاً لحدوده ، ان لم نقل تجاوزاً على الله نفسه ^١

(١) « الاحكام في اصول الاحكام » ، الجزء الاول ، ص ٢٨ - ٢٩

ولا يكتفى ابن حزم بتخطئة من « ادعى في العقل ما ليس فيه » ، مستنداً في ذلك الى « أن العقل لا يَحْكَمُ به على الله الذي خلق العقل ورتبه على ما هو به » ، بل هو يذهب أيضاً الى أن من ترك ظاهر اللفظ وطلب معاني لا يدل عليها لفظ الوحي ، فقد افترى على الله عز وجل . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يتأول شيئاً من القرآن الا بوحي ، فيخرجه عن ظاهره الى التأويل « فمن فعل خلاف ذلك فقد خالف الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فترك الظاهر الذي علمناه وتعديه الى تأويل لم يأت به ظاهر آخر حرام » وفسق ومعصية لله تعالى ^١ . ولم يقتصر ابن حزم على تطبيق مذهبه الظاهري على الفقه والشريعة ، بل هو قد طبقه أيضاً على الكلام والعقيدة ، فصاغ نظرية كلامية تقوم على رفض التأويل وحمل كلام الله على ظاهره ، اللهم الا أن يأتي نص أو اجماع أو ضرورة حس فتقضى باحاطته عن ظاهره . وهذا هو السبب فيما ذهب اليه ابن حزم من اعتبار الصفات الالهية مجرد أسماء لله ، والاقتصار على تخريج الألفاظ التي قد توحى بالتشبيه تخريجا لغوياً يؤديه ظاهر اللفظ . ولا شك أن ابن حزم حينما استمسك بمبدئه الظاهري في فهمه لشتى مسائل العقيدة والكلام انما كان متسقاً مع نفسه ، فما كان لرجل مثله آمن بالحس والعقل ، وأدرك أن العقل في الوقت نفسه لم

(١) المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ١٢٤٦ هـ ، من ٤٢ ، ٤٤

يُجْعَلُ للحكم على خالق العقل ، أن ينتقل بأحكام العقل من
مجال الطبيعيات الى مجال الغيبيات ، أو أن يطبق على عالم
الشريعة ما هو معمول في الأصل لعالم الطبيعة . ومن هنا
فقد أقام ابن حزم تفرقة حاسمة بين عالم الشهادة الذي
تصدق عليه أحكام العقل ، وعالم الغيب الذي ليس للعقل
عليه أى سلطان !

والحق أن ابن حزم الظاهري لم يقل بالوقوف عند حرفية
النصوص لمجرد إيمانه بقصور العقل وحرصه على احترام قدسية
الشريعة ، وإنما هو قد قال بالظاهر لاعتقاده بأن الحقيقة الالهية
بادية للعيان ، وثقته بأن الله قد خاطبنا على قدر عقولنا . وقد
سبق لنا أن رأينا كيف كان ابن حزم نصيراً للوضوح ، وعدواً
للتعقيد ، فليس بدعاً أن نجدّه يؤمن في قرارة نفسه بأن كلام
الله حق لا يحتمل تأويلاً أو تعليلاً ، وأن من الواجب حمل
القرآن على ظاهره ، ما لم يمنع من حمله على ظاهره نص آخر
أو اجماع أو ضرورة حس^١ . وعلى حين كان البعض يفرق بين
علم ظاهر وعلم باطن ، نجد ابن حزم يقرر صراحة أن « هذا
كلام لا يتعقل ، وما علمنا علماً ظاهراً غير باطن ، ولا علماً
باطناً غير ظاهر ، بل كل علم يتيقن فهو ظاهر » الى من علمه ،
وباطن في قلبه معاً . وكل ظن لم يتيقن فليس علماً أصلاً لا ظاهراً
ولا باطناً ، بل هو ضلال وشك وظن محرم القول به في دين الله

(١) « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، الجزء الثاني ، ص ١٢٢

تعالى ١ « ... وواضح " من هذا النص أن ابن حزم لم يكن يرى مبرراً لتلك التفرقة التعسفية بين علم ظاهر وعلم باطن ، بل هو كان يرى أن الصلة وثيقة بين الظاهر والباطن ، وأن العلم الحقيقي ظاهري وباطني معا . وأما كل ما خرج عن هذه الدائرة ، فهو ظن ، وزيف ، وضلال فكري ، دون أن يكون ثمة موضع للقول بوجود « علم ظاهر » !!

ومهما كان من أمر تلك الانحرافات المذهبية التي انتهى إليها ابن حزم بسبب تعصبه للفقهاء الظاهري ، فإن من المؤكد أن مفكرنا الأندلسي الكبير كان نموذجاً للعالم المخلص الذي لا يرى في التنازل عما صح عنده يقينته سوى ضرب من الخيانة الفكرية . ولم يكن إيمان ابن حزم بالظاهر مجرد عناد فكري أو تحجر مذهبي ، وإنما كان نتيجة لاعتقاده الراسخ بأن كلام الله واضح لا ينطوي على أى لبس أو غموض ، وأن نصوص القرآن معقولة المعنى في ذاتها فهي في غنى عن كل تخريج أو تأويل . ولما كانت « السببية » في نظر ابن حزم قانوناً طبيعياً يصندق على عالم الشهادة ، فلا موضع لتطبيق هذا القانون على عالم الغيب . وحينما قال تعالى : « لا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون » ، فقد أخبر تعالى بالفرق بيننا وبينه ، وأن أفعاله لا تجري فيها « لِمَ » ، وبالتالي فقد بطلت الأسباب جملة ، وسقطت العلل جميعاً ، اللهم الا ما نص الله تعالى على

أنه فعله بكذا أو لأجل كذا ...^١ ولما كانت « الآراء » — في نظر ابن حزم — إنما تعنى الظنون ، والتكهنات ، والفروض ، فليس بدعاً أن نجد ابن حزم يستبعد « الرأي » من مجال الفقه ، ما دامت الحقيقة الشرعية — بطبيعتها — حقيقة يقينية لا تحمل الظن أو الترجيح أو الاحتمال !

ولقد خاض ابن حزم الكثير من المعارك الفكرية في سبيل الدفاع عن مذهبه الظاهري ومهاجمة أنصار الرأي والقياس ، فكانت حياته — كما مر بنا — جهاداً مستمراً ، وصراعاً متصلاً .

ولكن المفكر الأندلسي الكبير الذي رأيناه حرباً عواناً على خصومه ، وسيفاً متصلتاً في مهاجمة أعدائه ، هو بعينه الأديب الشاعر الرقيق الذي وصف لنا الحب والمحبين بأجمل عبارة ، وحلل لنا دوافع العشق وأعراضه وآفاته أعظم تحليل . ولا بد من أن يكون القارئ قد لاحظ معنا كيف أن ابن حزم القصب الورع المتدين لم يكتب في الحب كتابة الشاعر المتبذل المستهتر ، بل هو قد كتب كتابة العالم النفساني المدقق المتعمق . ومع ذلك فإنه لم يسلم من ألسنة النقّاد وتجريح الخصوم ، فقال يرد عليهم :

يلوم^٢ رجال^٣ فيك لم يعرفوا الهوى
وسيتان عندي فيك لاح وساكنت^٤

(١) المرجع السابق ، الجزء الثامن ، ص ١٠٢

يقولون جانبك التصاؤون جملة
 وأنت عليهم بالشرعية قانت
 فقلت لهم هذا الرياء بعينه
 صّراحاً وزى للمرائين ماقت
 متى جاء تحريم الهوى عن محمد
 وهل منعه في محكم الذكر ثابت
 إذا لم أواقع محرّماً أتقى به
 بجيئى يوم البعث والوجه باهت
 فليست أبالى في الهوى قول لائم
 سواء لعمرى جاهر أو مخافت
 وهل يلزم الانسان الا اختياره
 وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت ؟ ١

والحق أن ابن حزم حين كتب في الحب فانه لم يتنس أن
 يتخذ من هذه الدراسة مناسبة للحض على الفضيلة ، والدعوة
 الى العفة ، والمناداة بقبح المعصية . ومن هنا فقد أضاف ابن
 حزم الى تحليلاته النفسية العميقة فصائح أخلاقية قيمة توج
 بها رسالته الجميلة في الحب . وما كان لابن حزم أن يتناسى
 « الخير » عند حديثه عن « الجمال » : فان المفكر الأندلسي
 العظيم كان أعلم الناس بما في الجمال من « خير » ، وما في الخير
 من « جمال » ، خصوصاً وأن الفضيلة — عنده — قد بقيت

كما كانت عند اليونان ضرباً من التوافق أو الانسجام ... ولا
سبيل الى تحقيق مثل هذا الانسجام الا بالعمل على طرد الهم ،
والقضاء على أسباب الألم . والناس مجمعون على ضرورة
الوصول الى هذه الغاية ، وان اختلفوا في السبل المؤدية اليها
... وأما ابن حزم الرجل المجرب والعالم المتدين ، فانه لا يرى
سبيلا للوصول الى هذه الغاية الا بالتوجه الى الله عز وجل ،
واثقاً من أنه هيهات للانسان أن يستبعد الألم ويطرد الهم .
اللهم الا اذا توجه بكل قلبه وعقله ونفسه الى المولى سبحانه
وتعالى . وليس بدعاً بعد هذا أن نجد ابن حزم يربط التفضيلة
بالتدين فيقول : « ثق بالمتدين ، وان كان على غير دينك ،
ولا تثق بالمستخف ، وان أظهر أنه على دينك . من استخف
بحرمات الله تعالى فلا تأمنه على شيء تشفق عليه ^١ » . أليس
التدين في نظره هو جماع الأخلاق ؟ فكيف يثق المرء في رجل
مستخف لا وازع له من دين ؟ بل كيف يؤتمن شخص " مستهتر
لا يعصمه عن الرذيلة عاصم ؟ .. ألا رحم الله ابن حزم رحمة
واسعة ، فقد كان بحق أعرف الناس بقيمة الدين ، وأحرصهم
على الربط بين العلم والعمل ... ولنستغفر الله — في النهاية —
مع ابن حزم « استغفار من يعلم أن كلامه من عمله » !

(١) « مداواة النفوس » : ص ١٨

المراجع

نكتفى فى هذه القائمة بالمصادر التى تحدثت عن سيرة ابن حزم ومذهبه ، فلا نورد أسماء كتبه ، اللهم الا أن يكون بها تقديم هام لمحقق الكتاب أو مقلّمه ، فننص عليه .

١ - إبراهيم الأبيارى : مقدمة كتاب « طوق الحمامة فى الألفه والآلاف » ، تحقيق الأستاذ حسن كامل الصيرفى ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٥٩ (طبعة جديدة ١٩٦٤) من ص : « ب » الى ص : « ح » .

٣ - احسان عباس : مقدمة كتاب « الرد على ابن النفريلة اليه » ، تحقيق صاحب المقدمة . دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٥٩ م .

٣ - احسان عباس : مقدمة كتاب « الرد على ابن النفريلة اليهودى ورسائل أخرى » ، تحقيق صاحب المقدمة ، القاهرة ، دار العروبة ، ١٩٦٠ م - ١٣٨٠ هـ .

٤ - احسان عباس ، وناصر الدين الأسد : مقدمة كتاب « جوامع السيرة » ، وخمس رسائل أخرى لابن حزم » ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٦ (من ص ٥ الى ص ٢٥) .

٥ - بسّام (ابن) : « الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة » ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٢٩ .

٦ - بشكوال (ابن) : « الصلة » ، مدريد ، ١٨٨٢ م . (واسم المؤلف فى طبعة القاهرة ابن مشكوايى ، مصر ، ١٩٥٥ م) .

٧ - حجر (ابن) : « لسان الميزان » ، حيدر آباد ، ١٣٣٠ هـ ،
ج ٤ (١٩٨ - ٢٠٢) .

٨ - الحميدى (أبو عبد الله) : « جذوة المقتبس » تحقيق
ابن تاوريت الطنجى ، القاهرة ، السعادة ، ١٩٥٣ م - ١٣٧٢ هـ
(٢٩٠ - ٢٩٣) .

٩ - حسين مؤنس : ترجمة عربية لكتاب « تاريخ الفكر
الاندلسى » ، تأليف لانتخل جنثالث بالينثيا ، مكتبة
النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٥٥ . (من ص ٢١٣ الى
٢٣٩) .

١٠ - الذهبى : « تذكرة الحفاظ » الجزء الثالث ، طبعة حيدر
آباد الدكن ، ١٩٥٧ م . (ج ٣ ، من ص ٣٢١ الى ص
٣٢٩) .

١١ - سعيد الأفغانى : « ابن حزم الاندلسى ، ورسائله فى
المفاضلة بين الصحابة » ، دمشق . المكتبة الهاشمية ،
١٩٤٠ م - ١٣٥٩ هـ - (المقدمة من ص ٤ الى ص ١٥٠) .

١٢ - سعيد الأفغانى : مقدمة « ملخص ابطال القياس والرأى
والاستحسان والتقليد والتعليل » ، دمشق ، مطبعة
جامعة دمشق ، ١٣٧٩ هـ .

١٣ - شوقى ضيف : مقدمة كتاب « نقط العروس فى تواريخ
الخلفاء » لابن حزم - رواية الحميدى ، منشور بمجلة « كلية
الاداب » ، جامعة القاهرة ، المجلد ١٣ ، الجزء الثانى ،
ديسمبر سنة ١٩٥١ (من ص ٤١ الى ص ٤٦) .

١٤ - صاعد الاندلسى : « طبقات الامم » ، طبعة لويس شيخو ،
بيروت ، ١٩١٢ .

١٥ - عبد السلام هارون : تقديم لكتاب « جمهرة انساب العرب » ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٢ . (من ص ٥ الى ص ١٨) .

١٦ - القفطى (ابن) : « اخبار العلماء بأخبار الحكماء » ، ليبسك ، ١٣٢٠ هـ .

١٧ - محمد أبو زهرة : « ابن حزم - حياته وعصره - آراؤه وفقهه » ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ٥٣٨ صفحة .

١٨ - محمد عبد الله عنان : « ابن حزم - الفيلسوف الأندلسى الذى أرخ لمجتمع الطوائف » ، بحث منشور بمجلة « العربى » ، العدد ٦٨ يوليو سنة ١٩٦٤ (من ص ٨٠ الى ص ٨٥) .

١٩ - المراكشى (عبد الواحد بن على) : « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » ، مطبعة مصر ، ١٣٢٤ هـ (من ص ٣٠ الى ص ٣٢) .

٢٠ - المقرئ (أبو العباس احمد) : « نفع الطيب » ، تحقيق الدكتور فريد الرفاعى ، القاهرة ، مطبعة بولاق (الجزء الثانى : من ص ٢٨٣ الى ص ٢٨٩) .

٢١ - ممدوح حقى : مقدمة كتاب « حجة الوداع » لابن حزم ، دمشق ، دار اليقظة العربية ، سنة ١٩٥٩ م (مع تذييل عن المذهب الظاهرى) .

٢٢ - ياقوت الحموى : « معجم الأدباء » ، طبعة القاهرة ، تحقيق الدكتور فريد الرفاعى ، الجزء ١٢ (من ص ٢٣٥ الى ص ٢٥٦) .

- ٢٣ - ياقوت الحموي : « معجم البلدان » ، طبعة دار بيروت ..
- ٢٤ - يوسف الشاروني : عرض لكتاب « طوق الحمامة » لابن حزم ، مجلة «المجلة» ، العدد ١٠٢ ، بونية سنة ١٩٦٥ (من ص ٧٦ الى ص ٨٥) .



(ملاحظة : للمستشرق الأسباني آسبين پلاسيوس *Asim l'alacios* كتاب ضخيم عن ابن حزم *Aben hazam* أشار اليه بالنيابة مؤلفه : « تاريخ الفكر الأندلسي » ولكننا - مع الأسف - لم نتمكن من العثور عليه ...) .

فهرست

صفحة	
٣	مقدمة
١٣	الباب الأول - ابن حزم الانسان
١٤	الفصل الاول : عصره
٢٩	» الثاني : سيرته
٥٦	» الثالث : انتاجه
٧٧	» الرابع : شخصيته
١٠٣	الباب الثاني - ابن حزم المفكر
١٠٤	الفصل الاول : ابن حزم المنطقي
١٣٠	» الثاني : » الجدلي
١٥٥	» الثالث : » المتكلم
١٨٠	» الرابع : » الفقيه
٢٠٦	» الخامس : » المؤرخ
٢٣٢	» السادس : » عالم النفس
٢٥٨	الخاتمة
٢٦٨	المراجع

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع مكامل صدى

أعلام العرب
الكتاب المتأدم

ابن النفيس

مقدم

دكتور بول غليسونجي

الناشر : مكتبة مصر بالفجالة
الثمن : ١٠ ^٤ ودروش

المطبعة